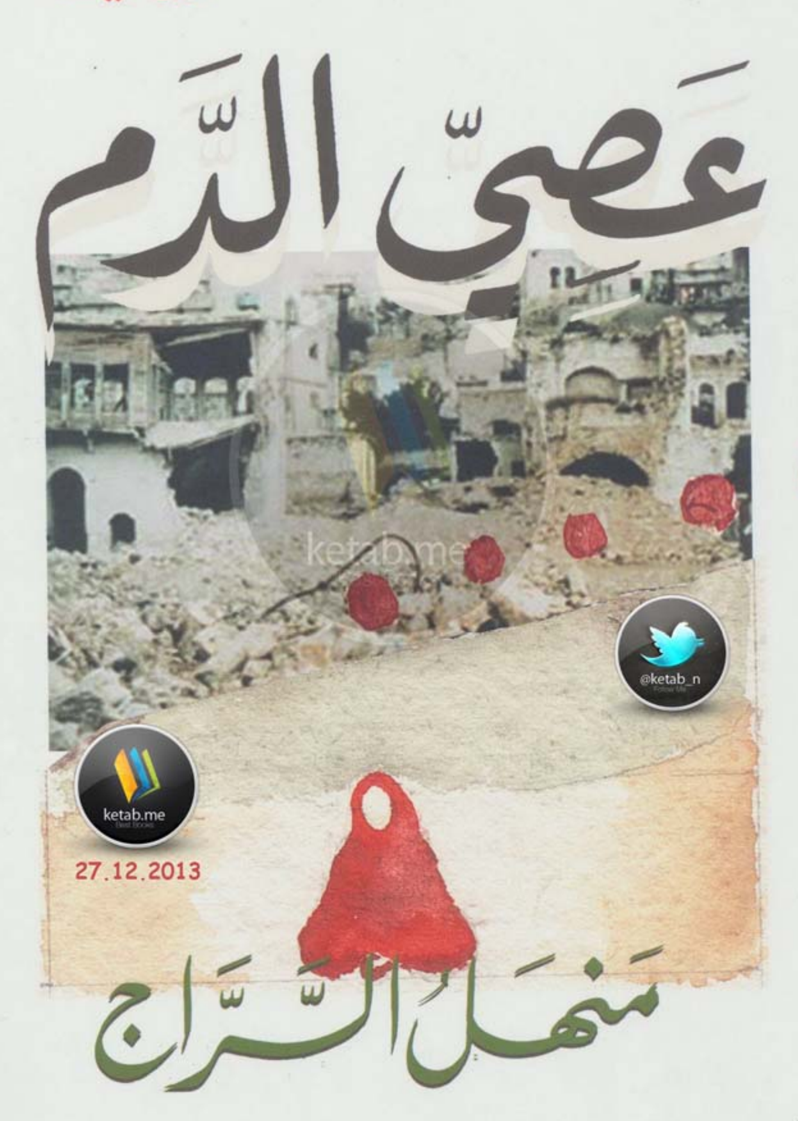
رواية

عَصِيّ الدّم



منهل السّرّاج

دار الآداب

منهل السراج



عصيّ الدم

رواية

دار الآداب ـ بيروت

عصيّ الدم

عصيّ الدم

منهل السرّاج/ روائيّة سوريّة

الطبعة الأولى عام 2012
ISBN 978-9953-89-211-5

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

rana.adab@hotmail.com

Website: www.adabmag.com

نظرت غادة إلى آخر الطريق النازل بحدّة. أخذت نفسًا عميقًا وهبطت طيرانًا، قفزات قصيرة في الهواء، ثوان، وصلت نهايته، حيث شارع الموت.

مات أولاد عديدون في هذا الشارع عفسًا بالسيّارات الشاحنة والباصات المسافرة غربًا. قبل البارحة، فقط، ماتت أمّ صفاء، رفيقة غادة بالصفّ. ماتت عفسًا وهي تقطع الطريق لشراء حاجات البنت من المكتبة الوحيدة في المنطقة، دفتر وقلم رصاص وبرّاية ومحّاية. لم تأت صفاء إلى المدرسة منذ يومين، لأنّها لم تستطع أن تُحضر البرّاية والمحّاية والقلم والدفتر، الأشياء التي طلبتها المعلّمة عيشة الطبّال.

قد تكون صفاء خائفة أن تمسكها المعلّمة من شعرها وتخبط رأسها باللوح الجديد. لو ظلّ اللوح الأسود الخشبي القديم، لكانت الخبطة أقلّ وجعًا، لكنّهم استغنوا عنه، دهنوا الجدار الطويل نفسه بالأخضر وتحوّل الحائط الإسمنتيّ إلى لوح للكتابة والشرح والعقاب. كذلك تغيّبت انتصار بعد أن عوقبت عقابًا شديدًا

من المعلّمة عيشة الطبّال. كلّ يوم تضربها مرّات عديدة، تضربها بعصبيّة شديدة، فيما تجعر انتصار: ما بعرف. لا تعرف الجواب.

وجدت غادة أنّ القسمة هي أصعب الموادّ. شكرت ربّها أنّ المعلّمة عيشة الطبّال، ورغم علامة الحساب المتدنّية، لم تمسكها من شعرها وتخبط رأسها بالحائط. أعطتها ورقة العلامات وقالت: إلى البيت. كانت سيقان غادة ترتعد بوضوح برغم البنطال العريض والصدريّة البيج الطويلة، تتعرّق عند أصابع قدميها، وغازات كثيفة تمسك نفسها بصعوبة مخافة أن تطلقها في حضرة عيشة الطبّال.

انتهى دوام يوم من أيّام المدرسة، صعدت غادة النزلة بتثاقل راجعة إلى البيت، ملوّثة السروال بقطرات بول سقطت رغمًا عنها، حين رأت ورقة العلامات، والعلامة ضعيف في الحساب.

ـ الصفّ الرابع الابتدائي، هو الصفّ الأصعب، قالت لها أختها الكبيرة فداء مواسية، وجلست بجانبها على المقعد الخشبي الطويل، تشرح لها تمارين الحساب، بينما غادة غائبة في خيبتها، تجرّب أن تفهم، عبثًا، تشرد في عقاب المعلّمة، وهي تنظر في أظافرها المحاطة «بعروق الملح». تُعيد أختها الشرح بصبر: هل فهمت؟

ـ إي.

لكنّها لم تفهم شيئًا ولم تسمع شيئًا.

لم تعيّرها أخواتها بالنتيجة «ضعيف»، كعادتهنّ فيما بينهنّ. تجاهلن الأمر، حين دخلت بشفاه مزمومة وعيون منكسرة ومتحفّزة في آن.

أوت إلى فرشتها سريعًا، لتنهي يومًا مخزيًا وتتهرّب من لقاء أمّها وأبيها وأسئلة المساء وتحقيقات المساء. لم تغف، راحت كعادتها تتأمّل في أنحاء الغرفة، دهان الحيطان والسقف، عمود تعليق الملابس، زاوية الغرفة التي يتكدّس عندها السجّاد صيفًا والحصير شتاءً، تتخيّلهم كائنات قادمة من كوكب آخر، لها جلد أملس وجافّ. توغل في التخيّل حتى تصدّق تخيّلاتها، تحبس ريقها في حلقها، متوجّسة من القادم من الحكاية التي خلقتها لنفسها، مرعبة ومثيرة في آن.

دفنت وجهها تحت اللحاف، أحسّت بالاختناق، كشفته، طمرته، ومضت في اللعبة ذاتها.. أصوات أهلها تأتي إليها من الغرفة البعيدة صاخبةً وسعيدةً كعادتهم مساءً، إلّا هي، كيف تتخلّص من المعلّمة عيشة الطبّال!

استيقظت في الصباح مبكرة، ارتدت مريلتها المدرسيّة المرميّة على العمود بين ركام ثياب البنات، تناولت بنطالها، تشمّمته، رائحة بول، لا يمكنها أن تخبر أمّها، سوف تعرف أسرتها جميعًا بخوفها من المعلّمة، وقد تعلّمت أن تخفي ضعفها ولا تُبدي إلّا أقصى عزمها. لبست البنطال على علّاته، حملت حقيبتها وخرجت من دون أن تمشّط شعرها، ما الفائدة؟ فكّرت، لن تصبح تلميذة حلوة بتمشيط شعرها، سمراء، تقول أمّها بانزعاج، حاجباها عريضان ووجهها مكدّر دائمًا بالضيق أو بالخوف، بينما روعة، البنت الشقراء، تأتي كلّ يوم بضفيرة تفوح منها رائحة صابون الغار، تناديها المعلّمة لكي تحمل دفتر التحضير، حلم غادة، تدور

به على الصفوف جميعًا لتأخذ توقيع المعلّمات، صدريّتها نظيفة ومكويّة بعناية، من دون أيّ بقعة زيت أو بقعة حبر، لا تنقّط روعة الزيت من لفافة الزعتر، ولا الحبر من القلم، ولا تلوّث إصبعها الوسطى بالحبر الأزرق. تراقب غادة البنت روعة كلّ يوم وهي تأكل السندويش، تراها تفعل هذا بأناقة. تراقبها بوسواس واحد وأمنية واحدة، أن تصاب روعة بمصابها نفسه، وتلوّث صدريّتها وأصابعها.

حدث ذلك مرّة، شردت البنت روعة، وعلى غير العادة، سقطت نقطة زيت من لفافة الزعتر، وتوضّعت على الصدريّة، وتفشّت، تمامًا كما تمنّت غادة ذلك طويلاً. ابتهجت، وقضت بقيّة اليوم تراقب بعيون شامتة بقعة الزيت المتفشّية على الصدريّة المكويّة.

في اليوم التالي انتظرت غادة قدوم روعة بمريلة مبقّعة، ولكنّ البنت روعة أتت مثل كلّ يوم بضفيرة مرصوصة ومريلة نظيفة ومكويّة وبنطال أزرق فاتح وحذاء لامع وحقيبة جيّدة. نظرت غادة في أصابع روعة، أيضًا نظيفة وبيضاء. نظرت في أصابعها، ممتلئة بعروق جلديّة ناتئة حول الأظافر، والإصبع الوسطى متورّمة منذ دهر، عند مكان إمساك القلم، حين يجب الانتباه إلى الخطّ ألّا ينزل عن السطر، وكان ينزل دائمًا، والحبر ينبع دائمًا.

روعة نظيفة ومرتّبة في الصفّ، تثني المعلّمة عليها، ولا تضربها.

أمّا منى رفيقة الصفّ الرابع أيضًا، فقد أنقذت نفسها من

غضب المعلّمة عيشة الطبّال وعقابها الشديد، بأن أخذت على عاتقها غسل كندرة المعلّمة. تدخل المعلّمة إلى الصفّ، تجلس وراء منضدتها وتخلع الكندرة، وترجع قدميها حافيتين إلى الخلف، فتتّجه أنظار البنات إلى منى، التي تترك مقعدها باعتياد وتمشي بنشاط، تنحني وتحمل بيد واحدة الفردتين الممتلئتين طينًا، تفتح الباب باليد الأخرى وتغيب، فتنجو من خبطة الحيط، والمعلّمة لا تدقّق في وظيفتها، لا تحاسبها كما تفعل مع بقيّة البنات، وتتغاضى عن الجواب الغلط، وحين تأتي ابنة المعلّمة مع أمّها، فإنّ منى تنشغل، طوال الحصّة، بكندرة المعلّمة وابنة المعلّمة، تتمشّى مع الصغيرة المدلّلة في الخارج، تلاعبها وتسلّيها إلى أن تنتهي حصّة الدرس. تتهامس البنات: منى تذهب أيضًا إلى بيت المعلّمة، تشطف لها الدرج وأرض الدار.. وكنّ يلمّحن للبنت منى بهذا، فكانت تهدّدهنّ بحزن أنّها ستخبر المعلّمة. أمّا بقيّة بنات الصفّ البالغ عددهنّ أربعين، فلم ينج رأس بنت من خبطة اللوح.

لم تكن غادة تنقل أخبار الصفّ إلى البيت، كانت تشعر بأنّ كلّ ما يحدث يخصّها وحدها، وأنّ أمّها بالتأكيد ستقول: احفظي دروسك، ولا تخافي. ولكنّها كانت تخاف دائمًا وتخفي خوفها.

نامت غادة بجانب أختها الكبرى فداء. فداء مسموعة الكلمة عند الأمّ وعند الأب، وتجادل الأخ الأكبر أيمن بجرأة. تستقبل الجارات والأقارب، تغلي القهوة وتساير الضيف كما تفعل أمّها. حنطيّة اللون، وكما يُقال بين النساء، ليس من السهل تزويجها، إلّا أنّ أباها يهتمّ بها ويصغي لرأيها، نالت هذا بموهبة الأخت

الكبرى. تنظر غادة إليها بانبهار لأنّها لا تصرخ كما تفعل المعلّمة وكما تفعل الأمّ. تتحدّث بهدوء، وتناقش في السياسة والدين والأدب، وتعلّم غادة شؤون الوطنيّة، وتنبّه أخواتها إلى حبّ فلسطين، وتقديس الشهداء، وتوصيهنّ ألّا يستخدمن في أمثلة مادّة العربي إلّا جملاً عن الحروب والشهادة والاستبسال، لا معنى لجمل بسيطة، مثل: كتبت الطالبة وظيفتها، أو لعب الولد بالكرة. ينتقي الطالب الجادّ معانِيَ «خطيرة وهامّة»: سقط خمسون شهيدًا في المعركة.

كان يشغل غادة أنّ لأختها الكبيرة ثديين ومؤخّرة مثل الأمّهات، صارت صبيّة وربّما تتزوّج وتنجب أولادًا. كيف يأتي الأولاد؟ سؤال حيّر غادة كثيرًا، وحيّرها أكثر أنّ المغنّيات يقلن: حبيبي ويتأوّهن، «هل يغنّين لمن يفعل معهنّ كلامًا رذيلاً؟.. ربّما ينظر الحبيب تحت سروال المغنّية الداخلي! ما الذي يحلّ بجسم البنت حين تكبر؟». تساؤلات صامتة كثيرة وكلّها بلا أجوبة.

في الصباح التالي، دفعت الغطاء بهدوء وسحبت مطّاط بنطال أختها، وراحت تتلصّص على مؤخّرة البنت، فلم تجد شيئًا غير عادي، تلصّصت على أثداء البنت من خلال القبّة الضيّقة، لا شيء غير عادي. استيقظت الأخت الكبرى ونظرت باستغراب، ثم من شدّة النعاس رجعت ونامت. أدركت غادة شيئًا وأسكتت فضولها.

رحاب ذات المؤخّرة الكبيرة، رفيقة الصفّ، تأتي متأخّرة، وتغيب أيّامًا متوالية بلا اكتراث، كثيرًا ما تساءلت غادة كيف لا تخاف من المعلّمة عيشة، وكيف تسمح لها أمّها بكلّ هذا الغياب؟

وماذا تفعل في البيت؟ جرّبت غادة أن تفعل مثلها وتتمارض، قالت لأمّها بطني يوجعني. ردّت الأمّ بلا اكتراث: ابقي في البيت. أدركها الملل بعد ساعة واحدة، وراحت تسمع إلى أغنية فريد الأطرش من الراديو.. اشتاقت للباحة الكبيرة والحديقة الخلفيّة، التي رأت فيها مؤخّرة رحاب. يومها طلبت منها أن تُنزل البنطال وتريها مؤخّرتها ففعلت رحاب هذا بكلّ اعتياد، لديها مؤخّرة بيضاء سمينة، وسروالها الداخلي المزهر يشدّ على لحمها، حسدتها غادة، وحين طلبت منها رحاب أن تفعل الشيء ذاته رفضت غادة، وقالت: عيب. غضبت رحاب وقالت إنّها لن تتكلّم معها بعد الآن. لم تهتمّ غادة لأنّها أسكتت فضولها.



الوقت خريف، تنظر سعاد كلّ حين عبر نافذة المطبخ، تقول هانئة: ما أحلى الشمسات. تحبّ سعاد التشرينين، يتمايل الشجر فوق الرصيف أمام الباب الحديدي الكبير. حفيف الشجر وأصوات الأولاد ذاهبين أو عائدين من المدرسة حسب توقيت دوامهم يبعث عندها نشاطًا. يتردّد كلام عن الحرب، ولكنّ الكلام لا يتجاوز المذياع الموجود في زاوية المطبخ، ولا تريد سعاد تصديقه.

وصل العتّال، ربط حماره إلى الشجرة، وراح يفرغ حمله. أرسل فؤاد خضرة يوم السبت، كثيرة ومتنوّعة، اللحمة، واللبن بأنواعه، والخضار حسب طلب سعاد، والفاكهة حسب الموسم، والحلوى، الجوز والتين والهبّول.. كلّ هذا حمله حمار العتّال على ظهره. أمّا البيض فقد كانت مهمّة غادة شراءه من دكّان الحارة الذي يُدعى «المصوّر»، تدفع ليرة وفرنك وتأخذ صحن كرتون بأربع وعشرين بيضة، ترجع إلى البيت بحملها حابسة أنفاسها خوفًا من أن يقع من بين يديها. يُثير الحمار حزنها وتعاطفها، تُعطي كرتون البيض لأمّها وترجع لكي تتأمّل في عيني الحمار الدامعتين. اقتربت

منه، مرّة، ركعت تدقّق في عينيه ووجهه الطويل وبوزه ومنخاريه، رقبته ورجليه وحدوته و.. رفسها الحمار في بطنها، فقفزت من الألم، ومضت إلى فراشها ونامت، وفي الليل عاتبت الحمار بصمت لأنّ الوجع اشتدّ ولم تخبر أحدًا برفسته.

يفضّل فؤاد إرسال حمل السبت وحمل الثلاثاء مع عتّال محدّد، عبدو، فإن لم يجد عبدو العتّال، يرسل عتّالاً آخر، مع احتمال نقص الفاكهة والحلويات أثناء الطريق. تتضايق سعاد حين تصل المؤونة مأخوذًا منها. ينصحها فؤاد أن تعفو عن العتّال، يقول: «النزلة طريق طلوع طويل، والعتّال يجوع ويشتهي». فتسارع سعاد: فليحضر زوّادته من بيته. ثم، بعد حين، تندم، تفكّر بالثواب الذي ستربحه في السماء، فتقول متفاخرة إنّها نالت أجر إطعام فقير: «خطيّة» العتّال.

تحرص سعاد على الأمانة وتطالب الآخرين بها، وتطبّقها بطريقتها الخاصّة. كان أكثر زبائن دكّان فؤاد من قرية «كفر بهم»، والعديد منهم لا يستطيعون شراء القماش بالفلوس وإنّما يسدّدون ثمنه من محصول الحقل، عنب، تين، خيار، باذنجان.. وغيره. يأتي الزبون حاملاً قرطل الخضار أو الفاكهة: سماح، يا أبو أيمن؟ يردّ أبو أيمن: سماح.. ويقصّ له مراده من القماش.

للدكّان صاحبان، فؤاد وشريكه أبو غالب. يرسلان القرطل مع العتّال إلى بيت سعاد، تقسم محتواه إلى حصّتين إحداهما لبيتهم والثانية لبيت أمّ غالب، وحين ترضى سعاد عن الحصّتين، تمسك وسيلتي العدل خاصّتها، ملعقة وسكّينًا، وتنوي بباطنها أنّ الملعقة

لبيتهم والسكّين لبيت شريكهم. تتناولهما غادة، وتضع بكلّ اعتياد الملعقة عند إحدى الحصّتين والسكّين عند الثانية، فترضى سعاد بالقسمة وترضى عن نفسها وأمانتها، ولكن. . كان هناك أشياء من الصعب اقتسامها بالتساوي، عنب، توت، مشمش، خوخ. . وسعاد تعرف سلفًا أنّ القسمة والنصيب والحظّ ما يحدّد حصّتهم، فإن وضعت غادة العنصر خاصّة بيتهم في مكان الخسارة، الأقلّ جودة أو الأقلّ وزنًا، تنهرها أمّها: يدك غير مبروكة. لكنّها تقبل بالقسمة على مضض، وترسل الحصّة الأفضل إلى بيت أمّ غالب.

تجتمع الأسرة وقت العصر في غرفة الجلوس. يجلس كلّ في مكانه، البنات بجانب الأب، والشباب بجانب الأمّ، والأطفال يتنقّلون.

ترغب سعاد أن تشتري للبنات حليًّا ذهبيّة. قالت وهي تمشّط غرّتها بأصابعها: درجت موضة السبيكة. ابتسم فؤاد راضيًا. أضافت موضّحة: الذهب يبقى وقيمته فيه. هزّ رأسه بإشارة إسكاتها، يريدها أن تكفّ عن المباشرة في كلامها، يحبّ المرأة التي تلمّح تلميحًا فتأخذ العين والقلب وما في الجيب أيضًا بخفّة وطراوة. لكنّ سعاد، زوجته وأمّ أولاده، لم تتقن يومًا فعل هذا، تطلب الطلب بشكل فجّ، وتوضّح الرأي بشكل فجّ كما تصادر التلميح عن محدّثها بشكل فجّ. التقطت فداء الإشارة وسارعت: اشتري لأخواتي، أنا لا يهمّني الذهب. . قاطعها فؤاد: بل لك أوّلاً وأكبر سبيكة، لسمر وبشرى أنصاف سبيكة ولغادة ولينا «تعلوقة» ناعمة. أحبّت غادة كلمة «تعلوقة» ناعمة. لا تعرف كيف

شكل السبيكة وكيف شكل التعلوقة، لكنّها فرحت بالوعد.

ذهبت البنات الثلاث فداء وسمر وبشرى مع أمّهنّ عصر يوم الخميس. لم تكن سعاد ترافق بناتها كلّهنّ في وقت واحد، مربك أن تمشي مع بناتها الخمس، كمن يعرض همّه وسرّه. كانت على الأغلب ترافق اثنتين أو ثلاثًا، ترافق البنت التي تعتقد أنّها مناسبة لمقصدها، فالصغيرة والوسطى لزيارة الأقارب، لينا لأنّها حلوة وناعمة، وبشرى لأنّها صاحبة نكتة ومسلّية، أمّا فداء فتتمنّى مرافقتها في كلّ مشاويرها، فهي فخرها وإن لم تكن بالجمال المطلوب، سمر تلتحق عادة بأختها فداء، أمّا غادة فإنّها ترافقها فقط لزيارة برّيّة القبور. تعرف غادة أنّ عليها، عصر آخر خميس من كلّ شهر، حمل باقة الآس عن أمّها وركوب الباص لزيارة قبر جدّتها وجدّها.

نظرت غادة إلى أمّها وأخواتها عبر نافذة البيت، كان يحلو لها أن تراقب مشية أمّها في الطريق، تحبّ قدميها في جوربين شفّافين لحميَّين، تحت معطف بلون سكّري مع زخّة زرقاء، ورغم أنّ أخواتها كنّ متأنّقات أيضًا، إلّا أنّ أمّها كانت أكثرهنّ جمالاً. أحسّت غادة بسعادة وراحة وهي تنتظر عودتهنّ بحدث الذهب.

حين رجعن كانت سمر تحتجّ: سبيكة بنت الجيران سبيكة كاملة، وأنا نصف سبيكة. أجابتها أمّها: بنت الجيران وحيدة لأمّها. قالت ذلك مشيرة كعادتها بابتلائها بخمس بنات. سحبت غادة حقيبة أمّها وأخرجت العلب الشفّافة الصغيرة، في داخلها قطن زهري تتربّع عليه قطعة الذهب لامعة وناعمة تبهر العين والقلب. «تعلوقة» غادة رأس نفرتيتي مع سلسال بقفل صغير. أحاطت أمّها

عنقها بها ونبّهتها: لا تضيّعيها. و«تعلوقة» لينا حروف اسمها الذي كان شائعًا مع سلسلة بقفل. نظرت غادة إلى طوق لينا بحسرة، ثم غالبت غيرتها كعادتها، تعرف أنّ اسمها غير متداول ولا يمكن أن يعثر عليه محفورًا بالذهب. تكزّ على أسنانها بغيظ وهي تنظر إلى أختها: «بياض وجه لينا وعنقها يجعل التعلوقة أجمل».

جهّزت الأمّ عشاءً مفضّلاً عند بناتها، المقالي والسلطة. ارتدت البنات البيجامات المخيطة من قماش الكتّان المقلّم، الكبيرة أزرق والتي تليها أخضر والوسطى أحمر والرابعة أصفر والخامسة بلون زهري. وضعت البنات حليّهنّ الجديدة في أعناقهنّ وتحلّقن حول مائدة العشاء. كانت الأمّ سعيدة بحليّ البنات، لكنّ في الحلق غصّة، خمس بنات والهمّ للممات، والبنات غير شقراوات. يناضل فؤاد كي ينتزع هذه الغصّة من حلقها ومن حلوق من حولهم، يدفع بناته إلى الجدّ والدراسة والقراءة. لكنّ هموم زوجته تنغّص عليه، يشعر في أعماقه أنّها محقّة، فالجميع بلا استثناء يفضّل البنت شقراء. نظر فؤاد مهمومًا إلى ابنته الأقلّ جمالاً، غادة، سارعت وغطّت أصابع قدميها بطرف قطعة القماش التي يجلسون عليها، قبل أن يقطّب أبوها وجهه، هي الأكثر رصدًا وحساسيّة لهذا الضيق الذي يصيب الأب كلّما لمح إصبع قدم بنت. تربّعت الأمّ، واتّكأت لينا على ركبة أمّها وربيع على الركبة الثانية. أيمن ومخلص خارج البيت على الأغلب في وقت العشاء.

نظر الأب إلى صدور البنات وقال ببهجة: مبارك. يبارك بعمرك، ردّت سعاد. قال يُثني على طعامها: هذا الباذنجان طيّب

كأنّه لحم خروف. أجابته تثني على انتقائه إيّاه، حين الشراء: لأنّه بلدي.

درجت غادة قطعة باذنجان بالخبز وراحت تعضّها، فسقط الزيت على البيجامة. رأتها أمّها وزفرت، سارعت غادة بطيّ القميص على البقعة لتخفيها، تفشّت البقعة، حاولت أن تتدارك الأمر وتعدّل من جلستها، فضرطت. توقّف الجميع عن الطعام وراحوا يرمقونها بامتعاض وضيق. قال أبوها موجّهًا: الإنسان يذهب إلى بيت المرحاض. وأشار لهنّ أن يرجعن لطعامهنّ، لا تريد غادة أن تستمرّ بالطعام الآن، أرخت رأسها فوق صدرها وأكملت تعلك لقمتها، غصّة عالقة في حلقها، ودمعة كبيرة توشك أن تنهمر. اختلست النظر حولها، كانت لينا كعادتها تتدلّع وتتّكئ على ركبة أمّها، وفداء تتحدّث مع أبيها عن مدرستها ومعلّماتها، فيما سمر تنظر في سبيكة صدرها وبشرى ترتّب طعامها بأناقة. أحسّت غادة أنّهم جميعًا أحسن حالاً منها. قطع الأب طعامه ونظر إلى لينا، ترقّبت غادة، لعلّه سيؤنّبها لأنّها تجلس بتراخ، كادت لينا كعادتها أن تتّكئ على ركبة أمّها، شوكولاتة! ناداها أبوها مداعبًا، وضحكوا، التهبت غادة بالغيرة وتلبّد وجهها. راحت ترمق بقعة الزيت على ثيابها ولون يديها الأسمر، وتبتلع الغصّات مع كلّ لقمة.

انشغلوا بالتنظيف وترتيب الجلسة لمتابعة مسلسل المساء. قالت سعاد بصوت منخفض: يخرج مخلص كلّ يوم ويتأخّر، وأضافت برجاء، بالي مشغول. لم يجب فؤاد، راح يلفّ سيجارته بعناية، ثم قال منبّهًا: لِمَ تتابع البنات مسلسل المساء؟ توجّست

غادة، يأخذها المسلسل اليومي إلى عالم آخر، يكسر روتين اليوم، ينسيها عيشة الطبّال، وسمرة وجهها وتلبّدها، أجابت الأمّ تطمئن الأب:

ـ حلقات هذا المسلسل فقط، ثم أنقل التلفزيون إلى غرفتنا، فالامتحانات على الأبواب.

نظر فؤاد إلى ابنته، فلذة كبده، فداء: أحضري آخر موضوع كتبته واقرئيه علينا. عادته كلّ مساء، يسألها عن المدرسة والرفيقات والمعلّمات، وكان الأب وابنته يندمجان بحديث صداقي طويل، الأمر الذي لا يفعله مع بقيّة البنات، ولا يفعله حتى مع أولاده الذكور.

ذهبت فداء بهدوء وعادت بحقيبتها المدرسيّة، جلست بجانب أبيها تقلّب في دفترها، نظر أبوها إلى حقيبتها وقال: أعطي حقيبتك لسمر واشتري لنفسك واحدة جديدة. فرحت سمر وقالت: أنا أيضًا أعطي حقيبتي لبشرى. اعترضت بشرى: أنا لا آخذ حقيبة مستعملة، أريد واحدة جديدة لي. أسكتت فداء أخواتها بنظرة واحدة، ثم وقفت بصدر مشدود ووجه جادّ، وقرأت موضوعها وسط إعجاب أبيها وفخره. قالت أمّها التي لم تصغ للموضوع جيّدًا: راكزة هالبنت. سأل فؤاد ابنته عن حذام معلّمة العربي، طمأنته فداء أنّ معلّمتها امتدحتها وطلبت منها أن تقرأ موضوعها في حفل المدرسة. التمعت عينا الأب مبتهجًا: بصلاة محمّد؟

كان لحذام، قريبة الأمّ، اسم لا يُستهان به في حماة، يحترمها فؤاد ويقدّر نضالها من أجل «حقوق المرأة» ومن أجل «القضيّة

الفلسطينيّة»، وسيكون فخورًا بثنائها على ابنته. حين قابلها صدفة، سألها عن رأيها بابنته، فطمأنته أنّ فداء تُجيد كتابة موضوعات الإنشاء. مضى سعيدًا، حلمه الآن أن تكون ابنته رائدة مثل معلّمتها، تدرس الطبّ وتعتني بالطفل والأمّ.

تابع أسئلة المساء، عن صديقات ابنته، بنات أكثر الأطبّاء شهرة في المدينة. قالت سعاد: متحرّرات لا يناسبْننا. لم يلتفت زوجها إليها أكمل حديثه مع ابنته مشجّعًا وداعمًا.

بأمر جماعي، أوصى فؤاد بناته أن يجمعن الكتب التي قرأنها صيفًا. الكتب التي استعارها في بداية الصيف وأحضرها في كيس كبير من القنّب، حان الآن وقت إرجاعها لصاحبها.

يمضي فؤاد إلى بيت أبو ريمة لإحضار مؤونة الكتب من أجل العطلة الصيفيّة. لا تعرف البنات من هو أبو ريمة، لم يشاهدنه، لكنّه كان أهمّ اسم في البيت صيفًا. يتخيّلن كلّ ما حوله تخيّلاً ممّا يسرده الأب عنه. لا يعرفن إن كان متزوّجًا أم عازبًا، ولا يعرفن لماذا كان لقبه، أبو ريمة، بكسر الميم! يقول فؤاد، أبو ريمة شخص غريب، يعشق شراء الكتب وجمعها، أكداس الكتب تسدّ باب بيته، وتصل إلى السقف ارتفاعًا، وينام الرجل وسط كومات من الكتب.

في أواخر كلّ ربيع يبدأ فؤاد تردّده إلى بيت أبو ريمة، يقول للرجل: البنات يطلبن روايات وقصصًا فقط. يهزّ الرجل رأسه ويقترح أن يقرأن كتبًا متنوّعة. يناوله أحدثها ويسرد ملخّصًا عن كلّ كتاب.

لم يشترط أبو ريمة يومًا ثمنًا محدّدًا لاستعارة الكتاب، كان يترك لفؤاد تقدير الأسعار، يستأجر فؤاد كتب الصيف ولا يشتريها، يستأجرها لبضعة شهور، ويُعيدها في الخريف. يقول للبنات منبّهًا: الكتب.. إلّا الكتب، أو يقول: رجعت الكتب ناقصة، أو مهترئة.. فكنّ يهرعن ويفعلن ما يمكن فعله لكي يعالجن الخطأ، اهتراء الكتاب أقلّ سوءًا من ضياعه. كانت كتب البنات تُستعار ثم تُعاد، إلّا الكتاب الذي تقترحه فداء أنّه جيّد للمكتبة، يشتريه أبوها ويضيفه بنفسه لمكتبة البيت. هذا حال كتب البنات، أمّا كتب الشباب فكان حالها مختلف، كتب مخلص يشتريها الشابّ بنفسه ومسؤول عن إخفائها، لأنّ معظمها كتب أديان وفلسفة، ولم تكن تُرضي فؤاد ولا أيمن، أخاه الكبير، لذا لم تكن له حصّة من رفوف مكتبة البيت. أمّا كتب أيمن التي تتناول عادة السياسة والفكر والتاريخ والعلوم والطبّ والدين الإسلامي والموسوعات والمعاجم فإنّ لأيمن أن يختارها بنفسه ويملأ مكتبة البيت بها. للمكتبة رفوف كثيرة وللتصنيف أهمّيّة بالغة. خُصّصت الرفوف الأرضيّة لأعداد مجلّة العربي الشهريّة والجرائد الأدبيّة، والرفوف العليا للموسوعات والمعاجم.

تتوسّط المكتبة الصالة الكبيرة في البيت بحيث يراها الجميع في طريقهم إلى غرفهم.

أنهى فؤاد مهمّته في جمع الكتب ومضى إلى ركنه يدخّن ويتابع الأخبار. أمرت سعاد بناتها أن يودعن الحليّ معها قبل أن يذهبن إلى النوم، غير مسموح الذهاب إلى المدارس بحليّ ذهبيّة، اعترضت غادة: غدًا الجمعة، ويوم السبت أخفي الطوق تحت

الصدريّة. نهرتها أمّها: اتركيها هنا، ثم فتحت حرج ثوبها. راحت البنات على التوالي، يخلعن الحليّ ويرمينها في حضنها، كوّرت سعاد منديل الحليّ وربطته جيّدًا، ثم دسّته في الكنبة تحت فخذها، فيما كان ربيع يحاول سحب المنديل منها، وهي تنهره برخاوة، فيمضي في لهوه أكثر. قال فؤاد: ستفسدين الولد بدلالك. استنفرت سعاد، لا تقبل أيّ نقد على ابنها، قالت: صغير، ثم أخذته وخرجت من غرفة الجلوس غير ناسية منديل الذهب.

حين رجعت سعاد وجدت فؤاد يقطّع برتقالة، قال: الولد يتأتئ، وربّما دلالك الزائد هو السبب. ناولها حزّ برتقالة.

استنفرت سعاد:

- أصابته عين أمّ غالب زوجة شريكك في الدكّان، راح يحكي لها عن القمر والشمس والليل والنهار، فالتفتت إليّ وقالت: والله ابني كان أكبر منه ولا يعرف القمر من الشمس، في اليوم الثاني مباشرة بدأ الولد يتأتئ.

زفر فؤاد وأوشك أن يقول: هذا جهل. لكنّه أمسك عن قول هذا، ووضع حزّ البرتقالة في فمه وصمت، كأنّها سمعت ما فكّر فيه، فحزنت، وظلّت صامتة طوال السهرة، تفكّر قلقة بأحوال مخلص.

طُرق الباب الحديدي الكبير في الثانية عشرة ليلاً، طرقًا سريعًا، رافقه ضجيج أصوات مختلفة، استيقظ الجميع، وركضت البنات خلف أمّهنّ، وقفنَ وراء الباب الخشبي الداخلي ينتظرن أن يستطلع الأب الأمر.

استطعن ومن خلال الباب الموارب أن يشاهدن مخلص محمولاً على كتفي أصحابه مرخيّ الرأس. شهقت سعاد وهمّت أن تصرخ، لكنّها أمسكت حين شاهدت وجه زوجها غاضبًا وحانقًا وخجلاً في آن.

ـ أين كان؟ سأل.

ـ عند السكّة يا عمّي، خشينا أن يأتي القطار.

ـ أين كنتم؟

ـ عند رفاقنا.

طلب النزول به إلى غرفة القبو المهجورة، يوجد سرير لحالات خاصّة غير مفهومة كما هذه الحالة.

خافت غادة بشدّة وظنّت أنّ أخاها مات. سألت وهي ترتجف، ماذا به أخي مخلص؟ نهرتها أمّها وقالت لكلّ البنات المبهوتات: إلى النوم، مخلص بخير. حين رأت غادة توتّر الأمّ أدركت أنّ هناك مشكلة غير مفهومة، ولكنّ أخاها بخير، وغدًا تراه وتتحدّث معه، إنّه نائم الآن فقط، لا بدّ أنّه فعل أمرًا سيّئًا. يمكن قراءة هذا من غضب الأب، ومن خيبة الأمّ التي لم تكن حزنًا بقدر ما كانت ضيقًا وغضبًا. وقبل أن تغفو غادة، سمعت صوت الباب الخارجي يُفتح، تعرف قفزات أخيها الكبير أيمن على الدرج، نشطة قويّة ومتّزنة في آن، لكنّها غامضة، فكّرت.

استقبل الأب ابنه أيمن بتلهّف وقال: أحضروا مخلص «سكران».

امتعض أيمن وقال غاضبًا: فضائح كلّ يوم! لم لا يفهم ما أقوله؟ لا فائدة، ليس في رأسه إلّا الشرب والسهر والله أعلم.

راحت الأمّ ترجو زوجها وابنها البكر أن يهدآ الآن، ويصمتا، ويؤجّلا الحديث ليوم الغد.

وجد مخلص نفسه في القبو، وعلى سرير العقاب، مُحاطًا بكراكيب البيت. تلفّت حوله: كيف وصل إلى هنا؟ ترك السرير وصعد الدرجات، فوجد أباه وأيمن ينتظران، وأمّه خلفهما متوجّسة وخائفة وراجية.

كان الصباح صباح الجمعة، ويوم الجمعة، عند أهل البيت، يعني نهارًا طويلاً مع احتمال حدوث مشاحنات.

تناهى إلى سمع البنات تأنيب الأب لمخلص بصوت غاضب، ثم تأنيب أيمن لأخيه ببطء وبرود. يُعيد الكلام بإيقاع واحد: ألا تخجل؟ ألا تخجل؟ صرت في الثانويّة، وما زلت طائشًا، تذهب إلى المقاصف وتشرب؟ وفوق هذا، تكمل سهرتك عند سكّة الحديد..!

رفض مخلص تدخّل أخيه الكبير: لا علاقة لك بي. غضب الأب: اسكت، احتجّ مخلص بصوت مرتفع وحادّ وهو يغالب دموعه، قال إنّهم يميّزون أيمن عنه بكلّ شيء، وإنّه لا يطيق البقاء في البيت، وإنّهم غير عادلين. كان صوته يحتدّ مع نشيجه، استفزّ أباه، ترك فؤاد مقعده وتقدّم من ابنه وصفعه، وصُعق كلّ من في البيت.

ركض مخلص بثياب الليل التي رجع محمولاً فيها، فتح الباب الحديدي الكبير وخرج. صفقه بكلّ ما أوتي من قوّة.

عبّر أيمن عن رأيه: لا يجدي الضرب!

أمره أبوه أن يمضي من وجهه أيضًا. راحت سعاد تبكي وتحضن ربيع. اختفت كلمات ربيع تمامًا وهو يحاول بتأتأة زائدة أن يسأل لماذا يضربون مخلص وهو يحبّه. جلس فؤاد يدخّن ويزفر غاضبًا وصامتًا ونادمًا.

وكعادة فداء حين تحلّل الأحداث بعقلانيّة، قالت لأخواتها: ضربه لأنّه يشبهه. كانت تشعر بأنّ هناك شبهًا عميقًا بين أبيها وأخيها مخلص، وإن بدا العكس تمامًا. سألت غادة: كيف يشبهه؟ مخلص يشرب الخمر أمّا أبي فلا يفعل.. صمتت فداء فهي لم تكن متيقّنة بأنّ أباها لا يفعل. اعترضت سمر: مخلص يصعد إلى سطح البيت ويتلصّص على بنات الجيران، نور ونعمة..

لم تدر البنات أنّ الأمّ وراءهنّ تتابع جدالهنّ، وما إن سمعت اسمي البنتين حتى صرخت بأن يخرسن، كيف يجرؤن على فتح سيرة بنات أمّ صالح، الشيخة! قالت سمر: الشيخة! أخي أيمن نفسه يقول إنّ دينها غير حقيقي، تؤذي جيرانها وتسدّ مصرف الماء فترجع المياه الملوّثة إلى بيت جيرانها المساكين. امتعضت سعاد: من هم المساكين؟ تلك المطلّقة التي تعيش مع بناتها بمفردها؟ فكّرت غادة: ما العيب إذا عاشت بمفردها؟ عبّرت بشرى عن رأيها: يأتي لزيارتها أقارب من الشام أكابر ويلبسون ثيابًا حلوة. تدخّلت لينا وقالت بصوت ناعم وحادّ: نعم أكابر، يمسكون

الخرجيّة[1] بإصبعين هكذا، أمّا نحن فنمسكها بكلّ أصابعنا، وكوّرت قبضتها غاضبة، ثم أضافت: سوف أمسك الخرجيّة منذ اليوم مثلهم وأصير أكابر. أيّدتها بشرى. سخرت غادة: هذا كلام سخيف وتافه، وأنت أيضًا تافهة وغبيّة وشخصيّتك ضعيفة. وصبّت كلّ ما لديها من ضغط الليلة الفائتة على البنت. لم تهتمّ لينا، ذكّرتها ببرود بعلامة الحساب: اثنان من عشرة. وهجمت غادة، وراحت تشدّ شعر أختها الصغرى بكلّ عزمها والبنت تستغيث، تدخّلت بشرى وخلّصتها، ضربتها غادة أيضًا، عضّتها بشرى من ذراعها.. وتعالى صراخ البنات الثلاث.

جاء أيمن مستفسرًا. كانت غادة تجعر: بشرى عضّت ذراعي التي ضربتني عليها في الأسبوع الفائت. أخفى أيمن ابتسامته، وقال لبشرى: ألا يكفي أنّك ضربتها في الأسبوع الفائت واليوم تعضّين الذراع التي ضربتها عليها؟ دُهشت بشرى وحاولت الشرح بأنّ غادة هي التي بدأت بالضرب.. قطع أيمن الكلام، مراعيًا غادة وداعمًا لها، آملاً أنّها ستكون محامية ناجحة، مسح على رأسها وخرج. رفعت غادة رأسها ونظرت إلى أخواتها بشموخ، فازت بتشجيع الأخ الكبير.

ثم سرعان ما وجدت نفسها وحيدة.

انصرف أيمن إلى غرفته وكتبه وانشغالاته الغامضة، وجلس فؤاد في شرفة البيت يدخّن ويزفر، راحت سعاد إلى مطبخها، تعدّ مجدّرة وشوربة وعجّة، غداء يوم الجمعة.

---

(١) مصروف الأولاد.

انشغلت البنات بعد القتال في ترتيب الخزائن، واجب يوم الجمعة، سيقوم الأب بالتفتيش بعد حين، والتفتيش الأسبوعي يعني تفقّد الخزائن وحقائب المدرسة، دفاتر وأقلام وأظافر مقصوصة.. بتشدّد وصرامة.

كانت سعاد تقلي البصل حين خرج فؤاد إلى صلاة الجمعة في جامع المنطقة القريب، لحقت به: ـ هل ستبحث عن مخلص؟

ـ ليس الآن.

خرج أيمن للصلاة في جامع السلطان في منطقة الدبّاغة وسط المدينة تاركًا وراءه روائح خاصّة وغامضة.

حلّ المساء ولم يرجع مخلص، أعدّت سعاد عشاء خفيفًا، زيتون وجبنة وبندورة ومكدوس(١) مع إبريق شاي مصنوع من التوتياء الأزرق. أكلوا واجمين وصامتين، يقطع الصمت صوت ملعقة الشاي تُذيب السكّر في الكؤوس. يفكّرون بمخلص ويرمقون وجه أبيهم باحتساب. دخل أيمن، سألته أمّه إن كان يريد أن يأكل، قال: أكلت. من النادر أن يتربّع مع أهله ليأكل، تظنّ غادة أنّه لا يفعل لأنّه لا يجد متّسعًا له، قامته طويلة، يحتاج قدر تربيعة ثلاث بنات.

جلس على الكنبة الرئيسيّة وسأل بلا حرج وبصوت ثابت: رجع مخلص؟ قالت أمّه بحزن: لا خبر ولا علم. أجاب بحزم: سيرجع، لا تقلقي، ثم أضاف، ارتكب البارحة ذنبًا كبيرًا. حمحم

---

(١) باذنجان صغير الحجم مخلّل مع الجوز والفليفلة وزيت الزيتون.

فؤاد، لا يريد أن يتداول الأمر أمام البنات.

تركت البنات العشاء وخرجن متواليات، الواحدة تلو الأخرى، إلّا فداء، راحت تتحدّث إلى ربيع. قالت سعاد برجاء: ألن تسألوا عنه؟

طلب فؤاد من فداء أن تدير التلفاز على نشرة الأخبار راغبًا بإغلاق الموضوع.

كان أيمن يقلّب جريدة في يده منتظرًا انتهاءهم من العشاء، وحين وجد الوقت مناسبًا التفت إلى أبيه وطلب بلا تردّد، أن يغلقوا الروضة. سارعت الأمّ: ولماذا؟ أنا أتسلّى بها.

- ضجيج الأولاد، يزعج وقت القيلولة.

- لكنّك في دمشق في جامعتك معظم الوقت، والروضة تسلّيني.

تدخّل فؤاد ناظرًا بامتعاض إلى زوجته التي لا تفهم القصد سريعًا.

أجاب ابنه بخنوع: نفكّر بالأمر. اكتفى أيمن بهذا الجواب واتّجه إلى غرفته وأغلق الباب خلفه. وحدهما الأب وابنته فداء فهما القصد من طلب أيمن. لم تكن فداء مرتاحة لاستسلام الأب لابنه. يريد أيمن إغلاق الروضة كي يمنع دخول الأغراب واحتمال حدوث تلصّص على أمور بيتهم، فقد ترقّى في جماعة الإخوان المسلمين، وإنّ ما يأتي به من أوراق وحاجات التنظيم يحتاج الحرص والحذر والسرّيّة التامّة.

افتتحت الروضة ضمن مشروع «جمعيّة حماية الطفولة» كان فؤاد عضوًا فيها وليس رئيسًا، الرئيس كان شخصًا آخر لديه شهادة جامعيّة. كان فؤاد محبوبًا من قبل المعلّمات اللواتي اختار معظمهنّ بنفسه، طول إحداهنّ أقلّ من مترين بقليل، تضطرّ إلى خفض رأسها حين تتحدّث إلى فؤاد، لأنّ فؤاد مربوع القامة، تقول عنه سعاد، قصير القامة بين الرجال، ويفضّل النساء طويلات القامة والنحيلات، حتى آذنة المدرسة اختارها طويلة ونحيلة، كان طولها وعرضها كطول الرجال وعرضهم. ولها كفّان تحتويان كلّ رأس الولد حين تغسل وجهه. صوتها خشن، والبنات حين القتال، يعيّرن بعضهن بـ يا آمنة، اسم الآذنة، يعني خشنة ومسترجلة. تعامل فؤاد مع جميع المعلّمات بلطافة مبالغة وأحيانًا ملتبسة، ممّا كان سببًا لغضب زوجته، تكابر في أوقات، وتفلت في أوقات أخرى. كان ينهاها بأقوال تتفاوت حسب غضبه، لا تقلّلي عقل.. حتى اقتنعت بأنّها أقلّ ذكاء منه ومن المعلّمات ومن زوجات أعضاء الجمعيّة، فانزوت مغلوبةً على أمرها.

اتّخذت جمعيّة حماية الطفولة فكرتها من برنامج فرنسي عن رعاية الطفولة وحمايتها. أنشئت عدّة روضات في وقت واحد وفي مناطق مختلفة من حماة، كانت روضة الأمل في منطقة البيّاض، افتتحت في الطابق الأرضي من بيت فؤاد، مساحة واسعة ومشمسة والهواء يلعب بين الزوايا، تسلّمت سعاد الإدارة اسميًّا. كانت المعلّمات الثلاث اللواتي توظّفن في الروضة، أكثر تعليمًا منها إلّا أنّهنّ من عائلات فقيرة، قبلن رئاستها كونها زوجة عضو الجمعيّة ولأنّ البيت بيتها والرزق رزقها.

لم تكن سعاد تجلس وراء منضدة الإدارة الحديديّة الثقيلة، ولا تجلس على الكرسي الجلدي الأسود الدوّار، كانت تفضّل الجلوس في كنبة جانبيّة، دائمًا يغطّي الغبار رأس مسندها. تترك أمور الإدارة الفعليّة لأكبر المعلّمات، فهي تخجل أن تعقد الاجتماعات أو أن تحضرها. كان الأمر الوحيد الذي تحرص عليه بشدّة وتتابعه بدقّة، هو درج الفلوس، الأقساط الشهريّة التي يحضرها الأولاد وهم يحملونها بأكفّهم الصغيرة. يناولون المديرة الفلوس ويركضون، كانت سعاد تستدعي من يتأخّر في تسديد القسط إلى غرفة الإدارة وتطلب منه بوضوح أن يخبر أهله أنّ موعد قسطه قد حان.

كانت غادة في الخامسة حين افتتحت الروضة، وكبرت فيها، وكانت تسأل نفسها لِمَ كان على الولد أن يدفع الفلوس في مكان لا يُقدّم له حلوى أو ألعابًا؟ حين سمعها فؤاد تقول هذا، طلب من سعاد إحضار حلوى وتوزيعها على الأولاد كلّ يوم سبت، استجابت سعاد له، لكنّها، ومن باب الحرص على ربح الروضة، اشترت أسوأ أنواع السكاكر، كيسًا كبيرًا من السكاكر الملوّنة شديدة الصلابة، يمصّها الولد طوال النهار ولا تذوب، ولأنّ الأولاد قليلو الصبر ويرغبون بملء الحنك بالسكّر، فقد كانوا يستعجلون بكسرها بين أسنانهم الصغيرة ويعتريهم ألم هائل، يكفكفون الدمع واللعاب ويكملون قرط السكّر، ثم يقضون بقيّة الوقت يحاولون خلع التصاقاته من بين أسنانهم بأظافرهم، ثم يرجعون البقايا إلى الفم ليقرطوها من جديد.

- كم عدد الأولاد الآن؟ سأل فؤاد.

عرفت سعاد أنّ الهدف من السؤال هو التفكير جدّيًا بإغلاق الروضة، حاولت المراوغة:

ـ بعض الأولاد غادروا الروضة مع افتتاح المدارس، لكن بالتأكيد سيأتي غيرهم بعد بضعة أيّام.

أعاد السؤال بحزم. فأجابت:

ـ خمس وعشرون، والمعلّمات اثنتان، وفداء تساعد أحيانًا.

أشار فؤاد إلى ابنته المراهقة:

ـ اهتمّي بدراستك الآن.

نظرت فداء في وجه أبيها مستفسرة، إذ طالما تحدّث إليها عن أهمّيّة رعاية أولاد الحارة وتعليمهم وتشجيعهم، وكانت تحاول عبر الروضة، فرصتها الوحيدة، أن تكون صديقة تصغي لهم. كأنّه فهم ما يدور في خلدها، فقال بهدوء:

ـ إن شاء الله تدرسين الطبّ، وتفتحين عيادة تداوين الفقراء وترشدين الأمّهات.

ومن دون أن ينظر في وجه سعاد، قال:

ـ أبلغي أهالي الأولاد بأنّنا سنغلق الروضة قريبًا وأنّ عليهم أن يجدوا روضة أخرى لأولادهم.

زفرت سعاد غير راضية، فقد اعتادت منذ سنوات الإشراف على هذا العمل وتحصيل المال الكافي. تركت المكان ومضت إلى غرفتها، تجرّب أن تنام، عبثًا، تنتظر رجعة مخلص.

منذ أيّام، عثرت تحت سريره على صندوق من البيرة. وبقايا سجائر.. لا يتقن إخفاء ممنوعاته، لا تحتاج سعاد كي تعرف أسرار ابنها إلّا أن تشمّر غطاء السرير وتنظر تحته، سيكارة مطفأة، رقم هاتف، كتاب غير مسموح، مجلّة.. وأخيرًا صندوق البيرة. كأنّ زلزالاً وقع، كأنّ المسكين وضعه أمانة لأحد رفاقه أو أنّه من اشتراه بنفسه.. كان عصرًا قاسيًا. حملت سعاد الصندوق، شديد الخطورة، فتحت باب «بيت الأدب» وضعت حملها في العتبة، وجلست القرفصاء، تتناول القنّينة، تفتحها وتدلقها في التواليت فتندلع رغوتها وتندلع دموعها معها، وتدلق الماء بعدها، وهكذا حتى أنهت الصندوق كلّه، وضعت القناني الفارغة في كيس أسود وربطته بحذر وتأنٍّ، كأنّها تربط على جثّة، وأودعتها السقيفة، في مكان لا تعثر البنات عليه، كان من الصعب رميها في حاوية الزبالة في الحارة، احتمال فتح الكيس من قبل فضولي وإحداث صدمة لأهل المنطقة، هناك من يحتسي الخمرة في حارة «البيّاض»!

حلّ الصباح ولم يرجع مخلص. أيقظت سعاد البنات إلى مدارسهنّ. راح فؤاد يعدّ قهوته الثقيلة.. يفضّل دائمًا أن يفعل هذا بنفسه، ملعقتان من القهوة وملعقة من السكّر، يحرّكها على مهل وهو شارد في رغوتها. وقفت سعاد وراءه: ألن نبحث عن الولد؟ لم يجب، سكب قهوته، أخذ فنجانه الصغير ومضى إلى ركنه يلفّ سجائره ويرتشف قهوته.

عاد وأعدّ فطوره بنفسه، لُقيمات من اللبن المصفّى المخلوط بالنعنع والفليلفة المجفّفين والملح والزيت، مع كأس من الشاي. ارتدى ثياب الخروج، طقمًا من السموكن البنّي وكرافة لا بدّ أن

تتناسب مع لون القميص والجوارب، تناول حذاءه الذي ينتظره عند عتبة البيت دائمًا نظيفًا وملمّعًا.

أغلق الباب. كان صديق عمره وجاره ينتظره. يترافقان كلّ يوم في الطريق إلى العمل، يوزّعان السلامات، حسب العرف والعادة، على كلّ عابر، والعابر يردّ السلام أو يبادر به.

اتّصلت سعاد بزوجها في دكّانه، ومن دون قول مرحبا، أبلغته أنّها ستسأل أهالي أصدقاء مخلص عنه. نهرها: مشغول الآن، لا تفعلي، انتظري يومًا ثانيًا. أغلقت الهاتف وبدأت تبكي. ارتبك ربيع وسألها بتأتأة زائدة، عن سبب حزنها. عانقته طويلاً، ثم قامت إلى تنظيف البيت وإعداد الطبخة، والولد يلحق بها، لا يكفّ عن الكلام والأسئلة رغم التأتأة.

تناول فؤاد غداءه من الباميا والأرزّ مع الفليفلة الخضراء، كان واجمًا أمام حزن زوجته، قدّمت له الطعام وجلست بجانب ربيع تنظر عبر النافذة، ممتنعة عن المشاركة بالطعام. تناول فؤاد بضع لُقيمات صامتًا، كان يعرف أنّها طريقتها في الاحتجاج، ويعرف بأنّها تنجح. قال لها وهو يشرب الشاي: جهّزي نفسك، سوف نخرج سويّة لنستفسر عن مكان مخلص.

خرجا عصرًا مترافقَين، لم يطل البحث، عند أوّل باب، قيل لهما إنّه أمضى الليل في بيتهم عند ابنهم، وسافر في الصباح إلى لبنان. صاحت سعاد: لبنان؟ وماذا يفعل هناك؟ سكتت صاحبة البيت. أحسّ فؤاد بالحرج، سحب زوجته وخرج. وسافر فورًا إلى بيروت.

في آخر الليل رجع الأب مع ابنه صامتَين تمامًا، اتّجه مخلص إلى الحمّام الذي وجده ساخنًا، بينما أعدّ فؤاد قهوة ثقيلة، أخذ الراديو ومضى إلى الغرفة الصغيرة، راغبًا بالعزلة. لم تلاحقه سعاد كعادتها بالأسئلة، كانت سعيدة أنّهما رجعا سالمَين، وقفت وراء باب الحمّام، وسألت ابنها بحنان: أفرك لك ظهرك؟ أجابها راضيًا: ادخلي.

كان مخلص يجلس عاريًا على الدقّة الخشبيّة، ينقط الماء من شعره وجسده الأسمر، تلملم على نفسه، كعادته حين تدخل أمّه لتفرك له ظهره بكيس الحمّام الأسود، خفض رأسه حتى كاد أن يدفن وجهه بين ركبتيه.

- كيف قضيت ليلة البارحة؟ سألته برجاء وحنان.

- عند رفيقي.

تعرف سعاد أنّ ذكور البيت يجيبونها تلك الأجوبة التي لا تشفي فضولها، أجوبة تُقال للردّ على السؤال، وليس للجواب عليه، لأنّ جواب السؤال يستدعي عند أمّهم أسئلة أخرى. تركته وهي توصيه ألّا يطيل البقاء في الحمّام، عادته التي تعرفها، ينسى نفسه وقتًا طويلاً.

اشتغل مخلص نهار ذلك اليوم أجير فرّان في بيروت. كأنّه أراد الانتقام من أبيه، قال أيمن: كيف استطعت أن تعثر على فرن يحتاج عمّالاً؟ ثم استأنف بتعالٍ: تشتغل أجير فرّان؟ لم يجب مخلص. كان على الأغلب يسكت مقهورًا لتفوّق أخيه عليه ولأنّه

دائمًا يرجع خاسرًا. قرّر أهل البيت، بأمر من فؤاد، طيّ الصفحة ونسيانها.

صارت غادة تراقب أخاها حين تستيقظ للذهاب إلى المرحاض، تتلصّص عليه رغم نعاسها، تراه يترك طعام البيت ويفتح علبة سردين ويأخذها على حالها من دون أن يسكبها في صحن، ويمضي إلى غرفته. يضع كأس العرق تحت السرير، يأخذ سيجارته ويصعد إلى سطح البيت، مهما كان حال الطقس، يمارس متعته في التلصّص على مديحة الجميلة جمال الغجر، كنّة جيرانهم. كان أهل الحارة يتجنّبون الاختلاط بها وبزوجها وبأهل البيت، يقال إنّهم غير مسلمين، اسم عائلتهم غير معروف وأصلهم غير معروف، بيتهم غريب وعاداتهم غامضة، وكنّتهم مديحة امرأة طريّة، هذا ما كان يتردّد في الحارة، في البيت أكثر من ثلاثة رجال، وكان من الصعب معرفة زوجة من تكون مديحة. إلّا مخلص كان يعرف، لأنّ غرفة نومها بنافذتها العريضة تطلّ على الواجهة الخلفيّة للبيت، حيث يحلو لمخلص مراقبة النساء. ترتدي مديحة دائمًا تفريعات، ليلاً نهارًا، بردًا، حرًّا، وعلى الأغلب بلون أحمر، وهي رغم سمرتها، كانت بعينيها الواسعتين وشفتيها المكتنزتين المبتسمتين دائمًا وأبدًا ابتسامة تلميح غامضة، تعجب مخلص. يحلو لها تلصّصه الليلي عليها، كانت تشعل اللمبة الزرقاء خصوصًا وتختار مكانًا مقابلاً للنافذة بحيث يتمكّن الشابّ من رؤيتها، وهي تتمكّن من إثارته، فيما زوجها يتّكئ وظهره إلى النافذة ظانًّا أنّ الزوجة الجميلة تتزيّن له فقط وتتقلّب له فقط، وربّما تغمز لقمر الليل في بعض الأحيان، فهي لعوب، تقول للقمر: قم، لأقعد مطرحك.

ينهي مخلص سيجارته وتلصّصه ولذّته ويرجع إلى غرفته ليكمل سهرته، مع الراديو وأوراقه وكأس عرقه. مخلص بقامته القصيرة وتجعيدات شعره يشبه أباه، لكنّه أكثر سمرة، وعيناه أكثر اتّساعًا وأكثر حزنًا. قال يومًا لأخته فداء إنّه يكتب شيئًا، شيئًا لا يمكنه البوح به. وتناقل أهل البيت الخبر. راح كلّ منهم يتوقّع موضوع الكتاب. فكّرت فداء أنّه كتاب فلسفي نفسي، وتوقّع أيمن أنّه كتاب فلسفي يتناول أمور الدين بتمادٍ وجرأة، أمّا سمر فقد سارعت بالحكم: ليس أكثر من قول غزل يستخدم فيه ألفاظًا معيبة، وتوقّعت بشرى أنّها يوميّات مخلص في البيت وخارجه. كانت الأحاديث تدور بين الأولاد في غياب الأمّ والأب.

أعدّت فداء الغداء لإخوتها واجتمعوا عند المائدة، امتدّ وقت الغداء إلى ما بعد العصر، تباعد مخلص عن المائدة مستمتعًا باهتمام إخوته، راح يدخّن سيجارته بتلذّذ، ويتضاحك مع الجميع وأوّلهم أيمن، كان منتشيًا بمحاولاتهم معرفة محتوى كتابه. ورغم إلحاحهم عليه بأن يخبرهم عنه، لم يقبل، قال: يومًا ما تقرؤونه، ربّما بعد موتي. حزنت غادة، أخوها ما زال في الثانويّة، وانتابتها رغبة قويّة لمعرفة ما يكتبه. اقتربت منه وهمست: إذا قمت بتنظيف غرفتك، هل تقول لي السرّ؟ واستأنفت: لن أُخبر أحدًا. ضحك الجميع وقال لها أيمن: أنت تسدين له معروفًا إذا تركت له غرفته قذرة. ضحك مخلص مؤيّدًا: نعم، لا أستطيع النوم إلّا محاطًا بالفوضى. قال ذلك وهو يبتلع دخان سيجارته، ويفرك أصابع قدميه، ثم يغطّيها بجلّابيته الرماديّة، تضاحك أيمن ملء فمه وقال: أحسن من هذا «العلك»، قم، استحمّ، واستبدل جلّابيّتك.

فهم مخلص مكانته في البيت منذ لحظة ولادته، الصبيّ الثاني، لم يفرحوا به كفرحهم بالبكر أيمن، جاءهم صبيًّا نحيلاً، أسمر البشرة، قالت أمّه غير راضية: يشبه أولاد عمّه. مشيرة إلى أنّ سلفها وسلفتها وأولادهما قصيرو القامة وبوجوه داكنة. لم يكن يروق لفؤاد هذا الغمز، ولا يقبل افتخار سعاد بلون وجهها الأبيض وادّعائها أنّ مورّثاتها ستحسّن صفات عيلة فؤاد في المستقبل.

كبر مخلص مهملاً، يقضي أوقاتًا طويلة في الخارج، يتشاجر مع أولاد الحارة ويرجع كلّ يوم بخدش. وكثيرًا ما جاءت أمّهات الأولاد يشتكينه. كانت سعاد تزيد في إهمالها له أكثر وتتوجّه إلى بكرها أيمن، والأب يؤنّبه بشدّة ويمتدح بكره الذي أظهر بعين أهله ذكاء واتّزانًا وهيبة منذ سنواته الأولى في المدرسة. أُرسل أيمن إلى مدرسة الراهبات الخاصّة، بينما دُفع مخلص ككلّ أولاد الحارة إلى مدرسة حكوميّة، حيث الصفع والرفس والعصا واجبات يوميّة أكثر أهمّيّة من واجبات تعلّم الحساب والقراءة. كان مخلص يقضي وقته في المدرسة مع معلّم إرهابي، ووقت الفراغ مع أولاد، أدوات تسليتهم الحجارة والمفرقعات الناريّة أو حكايات عن الجنس وأسراره. يوم نال نتيجة الصفّ السادس ناجحًا بترتيب متوسّط، نال أيمن نتيجة التاسع بترتيب جيّد جدًّا. طرقت جارتهم الباب، تجرّ بيدها ابنها، وهو أطول قامة من أمّه. قالت بوجه محتقن وهي تشير إلى خدوش على وجه الولد، انظروا ماذا فعل مخلص بابني؟ نظرت سعاد إلى قامة الشابّ، وقالت مصحّحة: لعلّ من فعل هذا ابن جارنا أبو سليم، ابني مخلص قصير. وأشارت بكفّها إلى طول مخلص، عند حدّ خصر الشابّ، جعر الولد الطويل مؤكّدًا:

مخلص دائمًا يتعربش عليّ ويخرمش وجهي، وأكمل، كاد أن يقلع عيني. احتجّت أمّه من جديد، هدّأتها سعاد ووعدت أن تربّي مخلص وتعاقبه. ما إن خرجت الأمّ مع ابنها الطويل، حتى انسلّ مخلص من مكمنه تحت الطوطاية[1] في الشرفة وهرب من غضب أمّه، متوعّدًا أن يضرب الولد ويربّيه، عيب التشكّي للأمّهات! في تلك الليلة أشعل أوّل سيجارة، وليلة نتائج الصفّ التاسع شرب أوّل كأس عرق، وفي الصفّ العاشر وبعد أن تقرّر بنتائجه أن يدخل الحادي عشر الأدبي، سافر إلى قرية قريبة وعاشر أوّل امرأة. وبعد أن زاد مصروفه بسبب الدخان والمشروب والسهر، قرّر وأبلغ أباه أنّه يبحث عن شغل لأنّه يحتاج «خرجيّة» إضافيّة. خشي فؤاد أن يلجأ ابنه لطرق غير سليمة، نزل عند حاجة الشابّ وضاعف له مصروفه.



(١) دفّة خشبيّة طويلة، مزوّدة بفراش، تستخدم للجلوس في الشرفات.

كانت سعاد تخيط بيديها للبنتين الكبيرتين فداء وسمر ثيابًا جديدة كلّ شهر، حين يحين موعد استقبالها، استقبال سعاد لضيفاتها يكون أوّل إثنين من الشهر الغربي. تأتي النسوة مع الصبايا بثياب جديدة، وحليّ جديدة، فالاستقبال للتباهي والتسلية والضحك.

تحاول سعاد أن تدلّل بناتها لكي لا يعشن ما عاشت في صباها من حرمان وظلم، ما تشعر به طوال حياتها. تقول إنّها خدمت في بيت أهلها عن عشر بنات. كانت البنت الكبرى، وكانت أوامر أمّها لا تنتهي، تتوالى بحيث لا تترك للبنت وقتًا أو فسحة لتجلس أو تستريح. تتذكّر كلمات أمّها: امسحي العتبة والدرج، وافتحي ماء البحرة، شطّفي أخوك، واغسلي يديك وافرمي البطاطا، قبل أن تنتهي سعاد من فرم البطاطا، تتنبّه أذنها للأمر التالي، اشطفي أرض الدار ورشّي الأحواض واكنسي درج السقيفة، في الوقت الذي تضع الزبالة في التنكة كآخر مرحلة من عمل اليوم، تناديها أمّها: اغسلي وجهك وتعالي، تفعل ذلك

وتحضر أمامها، البسي الروب العنبي، ترتدي سعاد ثوبها العنبي وحذاءها الأسود الوحيد، لا وقت لتمشّط شعرها حسب التسريحة التي ترغب، فالوقت الذي تمنحه الأمّ لابنتها يناسب التسريحة التي ترغبها الأمّ، وهي أن تمشّط الشعر إلى الوراء وتربطه ذنب حصان بمطّاطة، تضيف قبل أن تخرجا: مسّدي غرّتك. تلصق سعاد أصابع الكفّ الأربعة بعضها ببعض وتمسّد الغرّة، ثم ترصّ الإيشارب على الرقبة، وتسرع.

ـ حطّي غطاك والحقيني. تتوجّه إلى الباب، ترمق سعاد ظهر أمّها وخطوتها لكي تتبعها، إذا اتّجهت إلى اليمين، فالوجهة إلى الخيّاطة، تتبع سعاد أمّها دائمًا بخطوتين. مالت أمّها نحو اليسار، فالوجهة إذن إلى بيت الجارة.

ما إن تجلس سعاد عند زاوية الكنبة، حتى تأمرها أمّها أن تعدّ القهوة عن جارتهم، لأنّ خَلَف الجارة كان كلّه من الصبيان. تعدّ سعاد القهوة، فنجانين لأمّها وجارتها، وتجلس بفم ناشف جلسة واحدة طوال الوقت، لا تتحرّك، ولا تنبس بكلمة حتى تُسأل، وإن سُئلت فالجواب يكون بكلمة واحدة أو كلمتين حسب ما تراه الأمّ مناسبًا من جواب، والنسوان تحبّ أن تساير الصبايا، وسعاد لا تعرف تمامًا الجواب الذي تفضّله أمّها على السؤال الذي يمكن أن تطرحه جارتهم أمّ فاروق، تعرف أن تجيب على سؤال: شلونك؟ بالحمد لله. وعلى كلمة: تفضّلي، لا، يسلموا الأيدي، فإن سألن سؤالاً لم تتلقّن البنت جوابه، ترتبك وتنظر في وجه أمّها مستنجدة، ولأنّ سعاد مخطوبة لمنطقة «السوق» الأكثر حداثة، فإنّ الأسئلة والاستفسارات كثيرة.

ـ ما شاء الله على ها التربية، تقول أمّ فاروق.

كانت سعاد تفكّر كثيرًا في فحص المدرسة، مادّة الجغرافيا خصوصًا. سألتها أمّ فاروق التي لديها ابنة بعمر سعاد وستقدّم الامتحان أيضًا، شلون دراستك؟ شلون الجغرافيا؟ وحين قالت لأمّ فاروق إنّ كتاب الجغرافيا صعب استنكرت أمّها صراحتها، ورمقتها بتقطيبة، فتراجعت خائفة: حفظته لأنّي درسته جيّدًا.

ـ عفيّة عليك.

ـ كم بذلة تخيّطين لعروستنا؟

أجابت أمّ سعاد بافتخار:

ـ تسع بذلات.

تترك سعاد كتابها الدراسي في أعلى رفّ من رفوف المطبخ كي لا تمزّقه أكفّ إخوتها، وتركض وراء الأمّ.

أصبحت أمّها بعد الخطبة أقلّ صرامة، تنظر في وجهها حين تكلّمها وتخبرها أحيانًا ببعض التفاصيل التي تخصّها:

ـ سنخيّط تسع بذلات، اثنتان منها بلون أسود.

ـ لا أحبّ الذهاب إلى بيت الخيّاطة، تقول سعاد.

لكن أمّها لم تكن تجيب على طلباتها بالكلام، كانت تسحبها من يدها كجواب على السؤال، أو تقطّب في وجهها، أمّا حين كانت تنظر بلا تعبير، فإنّ ابنتها تعرف أنّه لا مانع لديها من أمر، أمّا حين تبدو كمن لم يسمع السؤال، فتعرف سعاد أنّ الطلب

مرفوض جملة وتفصيلاً، والطامّة الكبرى حين يستفزّ الطلب أمّها، فإنّها تنبس ببضع كلمات هامسة، تخرج منها كسهام مسمومة تحطّ في كلّ زاوية من بدن سعاد، فتندم البنت أنّها تجرّأت، وهذا لم يحدث إلّا مرّتين، حين قالت لها: لا أريد أن أتزوّج، أريد أن أدرس في المدرسة. قالت أمّها بصوت هامس وغضب مكبوت، كي لا يسمعها أبو سعاد ولا يسمع جرأتها التي رأتها وقاحة شديدة، قالت: اسكتي. والمرّة الثانية حين قالت لحماتها بأنّها لا تحبّ اللون الأخضر، وتفضّل الأزرق، حيث كان عليها أن تقول إنّ كلّ ما تختاره حماتها وأمّها يجب أن يناسبها.

قطع قماش كثيرة مطبقة، تنتظر أن تفصّل، مرآة كبيرة، نتف قماش بألوان كثيرة تملأ الحصيرة الممدودة، وفتيات عديدات يجلسن على الأرض كحلقة، بيد كلّ منهنّ عملها. تحتلّ الخيّاطة صاحبة الدار ركنًا ثابتًا في صدر الغرفة وتمدّ ساقيها وقدميها الكبيرتين المتفسّختين في وسط الحصيرة، وتأمر: فريحة.. هاتي البدلة الحمرا. تنادي من دون أن ترفع وجهها عمّا بين يديها، ثم تستأنف بإيقاع واحد: زهرة هاتي البدلة الزرقاء. ثم: رجاء، خلَصت تسريج الكمّ؟ عيّوش، لملمي الحصيرة وحطّي الفطور للأولاد..

تشتغل البنت التي تدفع لتعلّم الخياطة، خادمة في بيت الخيّاطة، وبعد سنين تتعلّم الخياطة بالاعتياد، تبدأ بالقطبة البسيطة وتنتهي بقصّ القماش وتفصيله وهي المرحلة الأخيرة.

تحدّق «بنات الخيّاطة» في الزبونة القادمة حين تخلع ثيابها كي

يتلصّصن على ثيابها الداخليّة، عادتهنّ التي يحكمن من خلالها على مرتبة أسرة الزبونة، وتعطيهنّ مادّة للحديث والنميمة عند انشغال المعلّمة بغداء أولادها وزوجها.

كانت البنت التي تتعلّم الخياطة تأتي منذ الثامنة صباحًا وتبقى حتى الرابعة عصرًا، تحضر معها زوّادتها، خبز وجبن وخيار أو خبز وجبن وتين. تترك الخيّاطة غرفة الخياطة وتمضي لتناول الغداء في الثانية ظهرًا، ترمي البنات ما بأيديهنّ ويبدأن الثرثرة والتسلية، تضع كلّ منهنّ زوّادتها أمامها، ويثرثرن كلّهنّ دفعة واحدة، وما إن تتحرّك قبضة الباب إشارة رجعة المعلّمة لغرفة الخياطة حتى تكون الزوّادات قد لُملمت بلمح البصر، ولُملمت «المدّة» الكتّانيّة على بقايا الخبز وبقايا الحديث.

تجهيز العروس يعني انشغالاً تامًّا، «أمّ العروس فاضية مشغولة» كلّ يوم موعد أو موعدان عند الخيّاطة، نقاش وخلاف على موديل الثوب وعلى أجور الخيّاطة.

أمسكت أمّ سعاد بخاصرة الثوب لتشير بعصبيّة إلى البنسات الهابطة، نصحت الخيّاطة:

ـ بكرة البنت تسمن على الجواز.

كشاكش وذيول طويلة وألوان وأقمشة شفّافة. كانت يد سعاد النحيلة تخرج ذابلة من حفرة الإبط التي لم يعلّق الكمّ عليها بعد، ورقبتها الضعيفة تطلّ من القبّة، مائلة من كثرة الشرود، أهو همّ الامتحان أم همّ العريس الذي سيسبق الامتحان؟ لن تستطيع الذهاب إلى الامتحان. لم يخطر ببالها أن تطلب من أمّها أن تؤخّر

موعد العرس، حتى تقدّم الامتحان أوّلاً. لم يخطر ببالها لحظة أن تعبّر عن حاجيّاتها. وتعود إلى البيت لتمسك بالكتاب وتحاول أن تطبّق البرنامج الذي سجّلته كي تنال الدرجة الأعلى من فريدة، فريدة التي أكملت وأخذت شهادة التاسع وتزوّجت بعد سعاد، وأنجبت أولادًا وبناتٍ وصار اسمها، أمّ بشير.

خضعت سعاد لبرنامج تجهيزها للعرس كما خطّطت الأمّ بالضبط، مثالاً للطاعة، آلة صنعتها أمّها فلم تخذلها لحظة، لم تتعطّل ولم تكسل. ورغم أنّ كلّ الأمور سارت على خير ما تراه الأمّ، فقد كانت سعاد خائفة من مغادرة بيت أبيها ومغادرة إخوتها الصغيري السنّ، وروتين حياتها. بكت وهي تحكي لجارتهم ابنة الخيّاطة، فهمست لها باقتراح.

تسامحت أمّ سعاد، وادّعت أنّها لم تسمع بنت الجيران وهي تقول لسعاد سنذهب لشراء طرحة العروس معًا، كانت تعرف أنّ البنت ستأخذ سعاد إلى سوق الطويل كي تشاهد عريسها من بعيد، افترضت بنت الخيّاطة أنّ سعاد قلقة من شكل العريس.

ما إن وصلتا إلى «تمّ سوق الطويل» حتى انتابت سعاد نوبة رعب واضطراب، ولم تعد تقوى على المشي، أمسكت بيد صاحبتها ورجتها أن ترجعا، تضاحكت بنت الخيّاطة من اضطراب سعاد، وراحت تشدّها من يدها بتصميم كي يدخلا إلى سوق الطويل.

عدد المرّات التي.رافقت سعاد أمّها إلى السوق معدودة في حياتها، حين اشترت حذاء بلون أسود بمناسبة العيد الصغير،

وكانت في العاشرة، اشترته أكبر من قدمها بنمرة كي يضاينها، لبسته ثلاث صيفيّات وأربع شتويّات، وهكذا وبعد أربع سنوات احتاجت شراء حذاء أسود ثان، وثالث قبل خطبتها بأيّام قليلة، قالت أمّها: منيح أنّ لديك حذاء جديدًا وإلّا كيف كنت ستقابلين الخُطّاب!

تلفّتت سعاد حولها، دكاكين عديدة متلاصقة ورجال كثيرون يشتغلون، والسوق مزدحم بالزبائن من الرجال والنساء والأولاد، وسعاد في أشدّ اضطراب، تلحق برفيقتها أينما توجّهت وتظنّ أنّها مراقبة من كلّ الناس. اقتربت رفيقتها من محلّ لبيع الكلفة، كان دكّانًا صغيرًا، قرنة مزوّدة برفوف عديدة ومنضدة يقف البائع خلفها محبوسًا ببضاعته المعروضة تطوف وتنبق عن الدكّان.

- أهلين وسهلين وميّة السلامة خيتو، قال البائع على عادته وهو يزرّر قبّة جلّابيته مرحًا.

طلبت البنت القماش، وراحت تتلفّت حولها. قصّ حاجتها بمهارة وسرعة، ودرجها بالورق، ناولها إيّاها قائلاً: بالهنا. دفعت ثمنها وحملتها على مهل وهي تنظر حولها ببطء. قال البائع المتمرس: شي ثاني خيتو؟

سألت البنت عن دكّان فؤاد بجرأة، فيما سعاد تتوارى خلفها، وبدل أن يدلّهما الرجل إلى دكّان فؤاد، نادى الرجل فؤاد بأعلى صوته، ليأتي ويلبّي طلب الفتاتين، لم تتوقّعا أنّ محلّ فؤاد سيكون ملاصقًا للمحلّ الذي اختارتا شراء الكلفة منه.

فجأة وجدت سعاد نفسها أمام عريسها، بينهما أقلّ من متر،

وجهًا لوجه مع الرجل الذي ستنتقل لتعيش في بيته، تأكل معه وتتقاسم الفراش معه.. يا ويلها! كانت المرّة الأولى التي اكتشفت فيها تلك الرعشة، حدثت بين ساقيها بثوان قليلة، خوف ولذّة عارمة في وقت واحد.

وقف الرجل بتهذيب ينتظر طلبهما، فيما كانت سعاد على وشك الإغماء، أمسكت بيد جارتها، وهرولتا خارجتين من السوق. نظر فؤاد إلى صاحب المحلّ بدهشة، كان الرجل أكثر تجربة وحنكة، أدرك الأمر: مبارك، إحداهما خطيبتك.

غمرت فؤاد السعادة، كان يحلم بفتاة جريئة تريد أن تلتقي عريسها قبل الزواج، يحلم بفتاة ذكيّة تتحدّث إليه وتفهمه، كان هذا هو مراده، والذي كان يلقى استغراب شريكه في الدكّان. قضى فؤاد أيّامه التالية يحزر عروسه، أهي صاحبة البالطو البنّي أم الفضّي، أهي صاحبة الساقين الرفيعتين أم صاحبة الكفّين البيضاوين!

كانت أمّ فؤاد على قناعة بأنّ بنات منطقة «الحاضر» يُعتمد عليهنّ ويعرفن تدبّر الأمور أكثر من بنات منطقة السوق المدلّلات. توجّهت أمّ فؤاد من «السوق» إلى «الحاضر»[1] لخطبة سعاد. استطاع ابنها فؤاد بعد كفاح مرير أن يشتري دكّانًا مع شريك، دكّانًا صغيرة، يبيعون القماش ويخيطون الجلّابيّات ويعملون بتخريج قبّة الجلّابيّة والجاكيت للطقم العربي. حين ملأ دكّانه بالبضاعة وانطلق بعمله، زاد رزق الدكّان، فقرّرت أمّه سريعًا الخطبة له، قالت: لم

(١) يقسم نهر العاصي مدينة حماة إلى جزأين يطلق عليهما الحاضر والسوق.

أعد أقوى على تدبير البيت، تأتي الكنّة وتساعدني، ولتكن صبورة وتربية أهل «الحاضر».

اختلفت حياة سعاد كثيرًا حين انتقلت للعيش مع حماتها وزوجها وسلفها. أمّ فؤاد امرأة متطلّبة، عاركت الحياة كثيرًا وعاركتها، توفّي زوجها بعد أن ولدت ابنها الثاني بأشهر قليلة، مات زوجها الذي أحبّها وأحبّته بمرض غامض. وتركها أرملة صبيّة وحيدة أُمًّا لولدين صغيرين. فؤاد الذي يكبر أخاه بسنتين فقط، صار بعد سنوات قليلة رجل الدار المسؤول، وأخوه صار ولد الدار المدلّل، وهكذا وزّعت أمّ فؤاد الأدوار، على فؤاد أن يترك المدرسة ويشتغل لكي يذهب أخوه الصغير إلى المدرسة ويكمل دراسته، لأنّها تحلم به موظّفًا عند الدولة. استطاعت أمّ فؤاد بصرامتها وصبرها أن تنفّذ ما خطّطت له. وحين استقرّت أمورهم، خطبت سعاد بنتًا صبورة وآدميّة ومن عيلة منيحة، فكّرت، وشقراء بعينين خضراوين، تخفّف من سمرة فؤاد بالنسل القادم.

تعلّم الأخ الصغير في المدرسة ونال شهادة التاسع، عثر على وظيفة بدائرة الماليّة. وتنفّست أمّ فؤاد الصعداء وراحت تفتخر بابنها الموظّف. تجلس عند بحرة بيتها وتشعل سيجارتها، تستقبل جاراتها، تستمع لثرثراتهنّ من دون أن تشارك فيها، فهي صامتة على الأغلب، أو أنّ شدّة الأيّام التي عاشتها أرملة وحيدة مع الصغيرين جعلت منها امرأة عتيقة ومترفّعة عن تفاصيل النسوة.

تتداعى ذكريات سعاد يوم الاستقبال أثناء الترتيب. تتذكّر بمشاعر متناقضة من الحنين والأسف، ولكنّها تخلص إلى نتيجة أنّه

عليها أن تحمد ربّها، أولادها وأبوهم بخير، وما زالت بصحّتها رغم أنّها اقتربت من العقد الخامس من عمرها.

تترك ذكرياتها وتنهض. التنظيف الدقيق أمر ضروري لصاحبة البيت، فالنسوة يأتين ليحدّقن في كلّ زاوية من البيت، باحثات عن خطأ يصبح مادّة لحديثهنّ بعد مغادرة الاستقبال وإلى أن يحين موعد الاستقبال الثاني. ولهذا، لم يكن يسعد أيًّا منهنّ أن يأتي دور الاستقبال عليها، بينما تبتهج حين ترتدي أحلى ما عندها وتأخذ بناتها إلى استقبال الأخريات وتفتّش في بيوتهنّ عن النظافة والأناقة وأحوال أولادهنّ وطراز ثيابهنّ وضيافتهنّ.



تفكر سعاد ببناتها قلقة، همّ البنات الخمس، العالم كلّه يظلم بعضه بعضًا ويظلمها أيضًا، هذا ما تحسّه دائمًا. ولذلك لا مخلَص لها إلّا أمّ صالح الشيخة، سبيلها إلى طمأنينة الجنّة، الجنّة التي ستريحها من هموم الدنيا..

سكنت أمّ صالح الشيخة في البناء الملاصق لبيتهم، في طابق القبو، متزوّجة من رجل غامض، قليل التواجد في البيت والحارة، ولا أحد يعرف أين يقضي أوقاته أو ماذا يشتغل. وكانت أمّ صالح تحرص على وجود مسافة بينها وبين نسوان الحارة، فإن رغبن بزيارتها، يجب أن يلتزمن بآدابها، هي من تتحدّث وعليهنّ أن يصغين، وإن سألن عن أمر، فيجب أن يكون بخصوص الدين، ويقع عليهنّ، في آخر الزيارة، الوعد بالطاعة. كانت تحرص على نظافة البيت وجدرانه، وتشاهد دائمًا بغطاء أبيض يغطّي كامل الكتفين والصدر، فوق تنّورة عريضة وطويلة، وجهها أبيض مع غرّة شقراء نادرًا ما لمحتها غادة، غادة التي كانت تتولّى أخذ أو جلب غرض من بيت أمّ صالح أو إلى بيت أمّ صالح، كتاب، مسابح،

حلوى. . تميل قامة أمّ صالح إلى القصر ولديها صدر كبير وكتفان عريضتان، وتبدو دائمًا متوضّئة وعلى استعداد للصلاة. تشعر غادة بأنّ في وجه الشيخة شرًّا ما، قسوة، أو تهديدًا ما، هذه المرأة تهدّد الأخريات، ولكنّها كانت على قناعة بأنّ التهديد إحدى طرق الدين لهداية الناس، بالترغيب تارة وبالتهديد تارة أخرى.

فهمت أمّ صالح أعماق سعاد، واستخدمتها مطيّة سهلة لقيادتها حيث تريد. لمّحت لها أوّلاً أنّ كلّ ما أتته في حياتها السابقة حرام في حرام، وأنّ إحساسها بالظلم آت من أنّها لاهية عن عباداتها بأمور الدنيا، تلك الدنيا الفانية، وبأنّها لن تنجو من ذنوبها التي ارتكبتها طوال عمرها، سنواتها الأربعين، إلّا بالصلاة والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ملأ اليأس وجه سعاد، وفكّرت أيّ ذنوب ارتكبتها وقد قضت حياتها في بيت أمّها تخدم أمّها وإخوتها، وفي بيت زوجها تخدم حماتها وزوجها، والآن بناتها وأولادها وزوجها، وطالما اعتقدت أنّ الجنّة لها ولأمثالها. تساءلت: لماذا كلّ ما فعلته حرام في حرام؟ قالت أمّ صالح: لأنّك لم تؤدّي الصلاة، ثم عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . أُصيبت سعاد بالغمّ مرّة ثانية، كيف يكون المرء قادرًا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ يجب أن يتحلّى بشخصيّة مؤثّرة ولسان فصيح. . وفكّرت أنّها لاذت بأمّ صالح لأنّها افتقدت القدرة على فعل ذلك بين نساء جمعيّة حماية الطفولة. هؤلاء النساء، كلّ منهنّ عندها ما يميّزها، الأولى بجمالها وأناقتها، والثانية بذكائها، والثالثة بثقافتها وحسن اطّلاعها، والرابعة ببداهتها وخفّة دمها. كانت سعاد تشعر أنّ الجمعيّة لا تصلح أن تجتمع بدون هذه أو

تلك، أمّا هي، فإنّ الجمعيّة فيها وبدونها واحدة، لن تقدّم ولن تؤخّر بغيابها أو بحضورها. وحين لاذت بأمّ صالح وباحت بالهمّ، أدركت أمّ صالح نقطة الضعف وسكبت ماءً باردًا على غليلها، قالت إنّ كلّ ما يفعلونه حرام، لا يجوز أن تجلس النساء في مجالس الرجال ولا يجوز المزاح أو النقاش، لا يجوز أصلاً أن يسمع الرجل صوت المرأة. يجب أن تتجنّب حضور هذه الاجتماعات، ويجب أن تحاول منع زوجها. لا تستطيع سعاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، همست متردّدة. أجابتها أمّ صالح: ابدئي بأهل بيتك، ابنك الصغير وبناتك الخمس وهذا يكفي الآن. جاءت أحكام أمّ صالح وتقييمها لنساء ورجال الجمعيّة والاجتماع المختلط، بردًا وسلامًا على الغيرة الشديدة التي كانت تسمّم سعاد. عثرت على ضالّتها وأسباب راحتها، ارتاحت حين قرّرت أنّها خُلقت لتكون امرأة متديّنة تصلّي لربّها وتخلص لشيختها وتهدي أهل بيتها إلى ما ترى فيه صالحهم.

خرجت سعاد من بيت معلّمتها نائلةً سعادة العالم، أدارت المفتاح في باب بيتهم الحديدي الثقيل ودخلت في راحة وبشاشة، توجّهت مباشرة إلى غرفتها، نظرت في المرآة. عادتها في كلّ مساء وفي هذا الوقت، تتزيّن وتستعدّ للسهرة مع زوجها، عادتها من أجلها، تقول، بعد نهار عمل طويل، تنظيف وطبخ وغسل وملاحقة أمور الأولاد، على المرأة أن تتغندر وتتهندم. . لكن، لا زينة بعد اليوم.

نظرت هذه المرّة في مرآتها، وجدت وجهها واثقًا ومضيئًا،

قلبها مطمئنّ إلى طريقه، الإيمان. . دفعت غرّتها عن جبينها، وهمست: الحمد لله. تركت مرآتها، غير راغبة بالزينة بعد الآن، سوف ترمي محتويات درج المكياج في الزبالة، فكّرت، وفتحت بقجة عرسها المطرّزة والمستلقية دائمًا في أعلى رفّ من الخزانة، تناولت القرآن بعناية، قبّلته، كأنّها تعتذر عن هجرانها له، فاحت منه رائحة بيت أهلها. كانوا جميعًا يحتفظون بالقرآن رمزًا يحميهم من مجهول ما، كارثة، فقر، عين حاسدة، لكنّ أحدًا لم يكن يقرأه بدون مناسبة، كانوا يقرؤونه فوق رأس الميّت كي يخفّفوا عنه عذاب القبر، وفي ذكرى الأربعين للموت، أمّا في الأيّام العاديّة، فلا يفعلون. أفرغت سعاد المنضدة الصغيرة بجانب سريرها من عطرها، ووضعت القرآن بهيئة تلفت انتباه القادم إلى الغرفة، أطفأت المصباح، وأغلقت الباب، وخرجت لأولادها وزوجها أمًّا جديدة.

كانوا كعادتهم بانتظار العشاء، يتحدّثون عمّا حصل في يومهم.

كان دخول الأمّ إلى غرفة الجلوس مختلفًا عن كلّ مرّة، دخلت بجدّيّة وخطورة وتمهّل؛ كانت تودّ أن تلفت نظر زوجها إلى ما تحمله من جديد. تابع حديثه مع بناته، والتفت إلى سعاد، وجدها جالسة على الكنبة، لم تذهب إلى المطبخ كعادتها عشرات المرّات، ولم تسأل عمّا يريدون تناوله للعشاء، التفت فؤاد إليها مستغربًا. قالت بدون مناسبة ولا تحضير: لن نذهب إلى اجتماع جمعيّة حماية الطفولة القادم لأنّ هذا حرام.

نظر الرجل في وجه زوجته، لم تضع تلك الحمرة الزهريّة كعادتها كلّ مساء، ولم ترسم فوق جفنيها خطًّا أخضر فاتحًا بلون عينيها، ولم ترتد تنّورتها الضيّقة وتجلس واضعة ساقًا على ساق، عادتها مساء.

ـ هل كنت بزيارة جارتنا أمّ صالح؟

سارعت تقطع عليه استنتاجاته:

ـ هذا من رأسي ولا دخل لأمّ صالح بالأمر.

أشعل فؤاد سيجارته قائلاً:

ـ ألن تتناولوا العشاء.

لم يقلق كثيرًا لتحوّل زوجته، كان يفكّر بكلّ ما يحدث حوله وفي البلد، تحوّلات ابنه الكبير والتنظيم الذي انخرط فيه، تغيّرات السوق والناس، جمود الشراء والبيع.

كان أعضاء جمعيّة حماية الطفولة، وفي آخر اجتماع لهم، حذرين، على الرّغم من معرفتهم العميقة بعضهم ببعض. كان الاجتماع يميل إلى البرود والكثير من المجاملات، والقليل من النقاش، وكان فؤاد أكثرهم رصدًا لهذا التغيير وكان يتوقّع أنّ الجمعيّة ستنحلّ وسوف تغلق تلك الروضات وتتلاشى كلّ الأحلام.

امتثل الرجل لرغبة زوجته، لم يكن أمامه خيار آخر، كان شرط اجتماعهم أن يأتي الرجل مع زوجته ولا يأتي عازبًا، والهدف أن تتقاسم النساء، زوجاتٍ وأمّهاتٍ، المهمّات، يشاركن بالرأي والمقترح، هنّ الأقرب للطفل.

كان فؤاد وسعاد أوّل المغادرين، تبعهم البقيّة، وبعد شهور قليلة حُلّت الجمعيّة وأُغلقت الروضات تباعًا.

لم يعد هناك أمر جيّد إلّا فتاوى أمّ صالح، ولا سيّئ إلّا ما تنهى عنه أمّ صالح، تعرف أمّ صالح تفاصيل أخبار العيلة منذ الصباح حتى المساء، إن توجّع الولد من بطنه تذهب سعاد إليها، إن اختلفت مع بكرها، تطرق بابها، إن شاهدت البنات مسلسل المساء على التلفزيون تشتكيهنّ لأمّ صالح، حواراتها وجدالاتها وخلافاتها مع زوجها تنقلها لأمّ صالح.

لم تكن سعاد وحدها التي جرت وراء أمّ صالح، وإنّما انسحبت معظم نساء المدينة وراء جنّات الشيخات، وكلّ امرأة حسب همّها ونيّتها، تلك لفقر حالها، وتلك لخوفها، وتلك لقلقها على غد أسرتها.. وبالتدريج صار في كلّ حارة شيخة تفتي وتأمر، والأمّهات والصبايا تابعات مطيعات.

حين أفلس زوج أخت سعاد، التاجر الذي كانوا يعدّون رؤوس أغنامه بالآلاف، هدّأت سعاد أختها بأن سحبتها إلى دروس أمّ صالح، وجعلتها مشغولة بصلاتها وصيامها، كذلك قام رجال الحارة بتهدئة زوجها الذي كاد أن ينهار بأن أقنعوه بالذهاب إلى الجامع، فالله سيعوّضه عن خساراته ويصلح أحوال الناس.

صار في كلّ جامع شيخ يأمر ويعظ، يعد ويهدي، سيتداركون أحوال التجارة والزراعة والصناعة وينشرون كلمة الله، دينهم وعرضهم.. والرجال تابعون مصدّقون، ولكلّ منهم سببه الذي يخصّه.. وفرضت الهداية على الجميع. وامتثل الجميع، منهم من

آمن ومارس إيمانًا، ومنهم من مارس خوفًا من الخروج وحده عن التيّار، ومنهم من مارس ذلك حرصًا على المكاسب التي تأتي من المضي مع المجموع أو التسابق معهم. وسريعًا سريعًا بات كلّ شيء بيد جماعة الشيوخ والشيخات. أُغلقت كلّ النوادي والجمعيّات ولم يعد من بدائل إلّا ذهاب الصبيان إلى الجامع وذهاب البنات إلى بيوت الشيخات.

ألغت سعاد الاستقبال الشهري وجعلت محلّه دروس الدين. في يوم واحد أفرغت الصالون الكبير من الكنبات والصوفا الطويلة والتربيزات وكراسي الخيزران، وأهدتها إلى فقير اختارته أمّ صالح. صار الصالون الكبير الذي يتوسّط الدار خاويًا تمامًا، غسلته وغسلت حيطانه، أو على حدّ قولها، طهّرته، ثم فرشته بسجّادتين كبيرتين، وعلى المحيط فرشات إسفنجيّة سميكة بغلاف مخملي باللونين البيج والبنّي مع مساند كثيرة. كدّست في الزاوية على طاولة واطئة أكثر من خمسين مصحفًا، بجانبها آنية زجاجيّة ثقيلة ممتلئة بالمسابح، برّاد ماء وكؤوس عديدة. وكلّ أسبوع تنهمك بإعداد الصالون مع الشرفة الواسعة، أكثر من مئة متر مربّع من البيت خُصّصت لدروس الدين والوعظ وقراءة القرآن. طالبت زوجها بتبديل زجاج النوافذ الشفّاف إلى زجاج محجّر، وعلّقت على الجدران لوحات كُتبت فيها الآيات القرآنيّة و«أسماء الله الحسنى». وضعت في خزانة كلّ بنت سجّادة صغيرة مطويّة على ثياب الصلاة، وغطاءً كبيرًا للرأس، وخرّاطة بمطّاط يرصّ على الخصر.

استيقظت البنات فوجدن للبيت هيئة أخرى. اعترضت بشرى:

صار بيتنا مثل بيت الفقراء، التزمت فداء الصمت، وانصرفت تحلم بحياة الجامعة، التصقت سمر بها، إلّا غادة، فقد أحبّت الهيئة الجديدة، عنت لها حرّيّة في الجلوس والاستلقاء. كانت في السابق تتساءل: ما أهمّيّة كلّ هذه الكنبات ما دام لا أحد يجلس عليها؟ تجيبها أمّها: للضيوف. تقول: لدينا غرفة ضيوف كبيرة، تجيبها: أيضًا للضيوف، غرفة الضيوف للضيوف الرسميّين، والصالون للأقارب واجتماع جمعيّة حماية الطفولة حين يكون الدور عليهم. لم تلغ سعاد غرفة الضيوف ذات الفرش الأكثر هيبة، والسجّادة الثمينة التي لا يمكن تحريكها من مكانها، استبدلت الصالون الذي كان مخصّصًا للأقارب ورفيقات البنات والجمعيّة، إلى مقرّ اجتماع النساء الديني برعاية أمّ صالح.

تناءى وجود فؤاد، وكأنّه قرّر الانعزال، برضًا أو من غير رضًا. اعترضت فداء في البداية لهذا التحوّل الذي طرأ على البيت، ولكن لم تكن لديها الجرأة لطرح البدائل، صديقاتها في المدرسة يطرحن أمامها الأفكار الشيوعيّة كما يتعلّمنها في بيوتهنّ، وتجد أنّ هذه الأفكار لا تعني أهل الحارة، ولا تلامسها هي شخصيًّا. كانت تحبّ فلسطين وتشتهي أن تساهم في تحريرها، وتحبّ الاستماع لأمّ كلثوم من إذاعة صوت إسرائيل مساء عند البحرة، وتقرأ روايات نجيب محفوظ، وتدرس دروسها. كان أكثر ما ينفّرها من أفكار رفيقاتها قولهنّ: أمّ كلثوم أفيون الشعب العربي، روايات نجيب محفوظ لا تتناول قضايا الطبقة الكادحة، علينا ألّا نفصل قضيّة فلسطين عن نضال كلّ الشعوب من أجل الحرّيّة. أحكام تصادر عليها كلّ ما أحبّت واعتادت عليه في يومها، لم يكن لديها بديل

عن دين الإسلام، ولم يكن لديها بديل عن الماركسيّة، لم يكن لديها بديل عن تلك التيّارات، تيّار أمّ صالح، وتيّار أخيها أيمن، وتيّار رفيقاتها. مراهقة وليس في رأسها مفهوم جاهز، إلّا اتّفاقها مع أبيها على حلم الغد.

أعدّت العشاء لأخواتها، سخّنت الخبز، غسلت الجبنة، قطّعت بطّيخة حمراء، مدّت «المدّة»[١] فوق الحصيرة في شرفة البيت، وجلست القرفصاء ترتّب المائدة. نظرت في زاوية الشرفة التي حلمت مع أبيها أن تُحوّل إلى عيادة، يؤسَّس لها مدخل مستقلّ.. عليها أن تحقّق هذا الأمل بدراسة الطبّ، تساهم بحماية الطفل. سوف تفتح عيادة أطفال وترشد الأمّهات على كيفيّة العناية بالأولاد نفسيًا وجسميًا، وسوف تفعل هذا بأجور زهيدة أو بالمجّان، وسوف تخصّص يومًا في الشهر لإجراء اجتماع مع الأمّهات تتحدّث كلّ منهنّ عن مشاكلها مع أولادها، ويتبادلن الخبرات، وربّما تستطيع أن تتوسّع في هذا الاجتماع ليشمل أمّهات الحارات المجاورة، أو تجد رفيقة تدير النشاط نفسه في الحارات المجاورة.. لم تدر أنّها نسيت نفسها وقتًا طويلاً تحلم وتبني القصور في الخيال، إلى أن قالت بشرى: متى نأكل؟

أدركت من ألم قدمها أنّها شردت طويلاً.

نامت في تلك الليلة بحال أفضل، عليها فقط أن تعتني بدراستها. عرفت ما الذي لا تريده، والذي لا تريده لن تفعله، مهما كانت مكاسبه. أبلغت أمّها أنّها لن تحضر الدروس الدينيّة

---

(١) بساط كتّاني يجلسون عليه وقت الطعام.

وأنّه لا شأن لها بالإعداد لها، كان قرارها قاطعًا غير قابل للنقاش. وعدت بأن تلقي بالتحيّة على النسوة وأن تصغي أحيانًا لوعظهنّ، وأن تنسحب بهدوء إن أرادت الانسحاب. زاد إعجاب أبيها بحكمتها، كان يوحي لها من دون كلام بأنّ التيّار هادر، ولا جدوى من السباحة ضدّه، وكانت تفهمه، وتمارس قناعتها من دون استفزاز. بقرارها هذا أنّها لن تحضر دروس الدين ولن تساعد في الإعداد لها، أحسّت بالراحة، لم يضغط عليها أحد. تعرف سعاد أنّ ابنتها، إن لم تساعد بهذا، فسوف تعتني بالبيت وتساعد في شؤون أخرى، وتحلّ محلّ الأمّ التي انغمست كلّيًّا بمشاغل أمّ صالح.

حين اتّخذت فداء قرارها بعدم المشاركة، لحقت بها سمر، لم تزعج رأسها بالتفكير والاختيار، فأختها الكبيرة حكيمة بما يكفي كي تحميها من نفسها ومن الآخرين، تبعت سمر أختها بحكمتها الخاصّة. مصير الجماعة السجون وهي لا تريد السجون لا لها ولا لأسرتها. تنبّه فداء أخواتها وتُعيد: أهل دروس الدين ليسوا بالضرورة من جماعة الإخوان المسلمين، فتقاطعها سمر: لا أحسّ بالراحة مع الشيخات. رغم أنّ بنات عديدات بعمرها كنّ يأتين لتعلّم قراءة القرآن والتجويد.

* * *

صار مخلص في السنة الثانية فلسفة، وبسبب التضييق والضيق وتعييرهم له بأنّه يدرس فرعًا دراسيًّا أدنى من الطبّ والهندسة، قرّر أن ينجز العسكريّة والجامعة بشهادتها قليلة الشأن، في وقت واحد.

لا يصلّي مخلص ولا يعترف بدين، لكنّه متزمّت. وقت قدومه يعني للبنات أسرًا لحرّيّتهنّ. حين يدخل إلى البيت يتوجّه إلى الساترات الخشبيّة الثقيلة ويرميها بحيث لا يترك شقًّا تنفذ عبره عين مراقب، ويمضي إلى غرفته مطمئنًّا، الأمر الذي لا يفعله لا الأب ولا الأمّ ولا الأخ الكبير، لا يهتمّون بهذا، مخلص فقط من كان يتشدّد.

قالت سمر مرّة تواجهه: يظنّ أنّ شباب الجيران يفعلون ما يفعل، يتلصّصون على جاراتهم.

أغضبته، أمرها بخشونة أن تصمت. التفت إلى بشرى، ورجاها أن تعدّ له الحمّام، أشفقت عليه، وذهبت تعدّ له الحمّام. حين مرّ أبوها بجانبها ووجدها تجلس القرفصاء أمام بيت النار،

كان عقاب مخلص أن يقوم بإعداد الحمّام لجميع أفراد الأسرة مدّة شهر.

يتعامل فؤاد مع بناته بحنان مُبالغ، لا يتناسب مع تعامله مع الشباب. لكنّه في الوقت نفسه يفكّر وكأنّه ضدّ أنوثتهنّ. يخطّط أن يتعلّمن أحسن تعليم، وسعاد توافق، فقط لقناعتها بأنّ بناتها لسن جميلات بما يكفي ليتسارع الخطّاب إليهنّ. تقول حزينة: لسن طلب أهل حماة! ليس أمامها لكي تتباهى إلّا أن يدرسن ويصبحن طبيبات أو محاميات.

انصرفت فداء لدراستها، وانصرفت عن مجالس المساء، افتقدها أبوها لكنّه تفهّم غيابها، آملاً أن تحصِّل ابنته مجموعًا يدخلها كلّيّة الطبّ.

لم يقف فؤاد في وجه التيّارين اللذين اجتاحا البيت، تيّار أمّ صالح المتمثّل بالأمّ، والقصد فرض الحجاب والصلاة وقراءة القرآن، وتيّار أيمن والقصد منه التمعّن في كتب سيّد قطب وأفكاره. لم يولِ أيمن لأمور الصلاة والصيام والحجاب أهمّيّة. كانت البنات لا يفهمن ما الفرق بين ظاهرتي أمّ صالح وظاهرة أيمن، ولكن كنّ يعرفن أنّ هناك فرقًا. تراقب غادة أخاها الكبير، تتساءل: لم أره يومًا خاشعًا بين يدي الربّ، أمّا أمّي فإنّها كلّ يوم تبكي خاشعة طالبة الغفران لها ولأسرتها، لماذا؟ ما دام الاثنان يتكلّمان بالإسلام ويدعوان إليه؟

تجيبها فداء: لا أدري! وتمضي إلى طاولتها الصغيرة وكرسيّها الخيزراني.

درست بكثافة فترة الامتحانات، واجتهدت رغم ظرف البيت الطارئ. كانت وحيدة تمامًا، وأخواتها لا يقدّرن توتّرها، تأمرهنّ بالصمت والهدوء، عبثًا. كانت لعبة البنات المفضّلة، «لعبة الأجانب»، ورغم أنّهنّ لم يعدن صغيرات إلّا أنّ أحدًا لم يمنع لعبهنّ وصخبهنّ، يرتدين ثيابًا قصيرة وعارية الذراعين ويضعن ملاقط الغسيل متوالية على هيئة شعر أشقر طويل، يحملن جزادين الأمّ القديمة ويتبخترن في البيت ويثرثرن بكلمات غير مفهومة والافتراض أنّها الإنكليزيّة أو الفرنسيّة، فوضى ولعب صاخب وشغب بلا انقطاع. أضاعت الأخت الكبيرة هيبتها وقت الامتحان، أصبحت شديدة التوتّر، تصرخ، توبّخ، ترجو، تهدّد.. إلى أن اندفعت مرّة وضربت غادة. كانت الليلة ليلة امتحان الرياضيّات، وكانت فداء قد قضت ليلتين بدون نوم، منهكة ومضطربة، وغادة لا تكفّ عن الصياح والثرثرة بجانبها، من دون وعي صفعتها، وانهمرت دموع فداء، اندفعت تعانق أختها بشدّة كي تنسيها فعلتها.

لم تكترث غادة كثيرًا بصفعة أختها. وضعت فداء قطنًا في أذنيها وأكملت دراستها.

حين أتت النتيجة، ونالت فداء مجموعًا في الثانويّة يدخلها كلّيّة الطبّ من أوسع الأبواب، اكتفت بابتسامة متّزنة أمام فرحة أبيها الغامرة، ومباركة أيمن الهادئة، أمّا مخلص فقد سحب أمّه جانبًا، متسائلاً يوشوش: الطبّ ستّ سنين، متى ستتزوّج أختي؟

نهرته لأنّه يذكّرها دائمًا بالهمّ والغمّ.

احتفل البيت بإنجاز البنت الكبرى بضع ساعات، ثم رجع إلى روتينه من جديد.

تتطلّع فداء إلى السفر والدراسة في دمشق، مدينة كبيرة، حياة جامعيّة واكتشافات مثيرة.

سألها الأب قلقًا وباشًّا في آن:

ـ هل حقًّا ستسافرين وتدرسين؟

ـ طبعًا بابا. قالت وهي تضع الراديو على أذنها، تستمع لصوت أمّ كلثوم عصرًا مختلطًا مع صوت تدفّق ماء البحرة.

تنتقل الأسرة صيفًا من الطابق العلوي إلى طابق القبو، بغية الهدوء والرطوبة. يعاني فؤاد من الرشح التحسّسي، يبدأ معه في الربيع حين تزهر الأشجار ويستمرّ حتى أواخر الصيف، تقلّ معاناته في الخريف، لتعاود شكلاً آخر من الرشح في الشتاء. اعتاد أفراد البيت على سعال الأب وبصاقه. يستهلك علبة مناديل كلّ ثلاثة أيّام، يرسل غادة كلّ أسبوع إلى دكّان «عبدو الحسني» تشتري ثلاث كيلو موز وعلبتي محارم. تعترض سعاد على التبذير، فيقول لها: تدبّري طريقة أخرى للتوفير. فكانت توفّر باللحم. يرسل فؤاد اثنين كيلو لحم «راس العصفور»، ناصحًا أن تقسم على أربع طبخات، فتجلعها سعاد ستّ طبخات، وحين تسكب له غداءه، تكثر من اللحمة أمامه.

نظر مرّة في صحون البنات قليلة اللحم، متسائلاً، برّرت سعاد، أنّ البنات ينفرن من أكل اللحم، واشتكت ابنتها سمر التي

تأكل فقط الخبز والرزّ والخضار. أخذ الأب من صحنه قطعة لحم ملتصقة بطبقة دهنيّة ووضعها في صحن البنت، وأمرها أن تأكلها.. كاد يغمى عليها، نظرت في وجه أبيها، إنّه جادّ ولا خيار أمامها. خفضت رأسها وأخفت وجهها تحت شعرها الأسود المتهدّل، علا صوت نشيجها. لكنّ نظرة الأب وتقطيبته كانتا أشدّ عنادًا. قال للمرّة الثانية: كلي القطعة التي وضعتها في صحنك، ترك الجميع طعامهم وراحوا يراقبون، أمرها للمرّة الثالثة، وضعت قطعة اللحم في فمها سريعًا وأنهت المراقبة. كأنّها أرادت ألّا تُخجل أباها وتكسر كلمته، أو أربكتها مراقبة الجميع لها. لم تتابع سمر طعامها، انتهى الغداء، هرولت سمر، تبعتها غادة راكضة خلفها وباغتتها تبصق قطعة اللحم من فمها.

ـ رأيتك.

سقط الغمّ على سمر، وعرفت أنّ غادة إن لم تخبر أهل البيت الآن فسوف تهدّدها كلّ الوقت بفعلتها. قالت برجاء: لم أستطع أن أبتلعها.. سألتها غادة بتحقيق لئيم: أنت تكسرين أمر البابا، وكيف تركتها في فمك كلّ الوقت؟ أجابت: تحت لساني، وكادت أن تتقيّأ، اشمأزّت غادة. وتركتها، ولكنّها لم تكفّ عن تذكيرها بعد ذلك.

أدركت سمر أنّها لا تستطيع أن تنال درجات عالية في الصفّ التاسع كأختها فداء، اختصرت الطريق والتحقت بالعاشر التجاري، فاجأت أهل البيت حين نالت في مدرسة التجارة درجة الامتياز، وحصلت على مكانة جديدة في البيت، بعد أن عُيّرت طويلاً بقصر

قامتها وبطء دراستها، كانت غادة تلقّبها بأمّ الوسطات، التي تأخذ علامة الوسط في مادّة الفيزياء. وسمر تصمت وتبتلع كلّ ما يلحقها، بصبر يُدهش من حولها، بترفّع عن صراعات البنات وغيرة البنات، يميّزون أختها فداء عنها، وتظلّ متعلّقة بها تتبعها وتؤيّدها وتساعدها، كأنّ الحياة قسمة ونصيب، وهذا نصيبها، خجولة من كلّ ما تفعله وما لا تفعله. يوم جاءتها الدورة الشهريّة، خجلت أن تخبر أمّها أو أختها، قصّت شرشفًا قديمًا، قطعًا، وراحت تلفّ كلّ قطعة وتستخدمها للدم الشهري، ثم تكدّس هذه القطع الملطّخة بالدم في خزانتها، كشفتها غادة التي تفتّش دائمًا وراء أخواتها وتفضح أمورهنّ وأسرارهنّ. وشتها لأمّها. لملمت سعاد الخرق من الخزانة ونقعتها وغسلتها، لا يجوز رميها «نجسة» في الزبالة. وحين جاءت سمر من المدرسة ورأت خرقها منشورة أمام كلّ الأعين، ركضت ونامت. كثيرة البكاء وعاطفيّة، تقول أختها فداء. إذا طلبت إحدى أخواتها، في الليل، ماء لتشرب، تسرع لتحضر لها ما تريد، وترجع، ما إن تضع لحافها عليها، حتى تنادي أخت ثانية أنّها تريد ماء، فتترك من جديد فراشها وتركض سريعًا، لتحضر ما تحتاجه الثانية. صارت فداء تنهاها عن خدمتهنّ، تقول لها: على كلّ واحدة منهنّ أن تفعل هذا بنفسها. لا تستطيع سمر أن تستريح وتغفو حتى تحضر الماء للأخت الكسولة، أو تتأكّد أنّ أختها قامت من نفسها وشربت. وتقول لفداء هامسة: سمعت أنّ هناك من قد يموت من العطش ليلاً. تشتغل سمر كثيرًا في البيت والأمّ تعتمد عليها في أمور عديدة، أوّلها الأمانة، حين ترغب الأمّ أن تخفي الشوكولا كي تحتفظ بها للضيف، فإنّها تطلب من سمر

فعل ذلك، لأنّ فداء تأكل الشوكولا إن اشتهت، لم تعنها يومًا الأمور الرسميّة بين الناس، أمّا سمر، فلم تكن تفعل هذا إن لم تأذن أمّها لها، وتعرف أنّ ما يُطلب منها أضعاف ما يُطلب من فداء. فتنفّذ من دون أيّ اعتراض كأنّ الكون خُلق هكذا، ولا مناص من بقائه على هذه السنّة، أناس أكثر أهمّيّة من أناس. يتعاطف أبوها معها، ويقول: القناعة كنز لا يفنى.



لم يكن هناك من يكترث لطبيعة غادة المكدّرة. ملأ رأسها تساؤل واحد: لماذا، ورغم أنّها أكثر أخواتها تنفيذًا لرغبات أمّها ومواعظها الدينيّة، لم تحظ بالحبّ والدلال كما حظيت به لينا وبشرى، ولماذا، ورغم أنّها فعلت منذ طفولتها ما بوسعها من أمور الصحّ الذي تظنّهم يرغبونه، وتجنّبت الخطأ، كما تعلّمته من أبيها وأمّها، لم تنل التقدير اليومي الكافي؟ ولماذا، تفكّر، ورغم أنّها اجتهدت واستعاضت علامة «ضعيف» في الحساب في الصفوف الابتدائيّة الأولى، بعلامات كاملة في كلّ الموادّ في الصفوف التالية، لم تنل التشجيع المنتظر!

دخلت على أمّها وأبيها بالنتيجة، لم يصدّق أحد أنّه يمكن لبنت الحصول عليها.

التمع المجموع الكامل رقمًا مهيبًا أمام عينيها، ضحكت وغضّت بصرها أمام تهنئة المعلّمات في غرفة الإدارة. كانت تتمنّى فقط لو أنّ لوجهها لونًا أبيض ولديها ضفيرة شقراء! فكّرت، ثم أحسّت أنّ الجميع كان مهتمًّا بالعلامة الكاملة أكثر من اهتمامهم

بسمرتها، وتراجع في ضميرها:

ليس الجمال بأثواب تزيّننا إنّ الجمال جمال العلم والأدب

ذلك البيت الشعري الذي يناسبها ويساعدها، إلّا أنّ كدرها لم يتبدّد. نفضت هموم رأسها وركضت وراء بنات الصفّ خارجة من باب المدرسة، تردّد معهنّ أغنية لحافظ الأسد تعلّمنها حديثًا من معلّمة الطلائع، المعلّمة الوحيدة التي تغنّي في المدرسة، والأغنيات بالضرورة عن حافظ الأسد. خرجن يردّدن الأغنية ويلوّحن بالجلاءات المدرسيّة حين صاح بهنّ فجأة رجل في الطريق أن يقطعن الغناء وينقلعن إلى بيوتهنّ.

انكسرت فرحة غادة بالعلامات الكاملة، وكادت أن تبكي، هرعت إلى أمّها متسائلة لماذا صاح الرجل بهنّ في الطريق؟ أجابتها الأمّ بهدوء وتحذير عميقين: لا تغنّي أبدًا لحافظ الأسد.

كانت غادة، ورغم حماسها مع الموجة الدينيّة وقيامها بالصلاة وقراءة القرآن على أحسن وجه، حسب أمّها، فقد كانت تفرح حين ينطلقن بالغناء جميعًا، لأنّها تحبّ الحماس ولم يعنها إن كان الغناء لشخص الرئيس أو غيره.

اقترن اسم حافظ الأسد منذ البداية بفكرة معسكر الطلائع التي داعبتها بالصميم، أن تنام في خيمة مع الرفيقات، يغنّين ويلعبن الرياضة، أن تتعلّم العزف على الغيتار، حلمها. كانت هذه الأشياء التي وعدتهنّ بها معلّمة الطلائع، زيّنت لهنّ المعسكر الصيفي وطلبت منهنّ أن يتحضّرن لأسبوع من المتعة والاكتشاف. أخذت غادة جلاءها وحلم المعسكر يطيّرها، لا تريد أن تقضي الصيف كلّه

تقرأ القرآن وتردّد الحديث وتتسابق مع البنات على حفظ الآيات، تريد أن ترى الطبيعة، الجبل والنهر والحقول، حلمت بالحقول التي تراها في الصور، حلمت أن تعيش في الغابة التي تراها فقط من نافذة التاكسي التي تنقلهم إلى «مشتى الحلو»، أن تقطف الثمار من الشجر، تمامًا كما تقرأ في كتب القراءة، أن ترى حصانًا وكلبًا وترى دبكة الفلّاحين والفلّاحات، والراعي وغنماته، كلّ تلك الصور التي رأتها وقرأت عنها وتخيّلتها، تريد أن تراها حقيقة واقعة وتعايشها ولو لأسبوع.

قرّرت أن تحصل على موافقة أمّها وأبيها في الذهاب إلى المعسكر. وفكّرت أنّها يمكن أن تطلب مساعدة أختها فداء.

همست في أذن أختها فداء التي تربّعت على الأرض تقطّع الملوخيّة مع أمّها، قالت إنّها تريد الذهاب لمعسكر الطلائع، تركت فداء من يدها عود الملوخيّة وقالت بصرامة: لا.. لن تذهبي أبدًا. صُدمت غادة: لماذا؟ أجابتها: لا نعرف هذه الأجواء. قالت غادة بيأس: شرحت لنا معلّمة الطلائع بأنّها مفيدة. قاطعتها فداء: لأنّنا لا نثق بمعنى مفيدة هذه، ولا نثق بكلام معلّمة الطلائع. لماذا؟ لم تستطع فداء أن تشرح لها أكثر. فكّرت غادة أن تحاول مع الأمّ، أجابتها أمّها بنزق ألّا تبدأ الصيف بالنقّ، سيكون الصيف مثل كلّ صيف، نسافر إلى مشتى الحلو أو طرابلس. ـ لا أريد مشتى الحلو أريد المعسكر مع رفيقاتي. قالت أمّها: لا تقولي هذا الكلام أمام أحد، لا ينقصنا والله إلّا طلائع البعث.

وذهبت سعاد لتقصّ لأمّ صالح طلب غادة، ردّت الشيخة

بخطورة: علينا أن نراقب البنات جيّدًا، ونكثر من الواجبات، حفظ القرآن والحديث.

في ذلك المساء الذي رفض الجميع طلب غادة بالسفر مع المعسكر، جاء أخوها أيمن من دمشق حاملاً شحّاطًا أحمر لامعًا وله كعب يطرق بالأرض أثناء المشي، خطف قلبها، وقال لها: ستكونين أحسن محامية بالعالم.

فرحت بالشحّاط الأحمر اللامع، ولكنّ حلم المعسكر والموسيقى والعيش أسبوعًا في الطبيعة لم يفارقها، لم يبق أمامها إلّا أبوها، تسأله، علّه يسمح لها.

شاقٌّ الطلب من الأب، هيبته وقلّة كلامه وندرة ضحكاته تربكها. فكّرت بوسيلة تدخل عبرها، فهي إن لم تكن لديها حجّة مقنعة للذهاب غير المتعة، لن تحصل على الموافقة. ماذا تقول؟ أريد أن أغنّي أو أرقص، هذا أمر غير مستحبّ على الإطلاق، أتقول إنّها تريد أن تعيش في الطبيعة بضعة أيّام؟ سوف يقول، سنذهب كلّنا معًا إلى مشتى الحلو. أتقول إنّها تريد أن تسافر مع رفيقاتها، وليس لديها أيّ رفيقة ابنة رجل معروف كما رفيقات فداء؟ فكّرت بيأس، ثم قرّرت: عليها أن تحاول وتطلب طلبها بثقة! انتقت ألفاظها وأسلوب كلامها وطريقة قدومها.

طرحت طلبها بجدّيّة وبطء مثلما يفضّل، وسكتت. ابتسم فؤاد: لماذا لا تسألين الماما؟ لم تجب. عرفت قانطة أنّه يريد أن يحيل الأمر للأمّ، ومعناه الرفض.

فوجئت حين سألها إن كانت رغبتها بالسفر مع المعسكر حبّها

للموسيقى والغناء، فكّرت، كيف عرف هذا؟ فالموسيقى هي أوّل الأسباب، إلّا أنّها كرهت أن تُتّهم بالتفاهة، كيف تترك القراءة والكتب، وتمضي إلى «الموسيقى والمياعة»! نفت بشدّة: أنا لا أهتمّ بالموسيقى والمطربين ولا أسمع لهم مثل أختي بشرى. عافاك، قال أبوها، وطلب منها أن تتحدّث عن آخر كتاب قرأته. أدركت أنّ عليها أن تكفّ عن الحلم بالمعسكر. تحدّثت باختصار عن رواية لمصطفى لطفي المنفلوطي، واتّجهت إلى عتبة الغرفة تريد الذهاب إلى غرفة البنات، وعدها أبوها: سوف أسأل إن كان هناك دورة لتعليم الموسيقى. هبط قلبها نشوة، وأسرعت تضع شحّاطها الأحمر بقدمها وتخرج سعيدة بالبديل الذي قدّمه أبوها لها.

مضت العطلة مثل الصيفيّات السابقة، أسبوعان في مشتى الحلو، لعب يومي في الحارة مع بنات الجيران، قراءة كتب ومجلّات كثيرة، متابعة مسلسل التلفزيون، ثم فتحت المدارس أبوابها.

اقترب أبوها منها في أحد المساءات يريد أن يخبرها شيئًا، يفعل هذا عادة مع ابنته الكبرى فداء، إلّا أنّه خصّ غادة هذه المرّة بالاهتمام: سجّلت اسمك في دورة موسيقى. وناولها وصل التسجيل، سوف تغنّين وتتعلّمين العزف على الأكورديون، مبسوطة؟ فتحت عينيها ونظرت إلى أختها بشرى بفخر: شكرًا بابا. اعترضت بشرى: لكن لِمَ غادة ولست أنا؟ صوتي أحلى من صوت غادة. مضى فؤاد ضاحكًا، وما إن غاب، حتى ركضت غادة لتشدّ شعر أختها وتكزّ على أسنانها. من قال إنّ صوتك أحلى من صوتي؟

وبعد جدال وعراك طويلين، جاءت فداء وحسمت الخلاف بأن وعدت بشرى أن تسعى لها مع أبيها لتذهب هي أيضًا لدورة الموسيقى.

أيّ ثياب تختارها غادة لليوم الأوّل من دورة تعليم العزف والغناء؟ سألت فداء، ثم استشارت سمر، وفي النهاية اختارت تنّورة من القماش المكعّب وبلوزة باللونين البيج والبنّي، وحذاءً بنّيًا ومضت تمسك بيد أبيها في الطريق سعيدة وواثقة.

حين رأى فؤاد وجوه المشرفين في الدورة، أصابه الانقباض. متردّدًا، ترك ابنته عند باب المبنى على أن تأتي أمّها لتأخذها بعد انتهاء وقت الدرس.

رجعت غادة مريضة وباكية. نامت من دون أن تخبر أحدًا عمّا حصل معها. اكتفت سعاد بلوم فؤاد على تبديد المال على أشياء فارغة.

أفاقت غادة على أمور كثيرة بعد ذلك اليوم، فهمت ما معنى ألّا يسمح لها بالذهاب إلى المعسكر، فهمت الرجل الذي صاح في الطريق ألّا تغنّي لحافظ الأسد، وفهمت أنّ الحماس الذي ملأها وهي تغنّي أغنية الطلائع مصدره فقط رغبتها بالغناء والنداء. نسيان ذلك اليوم صار صعبًا جدًّا، سيطر على ذاكرة البنت وأثّر على إرادتها وثقتها.

التقت لأوّل مرّة بأولاد المسؤولين. كان الأولاد المشاركون كلّهم أولاد مسؤولين في السلطة، ما عدا غادة. كانت صورة حافظ الأسد معلّقة على الحيطان الأربعة في غرفة تعليم الغناء، وجه

المعلّم غير أليف، والأولاد متكبّرون، جلست وحيدة وخائفة في مقعد جانبي وحين جاء دورها في الغناء، ردّدت المقطع المطلوب وهي مرتبكة، نظرت في وجه المعلّم تنتظر التقييم، سألها بخشونة وضيق: ما اسم أبيك؟

نصحها ألّا تأتي مرّة ثانية، استدار إلى صاحبة المعهد الواقفة، وقال بقسوة: لا يوجد موهبة. لم تكترث المديرة ولا المعلّم للحزن الذي أصاب البنت. ركضت غادة خارجة من الصفّ، جلست على درج المعهد، تتّكئ على الحديد وتنتظر قدوم أمّها لتأخذها، ومن المعهد إلى البيت ركضت ركضًا. صار هذا الوقت الخريفي قبل الغروب مصدر شؤم دائم لديها. ومنذ ذلك اليوم لم ترجع لذكر الموسيقى والغناء. اكتفت برسائل خفيّة تكتبها لربّها وتخفيها في أرض خزانتها العريضة، كانت تخشى أن تكون رسائل كافرة تعاقب عليها في الدنيا أو في الآخرة.



اجتمعت العائلة مساء، لا أحد ينوي السهر في الخارج. اتّكأ مخلص على طرّاحة جانبيّة ليتفادى التقاء وجهه بوجه أبيه، فيؤنّبه على أمر غير راضٍ عنه، وأموره كثيرة، فكّر مخلص وهو ينكش في أسنانه بظفره، ويضحك من أموره. اصطفّت البنات إحداهنّ بجانب الأخرى، بينما كان ربيع يعبث بما تيسّر له من أشياء، علبة محارم فارغة، صحن يدوّره، أشياء يهيّئها لتكون بخياله سيّارات.. أمّا أيمن فقد جلس كعادته على الكنبة الرئيسيّة مقابل أبيه. تحدّثوا عن جامعة فداء وبأنّها ستضطرّ للدراسة في حلب لأنّ ثمن البيوت غالٍ في دمشق. ينوي فؤاد شراء شقّة صغيرة للبنت بدل أن تتنقّل بين بيوت الإيجار. قال أيمن لأبيه مداعبًا: لم تفعل هذا مع ابنيك أيمن ومخلص في دمشق! ستضع كلّ ما لديك في شقّة لفداء؟ لم يجب فؤاد، اكتفى بابتسامة حبّ لابنته، بارك أيمن الفكرة، فيما أمسك مخلص الغلاف الشفّاف لباكيت الدخان المخفيّ في جيبه، طوى النايلون بعناية ومسّده ثم راح ينكش به بقايا الطعام بين أسنانه، كان يهزأ ويتساءل تمتمة: أليس من الأفضل لها أن تتزوّج،

وتستقيل همَّ الدراسة والتعب؟

سألها أيمن عابثًا إن كانت صديقاتها «بنات الأكابر» سيدرسن في حلب أيضًا، أجابته فداء باللهجة نفسها: اثنتان في حلب واثنتان في دمشق. وأضافت منتشية: ربّما يسكنّ معي في الشقّة نفسها. غمر فؤاد شعور بالفخر، سوف يشتري الشقّة بنفسه وتسكن عند ابنته ابنتا أشهر طبيبين في حماة! أدرك أيمن سرور أبيه، فزاد ساخرًا: ألم تعثري على صديقة غير هؤلاء الاشتراكيّين والشيوعيّين؟ لم يتمالك مخلص نفسه، ضحك بصوت عال، انزعج الأب، هرب مخلص سريعًا مدركًا أنّ امتعاض الأب من سؤال أيمن سيصبّه عليه.

انشغلت العيلة بجامعة فداء وأغراض البيت التي تلزم. طلب أيمن من أصحابه في حلب أن يساعدوا أباه، في نقل العفش وترتيبه. لم تر سعاد زوجها سعيدًا كما كان عليه بترتيب بيت ابنته من أجل دراسة الطبّ.

اشترى البيت وفرشه، مثلما أرادت ابنته، بكلّ الفلوس التي وفّرها طوال سني عمره في المحلّ، فرش الغرف الأربع كما لو أنّ كلّ صديقاتها سيقمن عندها. مساء اليوم نفسه، وبعد أن رتّبت كلّ الأغراض في أماكنها، أعدّت فداء لأبيها وأمّها عشاء وجلست سعيدة وضاحكة:

ـ شكرًا بابا.

أجابها دامعًا:

ـ بيّضت وجهي، ستداوين الناس بالمجّان يومًا في الأسبوع، كما يفعل وجيه البارودي الآن.

قالت فداء لأبيها جازمة، إنّها ستؤجّر الغرف لرفيقاتها وتصرف على نفسها وجامعتها وكتبها من أجرة الغرف. فرحت سعاد بتدبير البنت. تردّد فؤاد: عيب أن نأخذ أجرًا من رفيقاتك.

لم تستجب فداء، أجّرت الغرف الثلاث ومضت إلى جامعتها مدلّلة وهانئة وعازمة على النجاح.

بعد أسابيع قليلة دخلت عليهم في أوّل زيارة لها، مبتهجة. رأوها كنجمة، هذّبت فداء حواجبها، وقصّت شعرها، واشترت جزمة شاموا بلون بنّي مع مانطو من الشاموا، بدت بعيونهم مع رائحة العطر التي تميّزها، أميرة. وزّعت الحلوى على أخواتها وما حملت معها من أشياء لربيع.

لحقت بأمّها مشتاقة لطعامها: ذاب قلبي على لقمة الرزّ التي تطبخين. شهقت أمّها من اشتهاء البنت: ألا تطبخين؟ ناوليني ملعقة سمن من العنبر. احتجّت فداء: ماما، عنبر السمن؟ ثيابي جديدة. ابتسمت أمّها راضية ونادت سمر كي تفعل.

جلست فداء تنوي إخبار أمّها بأمر ما، نظرت الأمّ في وجه ابنتها وسألتها هل رآك الجيران حين نزلت من التاكسي؟ فهمت فداء أنّ أمّها قلقة أن تكون أمّ صالح رأت أنّ البنت هذّبت حواجبها. طمأنتها: لم يرني أحد، وصلتُ وقت قيلولة الناس.

قبّل فؤاد ابنته من جبينها، وأجلسها متلهّفًا لسماع أخبارها

وأخبار الجامعة. ينبئه التماع عينيها أنّ أمرًا جديدًا حدث معها، ولأنّ الأب واثق على الدوام من ابنته فقد كان مطمئنًّا لكلّ ما تقوله وما تنوي فعله، شعوره أنّها لم تخذله. تحدّثت طويلاً عن الجامعة والدكاترة والطلّاب ونظام التعليم ونسبة الطالبات والمحاضرات والنشاطات الأخرى. قالت إنّ هناك مجلّة حائط تفكّر أن تشارك فيها بمقال شهري، وإنّ هناك نشاطات أخرى يمكن أن تتابعها، وثرثرت كثيرًا. كلّ ما كانت تقوله يملؤه حبورًا وفخرًا، تطرّقت للتوجّهات السياسيّة عند الطلّاب، والفرز الذي يحدث بينهم، لم تحتج أن توضح نفسها، يعجبه أنّها ليست مع أيّ توجّه وليست ضدّ أيّ توجّه، لا تيّار أخيها ولا التيّارات الأخرى. ضجرت سعاد من حديثهما الذي طال وتشعّب.

تراجع فؤاد في مقعده يشرب الشاي ويدخّن سيجارته، وكلَّ حينٍ يتفقّد عيار مازوت المدفأة. أخذت سعاد بنطالاً لربيع تقطّب فتقًا فيه. كانت البنات بجانبها منشغلات بأختهنّ الكبرى وأحوالها، لم يقبلن النوم أو الدراسة، عودة الأخت الكبرى بعد أوّل غياب لها يحمل الكثير من التشويق.

التفتت فداء فجأة وشملت الجميع بنظرة واحدة، ثم قالت تبلغهم جميعًا قرارها الأخطر:

ـ نزعت الإيشارب.

ونزل الخبر كالصاعقة على الجميع. نظرت أوّلاً في وجه أبيها، ثم في وجه أمّها تنتظر تعليقهما. أطرق فؤاد وصمت.

ـ ماذا به الإيشارب؟ استفسرت سعاد بهلع.

قالت فداء:

ـ أذهب إلى الجامعة في حلب من دون غطاء الرأس.

شهقت الأمّ، فالإيشارب، في مفهومها، رمز خطير، «أيّ صبيّة في الحارة تجرؤ على نزعه؟» ورغم أنّه على الأغلب شال خفيف يظهر غرّة الشعر كاملة، إلّا أنّه لا يمكن لصبيّة أن تمشي في الحارة من دونه. كانت جرأة فداء ووضوحها صدمة لأمّها، أصابها الهلع لأنّها أدركت أنّ ابنتها حين تنوي على شيء لا بدّ أن تفعله، وها هي فعلته ومن دون أن تستشير أمّها أو أباها أو أخاها الكبير، سقطت سعاد بالغمّ، صاحت:

ـ بنت من، تحسبين حالك؟ بنت الدكتور مثل رفيقاتك؟ وجئت بالتاكسي بلا غطاء رأس، إن شاء الله؟

أجابت فداء ببرود:

ـ طبعًا.

فرحت البنات بشرى ولينا وراحتا تثرثران بأنّ أختهما حلوة وأكابر، تخرج من دون إيشارب. بينما سقط الغمّ على غادة فهي تحبّ أختها الكبيرة: يجب إنقاذها من نار جهنّم. نظرت إلى أختها. اختارت فداء أن ترتدي ثيابًا باللونين البنّي والبيج مع ماكياج يتناسب مع الألوان، رأت غادة أنّ كلّ ما في أختها أنيق، ولكنّها حزنت، فهي تخشى عليها من غضب الله. نظر الأب إلى ابنته ورغم خشيته عليها من أهل الحارة، إلّا أنّ لسان حاله يقول، البنت تستحقّ أن تكون ابنة لأحسن طبيب. ورغم أنّ أحواله المادّيّة

ليست ضيّقة إلّا أنّه يخجل أن يطرح نفسه بين الأوائل، فهو حتى باشتغاله في شبابه مع أكرم الحوراني وجماعته وعيشه منذ الطفولة في البيت الملاصق لبيته إلّا أنّه يشعر بأنّه أقلّ مرتبة اجتماعيّة من هؤلاء الزعماء.

بكت سعاد طويلاً، وقالت: سيُقال عنّا فلتانين. أسكتها الأب: أنت تعرفين أنّ ابنتك عاقلة وتعرف كيف تجعل الجميع يحترم قرارها. قرّرت سعاد أن تستنجد بأيمن لكي يقنع أخته بإبقاء الإيشارب على رأسها كيفما كان لونه، شكله، طوله، عرضه، أيّ خرقة، المهمّ رمز الإيشارب.. قالت بصوت مبحوح: عندي خمس بنات، من سيخطبهنّ من دون غطاء على الرأس. ورغم أنّ الأب داخله الغمّ نفسه إلّا أنّه كان يتجاهله أو يؤجّله، ويقول، اترك للأيّام همّها. أرسلت الأمّ لأيمن من دمشق أن يأتي، وأتى في اليوم الثاني.

استغرب الجميع، أيمن لم يكترث كثيرًا، قال: وهل الإيشارب الذي كانت تضعه سابقًا هذا بحجاب؟

قالت سعاد: يا ابني لسدّ حلق العالم.

- كلّ همّك أمّ صالح والعالم؟

وغادر البيت، وكان يبدو عليه الانشغال الشديد، والقلق، وكانت سفراته الغامضة قد ازدادت.

لم يبق أمام الأمّ إلّا أن تتوسّل إلى ابنتها أن تعدل عن قرارها. عاندت فداء: هذا الإيشارب يخجلني، لأنّه لا يعني شيئًا، لست

محجّبة، ولا أريد أن أضع خرقة لا معنى لها.

نصحتها: حجاب شرعي.

زفرت فداء: ولكنّي لست من جماعة هؤلاء أيضًا.

أدركت الأمّ أنّه لا حيلة أمامها، قالت راجية: ضعي الإيشارب فقط حين تأتين إلى حماة.

ذُعرت فداء من صدق رجاء أمّها، وقالت: كيف أفعل هذا؟ هذه ازدواجيّة!

ونظرت في وجه أبيها مستنجدة، ولكنّه ظلّ صامتًا، ثم نظر إليها نظرة مطوّلة أوحت لها برغبة تؤيّد الأمّ، قال بتردّد: يجب أن تخفّفي من صدمة أمّك. تفهّمت فداء تخوّف أمّها من نسوة الدروس الدينيّة وأوّلهنّ أمّ صالح. سافرت في اليوم الثاني صامتة، ربطت إيشاربًا على رأسها، قبّلت أخواتها وأمّها وعانقت أباها طويلاً، وضعت علب طعام أمّها في الحقيبة الجلديّة السوداء، وركبت التاكسي دامعة. من يومها صارت زياراتها لحماة نادرة، تركب البولمان من حلب إلى ساحة العاصي في حماة، وفي طريقها إلى البيت تربط الإيشارب خجلة من نظرة سائق التاكسي الساخرة، وتمضي إلى بيت أهلها، ولا تخرج منه إلّا لترجع إلى حلب. حيث عاشت أكثر أيّامها نجاحًا.

حين يشتاق فؤاد إلى ابنته، يسافر لزيارتها، يشتري بضاعة المحلّ من أسواق حلب بنفسه، ويستمع لقصص الجامعة والطلّاب والدكاترة. زملاء فداء مجموعة طلّاب منهم المسيحي والمسلم

السنّي والشيعي والعلوي ومن بينهم طالب يهودي. تتحدّث لأبيها عن الجميع، ممّا كان يثير استغراب صديقاتها، كانت صديقتها تقول لها إنّ أباها لا يعطيها من وقته كما يفعل أبو فداء، كما أنّها لا تجرؤ أن تخبره أنّهم شلّة شباب وبنات وأنّهم تناولوا الغداء في مطعم، أو ذهبوا إلى السينما. كانت فداء تُجيب ببداهة: كلّ ما نفعله، من أفكار قرأناها..

فكانت صديقتاها تتضاحكان. وحين تقول هذا لأبيها، يقول لها: نعم، يبدو أنّ الواقع شيء آخر. استمع إليها باهتمام، أحسّ أنّها حين تتحدّث عن زميل اسمه طارق، تتريّث في كلامها وتبطئ وتلتذّ في الاسترسال في السيرة. سألها عنه خصوصًا فانفرجت أساريرها، وراحت تحكي بإسهاب، وقالت إنّه رغم هدوئه وصمته، هو الأكثر اجتهادًا، وإنّ أسرته تعيش في دمشق. سألت أباها: ولكن لِمَ كان الشيعة أقلّيّة في سوريا؟ لم يجب الأب، لاحظ أنّ ابنته تزداد جمالاً وتألّقًا ورصانة، وكلّ هذا يبعث على الثقة، ويجسّد كلّ ما حلم به سابقًا ببناته، لكن كيف ستكمل فداء حياتها، من ستتزوّج؟ سؤال لم يؤرّقه سابقًا، إلّا حين شعر أنّ ابنته صبيّة وربّما تفكّر بشابّ من الطائفة الشيعيّة. ودّعها قائلاً:

- المرّة القادمة رتّبي بيتك، البارحة لم أجد على الكنبة مكانًا فارغًا أجلس فيه، كتب وثياب وأشرطة تسجيل.. واملئي الثلّاجة فاكهة وخضارًا ولحمًا ولبنًا.

تعرف أنّه لا يحبّذ طريقتها في توزيع مصروفها على مظهرها وكتبها، ناسية طعامها.

كانت تهتمّ بترتيب حقيبتها، أوراقها، تنظيف مشط رأسها، الاستماع إلى نشرة الأخبار الصباحيّة مع أغنيات فيروز، تهذيب حاجبيها وخطّ الكحل، كيّ الثياب وتنظيم قلب الخزائن والأدراج. تعتني بترتيب الأشياء من الداخل، فإن فاض عن ترتيب الداخل شيء تتركه خارجًا حتى تعثر على مكان مناسب له، حتى وإن تراكمت الأشياء أمام وجهها أيّامًا وأسابيع. المهمّ في السرير هو الشرشف النظيف، أمّا الغطاء فعلى الأغلب يأخذ شكل نهوضها من الفراش.

* * *

كبرت بشرى ووضعت الإيشارب كما طلبت أمّها منها، كان همّها أن تكون جميلة وأنيقة. يؤرّقها ليل نهار أنّ فمها كبير، تقول أمّها: لا تضحكي ملء فمك، زمّي شفايفك. فكانت تتدرّب على الضحك مع زمّ الشفايف أمام المرآة، ساعات طويلة، وتستشير أختها الكبرى عن الابتسامة الحلوة، وتدافع عن «عيبها» بأنّ للممثّلات على الأغلب أفواهًا كبيرة، فتقول أمّها: ممثّلات. تفهم بشرى ردّ أمّها وتمضي إلى المرآة من جديد تتدرّب على الضحك المزموم.. ولكن حين تغضب تنسى كلّ التدريبات، ولا تزمّ الشفاه، فتصيح ملء شدقيها، تنهاها أمّها: بستانيّة، سدّي حلقك! ترجع بشرى إلى المرآة نادمة، وتبدأ تدريباتها مع سدّ الحلق.

نالت بشرى محبّة الأقارب والجيران، دمها خفيف، يقولون، يحبّون طريقتها في الجواب والتعليق، ولا يفتأون يعيدون حوارًا دار بينها وبين أمّها حين كانت في الرابعة من عمرها، نبّهتها أمّها أنّ على البنت أن تغطّي ركبتيها، سألتها: لماذا؟ قالت: كي يأخذها الله إلى الجنّة، سألتها: إذا لم يأخذ البنت إلى الجنّة، أين يأخذها

الله؟ قالت: إلى جهنّم. قالت: سأطلب من خالي أن يمنع الله من إشعال النار في جهنّم. ولم تقبل أن تنفّذ أوامر أمّها، حتى وعدتها أن تشتري لها كلسونًا أحمر من سوق الدبّاغة وليس من سوق الطويل الذي يبيع أشياء غير أنيقة. رضيت وقتها أن تغطّي فخذيها أثناء الجلوس.

منذ طفولتها تعتني باختيار صحن طعامها وثيابها الداخليّة وغطاء سريرها ومخدّتها وبيجامة نومها. تحاول أمّها إقناعها: الثياب الداخليّة لا يراها أحد، فلماذا ندفع ثمنًا غاليًا لها؟ كانت تُجيب بكلمتين: هيك بحبّ. كانت تطمح إلى تغيير منطقة السكن، وإلى العيش في بيت في منطقة الشريعة والذهاب إلى مدرسة في منطقة الشريعة، كانت تقول هذا كلّ يوم لأمّها، تقول لها أمّها: قولي لأبيك. فيُجيبها فؤاد: اعتدنا على العيش هنا، بيتنا هنا أغلى ثمنًا من بيوت الشريعة. يقنعها أنّها لا تعيش في مستوى أقلّ، فتشتكي: الأولاد هناك أنيقون أكثر.

تفوّقت في مدرستها، وعقدت غطاء الرأس كما تُعقد وردة، بدت أكثر أناقة وأسكتت أمّها وصاحبات أمّها. لم تأخذ الأمر بخطورة وجدّيّة كما فعلت غادة، نفّذته بطريقتها ولم تصدم أحدًا. كما حدث ويحدث مع أختها غادة. غادة الملبّدة، الرافضة، والممتعضة دائمًا، والتي تكشف أخطاء الآخرين، وإن كانت هفوات غير مقصودة، داهية في تبرير أخطائها حين ترتكبها، تفضح ضعف من حولها، وقادرة على سبر ضعفهم بحدسها، لا تكترث أبدًا لرجاء مقابلها، وإن كانت أمّها. كثيرًا ما أخبرت أباها عن فعل تخجل أمّها منه، كأن تعد بشراء حقيبة جديدة بعد شهر، ثم لا تفي بالوعد.

وكثيرًا ما فعلت العكس وفضحت فعلاً لأبيها ما حاول يومًا أن يُداريه، كأن يتضاحك مع زبونة تشتري القماش من الدكّان. يعجبها أخوها الكبير باتّزانه، وإن كان شديد الغموض عليها، وتعجبها أختها فداء، أمّا البقيّة فإنّهم جميعًا، بنظرها، يمارسون غير ما يقولون ويطلقون الوعد ولا يفون، يقولون ولا يفعلون، يدّعون ويفاخرون.. بسبب قسوتها في محاسبة الآخرين، لقّبتها العائلة «يهود خيبر». تكره غادة هذا اللقب، وحين تُعيّرها أختها بشرى به، تهجم عليها لتضربها. شديدة العنف حين تضرب، وتعرف كيف توجّه ضربتها فتوجع، تفعل هذا على الأغلب مع أختها التي تصغرها لينا، ومع أختها التي تكبرها بشرى، لينا لأنّها المدلّلة الحلوة، وبشرى المحبوبة عند الأقارب والجيران. غاضبة غادة وناقمة.. ولكنّها ومع قسوتها التي تظهر بها كلّ الوقت، شديدة الضعف حين يحدث أمر غير معهود. أدرك معلِّمةَ الديانة التعبُ الشديد في الصفّ، وتبيّن أنّها مصابة بالصرع، وكادت أن تسقط، تركت غادة مقعدها وركضت إلى زاوية الصفّ وراحت تبكي بشدّة وهي تراقب المعلّمة تلملم أوراقها وتترك الصفّ، تحلّقت البنات حولها يستفسرن سبب هذا الخوف الشديد، كفكفت دموعها ونهضت قائلة إنّها خافت أن تسقط المعلّمة أرضًا. وحين ماتت جارتهم زوجة بائع الحلوى، ظلّت ليالي عديدة لا تنام جيّدًا وهي تفكّر بأولاد الجارة وكيف ستعتني بهم أختهم الكبيرة وهي ما زالت صغيرة.

تطرُّف غادة وتناقضها، مزاجها الصاعد والهابط، تفوّقها في أحيان، وتراجعها في أحيان أخرى، فصاحتها، تلعثمها، انفجاراتها، ضعفها، كلّ ذلك جعل حياتها في ضيق وأزمة دائمة،

خلال سنوات مراهقتها، لذا كان صيدها سهلاً على شيختها ماجدة، سحبتها مع الموجة الدينيّة وأغرقتها حتى الثمالة. سنتان، تستيقظ غادة لصلاة الصبح وقراءة القرآن، وتبالغ حتى يحين وقت المدرسة، تمضي ممتلئة خشوعًا وورعًا. حفظت في ثلاثة أيّام سورة البقرة وآل عمران، عدا «جزء عمّ» الذي كانت قد حفظته سابقًا. ما كان يدهش أمّها أنّها راحت تتبحّر في علوم الدين والقرآن، وتقضي ليالي رمضان تقرأ وتطالع وتحفظ وتجيب وتناقش حتى في أمر الفتوى.

أدركها الطمث، ولم ترحّب أبدًا بذلك، كأنّها رفضت ضمنيًّا أن تنتقل إلى عالم الكبار، أو ظلّت تتأرجح بين بين. لم يعجبها أمر الحجاب، كان يغضبها غطاء الرأس، تناقش أمّها: هل شعر الرأس عورة؟ فتقول أمّها: طبعًا عورة، فتقول: لكنّ للرجل أيضًا شعر رأس، وهو تمامًا مثل شعر المرأة أحيانًا مجعّد وأحيانًا أشقر سبل. وحين درجت موضة الشعر الطويل للرجل والقصير للفتاة، صار الرأسان متشابهين. تقول أمّها: لكن حين تكونين أنت الوحيدة التي لا تضع الحجاب، سوف ينظر إليك الناس، وتقعين في المعصية، فتجيبها غادة: كلّ بنات الصفّ وضعن الحجاب، بعضهنّ بحجاب حقيقي وبعضهنّ مزيّف، فتجيبها أمّها: لكن ستضعينه بشكل حقيقي، لأنّك بنت مربّاية. فتقول غادة: لا أحبّه. فتنهرها أمّها: من تظنّين نفسك؟ ابنة فريد بك؟ وتذهب لتشتكيها لأبيها الذي لم يكن يقبل التدخّل في النقاش، وحين تزيد سعاد في النقّ، يقول لابنته بعصبيّة: أحسن أن تفعلي مثل بقيّة البنات، الحجاب شرطوطة، خرقة على الرأس وخلص.

كانت غادة الأكثر نشاطًا بين البنات في مساعدة الأمّ للإعداد لدروس الدين، والتي كانت نوعين، دروس أصول الدين، ودروس قراءة القرآن وحفظه وتجويده. وكلّ درس يكون لجيلين، جيل النساء الأمّهات وجيل الصبايا والصغيرات. كانت الشيختان أمّ صالح وأمّ فيصل تدرّسان الأمّهات، والصبيّتان ماجدة ونجاح تدرّسان النساء الصغيرات. تفرح غادة حين يحين دور النساء الصغيرات حيث تتشاوف على البنات الأخريات أنّها ابنة البيت الذي يستطيع أن يستضيف الناس وينال الثواب. وكانت أمّها تنهاها عن ذلك الافتخار، وتقول لها وهي تفكّر بالثواب الذي تناله عن وعظها: إنّك تُذهِبين الثواب بتشاوفك. لم تكن تكترث غادة بثوابات أمّها، كان ما يعزّز تشاوفها هو تشجيع معلّمتي الدين نجاح وماجدة لها، تستخدمانها رمزًا للدراسة والاجتهاد، تطلبان من البنات الأخريات الحذو حذوها.

تأتي المعلّمتان بشكل متناوب، ولا تلتقيان في وقت واحد، لم تكن البنات يعرفن الكثير عن نجاح أو ماجدة، أين تسكن كلّ منهما، ما شكل بيتيهما، ما شكل أخواتهما، في أيّ صفّ من المدرسة. . لم يُعرف عنهما إلّا أنّهما متبحّرتان بالدين والقرآن. كان للفتاتين طبائع مشتركة، الصبر على تذمّر البنات، الجدّيّة في إعطاء الأمر، والترفّع عن الخوض في تفاصيل صغيرة، حين تشاغب بنت أو ترفض الإذعان، تأخذ معلّمة الدين الأمر بصبر وتأنٍّ شديدين، كي لا تفقد احترامها بين البنات، وكي لا ترهبهنّ فيُصيبهنّ النفور. وهذه الطباع تمثّلتها كلّ من نجاح وماجدة ممّا دفع بنات كثيرات إلى الانقياد والطاعة، بنات افتقدن هذه المثالب

عند أمّهاتهنّ أو أخواتهنّ. لم ترغب غادة أن تستريح أو تهدأ لكي لا تكسر الرمز الذي اعتمدت نجاح وماجدة عليه في تعليم البنات. بجنون، مضت تحفظ القرآن وتقرأ في كتب الحديث، فتساهم راضية في تمكين أوامر المعلّمتين، فالصبايا الصغيرات أكثر أهمّيّة من النساء الكبيرات، لأنّهنّ يستطعن حفظ القرآن والعمل به أكثر من الأمّهات المنشغلات بالبيوت وخدمة أزواجهنّ.

قاومت غادة الحجاب بضعة شهور متجاهلة نظرة اللّا رضا التي تصدرها معلّمتها، ونقّ الأمّ وانجراف بنات الصفّ جميعًا وراء الموجة. لديها شعور ضمني غير واضح المعالم بأنّ الحجاب يُشعر بالمهانة، إلى يوم خميس كانت برفقة أمّها إلى بريّة القبور، تمشي ببطء ووجهها محجوب بباقة الآس، مرّت أمام معهد الموسيقى، نظرت في بابه الحديدي نصف المفتوح، هذا وقت الدرس، بعد قليل يأتي الطلّاب ويغنّون ويعزفون، ويصفّق المعلّم لهم، كما فعل في ذلك اليوم، تذكّرت. التفتت ورأت معلّم الموسيقى ينحني أمام نافذة سيّارة جديدة ويتحدّث بتذلّل وتقرّب، امتلأت غادة بالقهر، تمنّت لو تصفق وجهه بالإسفلت، أو تدفعه أمام سيّارة فتدهسه، علّه يفقد صوته ولا يستطيع أن يقول لأحد: لا يوجد موهبة.

قالت بصوت منخفض:

ـ هذا معلّم الموسيقى.

لم تسمعها أمّها.

أكملت سيرها بجانب أمّها. وفي طريق العودة، قالت لها أمّها من جديد: الله يرضى عليك، صرت صبيّة يجب أن تضعي الغطاء.

وضعت غادة الحجاب، اختارت من خزانة أمّها حجابًا كبيرًا، ربطته بلا اعتناء، إيشاربًا على رأسها. ومضت في أوّل يوم لها مكتئبة وكارهة للحجاب ولوجه معلّم الموسيقى وهو يطردها من دورة الغناء.

لم تكترث لينا كأختها غادة بهذا. يزعجها أنّ قميص البيجامة صار أكثر طولاً، ثوب الخروج، وغيره. ترتدي الصدريّة القصيرة، وتهرب من باب جانبي، كي لا تراها أمّها، تكره ألّا تكون أنيقة، والموضة ثياب قصيرة. صادفها أبوها في الطريق راجعة من المدرسة، قال لها ناصحًا: ارتدي بنطالاً طويلاً كي لا تتّسخ الركبتان. قاطعته سعاد غاضبة من حلمه: على البنات أن يتعلّمن السترة، لسن صغيرات.

لم يكن يرضى عن طريقتها في التربية، كان يخشى بالحثّ على الحجاب أن يوقظ البنات على الأنوثة، ويعرّفهنّ خبايا الإغواء وأساليبه، الأمر الذي كان يملؤه رعبًا وغمًّا وضيقًا. منذ أن أتت البنات متوالية من دون توقّف وهو يحاول جاهدًا أن يقتل الأنوثة فيهنّ، ويدرّب الأمّ من دون إعلان أن تساعده في هذا، باللباس العملي الذي لا يلفت انتباه أحد، وتوجيه اهتمام البنات إلى الكتب والثقافة، واختيار الرفيقات الجادّات. ملأ الأب رؤوس بناته بألّا قيمة للإنسان من دون علم، وأنّ أسوأ أمر في الحياة هو نجاح المرأة في إغواء الرجل، حتى وإن كان الزوج نفسه. تساعده سعاد وتحرص على تصرّفاتها مع زوجها بوجود البنات. فهمت فداء أباها وكسرت الحاجز بينها .وبينه، طمأنته بأنّها تحمل القناعات ذاتها وبأنّه لا همّ لها إلّا دراستها. كانت تحكي كلّ ما يحدث معها، ولا

تتردّد أن تواجه أخاها أيمن الذي لم يكن يفضّل شلّة صديقاتها، ويطلب منها مصاحبة فيحاء ابنة العائلة شديدة التديّن، والتي تضع الحجاب الكبير وترتدي المانطو الطويل. فتقول له: لن أغيّر صديقاتي، يبتسم فؤاد فخورًا بابنته وخياراتها واثقًا من مستقبلها. يستمع للنقاشات بين فداء التي تطرح أفكارًا تقارب أفكاره، وبين أيمن الذي يطرح أفكارًا إسلاميّة جديدة، وبين الأمّ التي لا تحبّ النقاشات، وتطلب من أولادها أن ينفّذوا أوامرها من دون جدال: أنا أمّكم وأعرف صالحكم. كانت بقيّة البنات يستمعن، يفهمن القليل وعلى الأغلب يتعاطفن مع الأخت الكبيرة، فيما غادة التي تكره هذه النقاشات تطلب من أختها بشرى أن تمضيا، إلى المسرح، درج الخزانة، الذي أفرغنه ووضعن فيه فراشي الأسنان التي أحضرها الأب لكلّ بنت، ولم تهتمّ الأمّ بمتابعتهنّ لتنظيف أسنانهنّ مساء، استخدمن الفراشي شخصيّات لحكايات اختلقنها. كانت بشرى الأكثر قدرة على خلق الحكايات والأحداث والشخصيّات، كانت تحبّ التمثيل وتبرع بتقليد الحركات والأصوات، ولا تخجل من تقليد أخوالها وخالاتها وأولاد الجيران وأخواتها. كانت الأقدر على تسلية غادة والتخفيف من كآبتها التي تحوّلت فيما بعد، ومع الأيّام، إلى تطرّف وتزمّت وصارت مع عباداتها أكثر تشدّدًا من أمّها. أتقنت أحكام التجويد كلّها وحفظت أكثر من نصف القرآن. أهملت في ثيابها وأمعنت في مظاهر الورع والزهد، صفات المتديّن.

مرّة، قالت لها أختاها بشرى ولينا: لِمَ تلبسين بنطالاً تحت ثوبك؟

عليها أن تتأنّق، كي لا تتأثّرا بمظهرها، صاحت بتوتّر أنّ الأناقة في القلب، والجمال جمال الخلق و. . ليس الجمال بأثواب تزيّننا إنّ الجمال جمال العلم والأدب. قبل أن تنهي قصيدتها، انسلّت لينا وبشرى من أمامها إلى المرآة، لكي تتمشّطا وتضعا الشرائط. اتّجهت غادة وحيدة وحانقة إلى طابق القبو. كانت تفكّر بطريقة تتفوّق فيها أكثر، ليس بإمكانها أن تتديّن أكثر، وليس بإمكانها أن تكون أجمل. . كانت هائجة حين عثرت في طريقها على ورقة ملقاة خلف باب البيت، تناولتها واتّجهت إلى غرفة بعيدة، منشور بتوقيع الإخوان المسلمين، منشور يندّد بالحكم، بقوله، الحكم العلوي.

قرأته أوّل فرد في البيت، ما معنى علوي؟ وما معنى سنّي؟ ما معنى الضبّاط والمسؤولين؟ أحسّت بانقباض، لم يكن من عادتها التفكير بالغد أو الحلم بالغد، كان حاضر الأسرة هو ما يسيِّر يومها، المدرسة ودروس الدين، أمّا الغد فإنّ الأسرة أيضًا ستحدّده، أمّا حين قرأت المنشور، فقد أحسّت أنّ الكلام المكتوب سيصنع غدًا أو يحدّد مستقبلاً، أحسّت بفطرتها أنّ الكلام خطير ومهدّد، لكنّها أُصيبت بالحماس، ومضت إلى أبيها وناولته الورقة، ناظرة في وجهه متسائلة، قرأه بلا اكتراث كأنّه قرأ مثله سابقًا أو كأنّه يعرفه، وضعه جانبًا، متجاهلاً أسئلة البنت، واكتفى بالقول: لا تخبري رفيقاتك في المدرسة عمّا قرأت اليوم ولا تخبري أحدًا أنّنا تلقّينا المنشور.

* * *

قدم أيمن من دمشق ودخل وقت العصر باشًّا لامع العينين. قبّلته أمّه وربيع بجانبها: الحمد لله على السلامة، ثم قالت راجية: أريد منك اليوم أن تسجّل لأخيك صوته يتلو القرآن. ضحك أيمن: ربيع يتلو القرآن؟ قالت باسمة: حفظ البسملة والصمديّة والمعوّذتين. التفت أيمن إلى أخيه وقال بهدوء: عفارم، عفارم. وهمّ بالنهوض مرّة ثانية، تلهّفت الأمّ: يا ابني، خلّيك، صار لك غائب شهرين. قال: أستحمّ، أذهب في مشوار قصير وأرجع حالاً، أرسل أصحابي أغراضًا لأهلهم في حماة وعليّ توصيلها. أصاب سعاد الفضول: أيّ أغراض؟ نظر أيمن إلى أمّه ناهيًا: أغراض في حقيبة، لم أفتحها.

وما إن دخل أيمن إلى الحمّام وأغلق الباب، حتى تسلّلت سعاد إلى الحقيبة وفتحتها، وما إن فتحتها، حتى أغلقتها، ورجعت ممتعضة بشدّة.

أنهى أيمن حمّامه وارتدى ثيابه وهو يصفّر لحنًا لوديع

الصافي، عبق البيت برائحة عطره بعد الحلاقة، كانت السعادة تبدو عليه.

لم تطل غيبته، أوصل الحقيبة لأهلها ورجع سريعًا، ضاحكًا ومبتهجًا. طلب إلى أمّه أن تعدّ في الصباح «عفيسة». قال إنّ قطع الخبز الساخن المغمّسة بالزبدة والسكّر، هي من أحلى طعوم حياته، كانت تناوله إيّاها صغيرًا ويأكلها وهو ماض إلى المدرسة..

سعادته انعكست على أهل البيت، ينتظرون قدومه وقدوم البشر معه. راح ينظر إلى أخواته بكثير من المرح، يمازح هذه ويشاكس تلك، قام بتسجيل صوت ربيع يتلو القرآن كما طلبت أمّه، أسمعها التسجيل، فكادت أن تطير من الفرح، تبدّد امتعاضها ممّا رأت نهارًا في الحقيبة.

انسحبت فداء بعد قليل، وسمر في ذيلها، ثم البنات الثلاث بشرى وغادة ولينا، وبقي أيمن ينظر في وجه أمّه ويبتسم، بادرته أمّه: قل ما عندك؟ منذ وصولك من السفر، وأنا أرى في فمك كلامًا. ثم سهّلت المهمّة عليه وقالت للأب: متى سنخطب لأيمن؟ فوجئ فؤاد: خطبة؟ ابتسم أيمن ولم يبدُ عليه أنّه رافض للفكرة، فقال الأب: منيح. ثم انسحب من الغرفة آخذًا كتابه معه. تاركًا أيمن مع أمّه كي لا يربكه. سألته الأمّ بفضول: من هم أصحاب الحقيبة؟ ضحك أيمن وقال: هل تريدين أن تخطبي لابنك؟ أجابته برجاء: إي.

ـ أخت صاحبي، تدرس الصيدلة في دمشق. وأجدها تناسبنا.

فوجئت الأمّ: تدرس الصيدلة! يعني فوق العشرين، يه، إي كبيرة عليك..

أجابها بانفعال: أصغر منّي، منيحة ومن عيلة منيحة.

ـ أعرفها وأعرف عيلتها، منيحين وبيت دين، لكن كبيرة عليك، أخطب لك صغيرة وشقراء.

أعاد قوله مصرًّا: منيحة، منيحة.

تذكّرت سعاد الحقيبة فجأة وسألت بضيق: هل هي صاحبة الحقيبة؟

ضحك أيمن من صدق حدسها، وقال كعاشق: نعم.

اصفرّ وجه الأمّ، وقالت بحسم: بحضّي، لا أخطبها أبدًا.

فوجئ أيمن: لماذا؟

أعادت: أخطب صغيرة وشقراء.

ترك أيمن غرفة الجلوس ومضى إلى غرفته خاضعًا، ومتضايقًا. كان من المخجل للابن أن يُبدي تمسّكًا بفتاة أمام الأمّ، أو أمام أحد من أفراد أسرته أو حتى أمام نفسه.

رجعت فداء بعد أن نامت أخواتها. كانت تريد أخذ الراديو إلى سريرها، عادتها قبل النوم، فوجدت أمّها جالسة شاردة وحزينة، ربيع نائم، أخذته فداء إلى سريره ورجعت إلى أمّها، سألت بهدوء: يريد أيمن أخت صديقه، البنت تدرس الصيدلة وبيضاء الوجه بشعر أسود وطويلة القامة وعائلتها أناس نعرفهم، متديّنة وتناسب أخي، فلم رفضتها؟

ـ البنت كبيرة على أيمن.

ـ لكنّه يريدها، فلِمَ لا؟

ـ بسبب الحقيبة. قالت الأمّ ممتعضة.

ـ ماذا وجدت في الحقيبة؟

ظنّت فداء أنّ أمّها عثرت على منشورات.

همست الأمّ بخطورة:

ـ البنت أرسلت مع أخيك غسيلها.

ـ كان عليك ألّا تفتحي الحقيبة، إذا اكتشفوا أنّ أحدًا عبث بالحقيبة، سيظنّون أنّ أيمن هو من فعل ذلك.

سقط الغمّ على الأمّ وأدركت هول ما فعلت، تسبّبت لابنها بتهمة، قلّة الأمانة، سارعت وبرّرت:

ـ لكنّي كشفت البنت حين فتحت الحقيبة، هل يوجد بنت خلق ترسل مع صاحب أخيها كلاسين دم الميعاد؟

لم يعد أيمن إلى موضوع الخطبة بعد أن عرف مبرّر أمّه، سافر إلى دمشق في اليوم الثاني.

* * *

كانت فداء تُدير مفتاحها في القفل، حين أطلّت الجارة، وأخبرتها أنّ أخاها أيمن اتّصل ويريد أن يلتقيها بأسرع وقت في حماة.

توجّست: ربّما يغتابني بعض الشباب الحمويّين. تذكّرت أنّ أحدهم تقرّب منها ولم يفلح، أصابته الغيرة، وبدأ يسبّب لها ضيقًا. وقد حدث نقاش حادّ بينها وبينه، حين نشرت في جريدة الحائط مقالاً عن المرأة والدين، قال الشابّ بحدّة: عليك أن تُراعي منبتك ولا تتشاوفي بهذه الحرّيّة لأنّها مزيّفة. كان في جداله معها عصبيّة، استفزّتها في حينها. يلاحقها بنظراته، ويحاول اغتنام أيّ فرصة لكي يتحدّث معها، السؤال عن محاضرة أو دكتور أو زميل..

كان طارق مسيطرًا تمامًا على القلب. وكانت تحاول تفسير قلق أبيها المفاجئ وتوقّفه عند طائفة الشابّ، شيعي.

نزلت إلى حماة وهي مصمّمة أن تحافظ على جوّ مرح مع الجميع.

توقّفت التاكسي ونزلت فداء غير مكترثة لغطاء الرأس الذي انزاح. هرعت غادة وفتحت الباب، وقالت: كتبت لك ثلاث رسائل. ضحكت فداء: لم يصلني منك شيء. أجابتها: لم أرسلها، موجودة في دفتري، هل تقرئينها؟ ضحكت فداء، نعم أحضري الدفتر.

كان وجه أيمن جادًّا وممتعضًا، يبدو عليه الغضب. جلست وراحت تناقش غادة ببعض دروسها، وتنتظر أن يفتحوا الموضوع الذي أرسلوا لها من أجله.

ـ مقالات عن تحرّر المرأة؟ وأنّك شخصيًّا ضدّ تعدّد الزوجات؟ يتساءل الناس إن كانت أختي ضدّ الإسلام.

ـ ليس هكذا تمامًا، أجابت بثبات.

تمنّى فؤاد لو أقرأته المقال، امتلأ بالفضول، أحقًّا ابنته التي ما زالت طالبة تستطيع كتابة مقالات فكريّة ويصل الصيت لجامعة دمشق؟

سألت سمر مدافعة عن أختها:

ـ كيف عرفتم؟

لم يعجب فداء سؤال سمر، وقالت: الجميع يعرف وقد أثار جدالاً بالجامعة، يقولون إنّي من تلميذات نوال السعداوي. امتعض فؤاد عند ذكر اسم نوال السعداوي، قرأ كلّ كتبها، إلّا أنّه لم يحبّذ كتابات هذه المرأة، يراها شديدة الجرأة والاستفزاز. كان يشعر حين يقرؤها أنّها، في كلّ سطر، تقصده هو وتشتمه هو شخصيًّا.

تهكّمت فداء:

ـ أخبره زميل لنا، اسمه سليم، أليس كذلك؟

عرفت فداء أنّ هذا الشابّ هو من ينقل الأخبار لأخيها، وعرفت بأنّ أخاها لم يُستفزّ إلّا من مقالها الذي أحسّ به معاداة واضحة لنهج جماعته، جماعته التي استنفرت، وطالبته بأنّ على أخته ألّا تأخذ هذا الطريق المعادي لهم، وإلّا فإنّها ستُحسب على جماعة الشيوعيّين.

كان أكثر ما يستفزّها إطلاق أخيها لكلمة الشيوعيّة أمامها، كأنّها تهمة ضدّها.

كان غضب أخيها واضحًا، ورغم أنّ أباها لم يطلب منها مباشرة أن تتروّى قبل أن تنشر المقال، فقد أحسّت أنّه يفضّل أن تتناول الأمور باعتدال، وأنّ عليها أن تقرئ أسرتها أوّلاً. وعدت: سوف أقرأ عليك المقال القادم قبل أن أنشره.

لم يرحّب فؤاد، قال لها: أظنّ أنّ الطبّ يحتاج الكثير من الدراسة، أليس كذلك؟

لم تصمد فداء كثيرًا أمام اللوم الشديد الذي انهال عليها من أخيها ومن كثيرين من طلّاب الجامعة. ولم تلق الترحيب من أبيها، حين سألت بشكل مباشر، ألا ترون معي أنّ تعدّد الزوجات فيه ظلم للمرأة؟ أجابها أبوها: ولكن ما الفائدة من طرح مشكلة ليست واقعًا نعيشه؟ أخبريني من هو ممّن حولنا لديه أكثر من زوجة؟ فكّرت فداء: لا يوجد على الإطلاق. لا تعرف أحدًا من الأقارب

أو الجيران من لديه زوجتان. جرى نقاش طويل بينهما، ولكنّها أدركت أنّه لا معنى لمحاربة الثوابت الموجودة في العقول، أو في الكتب، إن لم تكن واقعًا يوميًّا يعايشه الناس ويعانون منه. نصحها أبوها ألّا تعاند ولا تناقش في الدين ولا في الأيديولوجيّات التي يؤمن بها الآخرون، وأن تهتمّ كما كانا اتّفقا عليه، بأمور الطفل وهموم الأمّهات والمشاكل اليوميّة، وهذا سيكون حين تنهي دراستها في الطبّ وتفتتح عيادتها.

لم تعد فداء لنشر المقالات، أو لم تعد لكتابة المقالات. لم تخبر أحدًا عن سبب عزوفها السريع، رغم عنادها، خصوصًا حين يأتي التنبيه من أخيها وجماعته. ربّما كان السبب موادّ الطبّ الكثيفة، أو إحساسها بأنّ شأن المرأة والدين شأن معقّد ومن الصعب إبداء رأي نهائي وواضح فيه، أو ربّما شعورها الخاصّ تجاه طارق.

انغمست فداء بالدراسة من جهة وبحبّها الصامت من جهة ثانية.

تجلس مساء مع صديقتها، تشربان القهوة وتثرثران بما حدث في النهار، تُعيد أمّ كلثوم مقطع غنائها مرّات ومرّات، عطر إيه! العبير يلي بشفايفه للحنان يلي في إيديه.. وفداء تُعيد مشهد حبّها مرّات ومرّات: فُتل خاتمي اليوم وصار حجره في باطن كفّي، وبدا كأنّه خاتم خطبة، راح طارق يحدّق في كفّي، بدا عليه القلق. ثم تُضيف عابثة: جعلته يعتقد أنّي خُطبت، ثم في آخر المحاضرة عدلت الخاتم فأحسست أنّه اطمأن. مشهد حبّ تتخيّله أو ترسمه

بأمنياتها وأحلامها ولم يتجاوز مرّة القلوب ولا الرؤوس.

كانت رفيقتها أكثر جرأة، عاشت علاقتها طولاً وعرضًا، وكانت تنتقي حتى الثياب الداخليّة للقاء حبيبها، تتضاحك من قصور الحبّ التي تبنيها رفيقتها في خيالها، وتنصحها «أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب» بأنّ ممارسة الحبّ بالجسد يجعل فهم موادّ الجامعة أسرع وبأنّه يمكنها فعل ذلك من دون أن تتأثّر عذريّتها.. كانت فداء تحذّرها: وإذا لم تنته العلاقة بالزواج؟ كانت رفيقتها تكتفي بإشارة في الهواء، دليل، لا أهمّيّة، فتهزّ فداء رأسها إشارة عدم القبول.



مضت السنوات الأولى في كلّيّة الطبّ، تزداد فداء تألّقًا وثقة، وأبوها يزيد في تشجيعه لها. وتمعن أمّها في تديّنها، منصرفة تمامًا عن أسرتها. تكثّفت دروس الدين في البيت ممّا زاد الشرخ بين البنت التي تدرس في حلب بدون غطاء للرأس وبين أمّها. خاطت أمّها الجلباب الأسود الطويل، وارتدته تجرّبه، فخورة راحت تتمشّى أمام فؤاد: يسترني؟ نظر إليها غير راض عن كتامة قماش الجلباب، لونًا ونوعًا، ثم همّ أن يمضي من أمامها، ألحّت: منيح؟ قال: ألا توجد ألوان أخرى وأقمشة أخرى؟ تركته حين أدركت أنّه لن يثني على تديّنها. فتحت الباب وخرجت تطرق باب أمّ صالح لتأخذ جرعتها من المديح والتشجيع وتصغي للموعظة التالية، كي تنفّذها بكلّ طاقتها على الإخلاص.

لم يعط فؤاد كبير اهتمام لتحوّلات زوجته، كان مشغول البال بابنه أيمن الذي يكثر من سفراته وغيباته وغموض تحرّكاته. تحرّكات أجهزة المخابرات صارت كثيفة، اعتقالات وتحقيقات، مراقبة دقيقة وهيمنة أربكته وأربكت أهل الحارة. كانت تلك

الأجهزة في السابق بعيدة عن العين وعن البال، أمّا الآن فقد انتشرت في كلّ المناطق.

استأجر فرع الأمن السياسي بناءً في منطقتهم التي تُدعى «البيّاض»، ونشر عناصره عند كلّ مداخل المنطقة وزواياها، كان وقوفهم عند رؤوس الحارات، ليلاً ونهارًا، وقوفًا مكروهًا ومرفوضًا، أثار الامتعاض والغضب، بل إنّ بعض سكّان المنطقة عرضوا بيوتهم للبيع، وتهاوت أسعار البيوت، وهناك من منع بناته من الذهاب إلى المدرسة كي لا تنظر إليهنّ وجوه عناصر المخابرات صباحًا وبعد الظهر.

استلقى فؤاد وقت القيلولة يفكّر بالمستقبل الذي ينتظر أولاده، ما يؤلمه أنّه ما إن بدأ أولاده يكبرون أمام عينيه، حتى اشتعلت تلك القلاقل. يفكّر بحاله وحال أسرته وذكريات طفولته المحرومة من الأب مع أمّ وحيدة صارمة ومتشدّدة. لا يتذكّر أيّامًا يمكن أن تُسمّى طفولة لأنّه لم يلعب كبقيّة الأولاد. كلّ ذكرياته تستدعي الدكاكين التي ذهب إليها لتعلّم الصنعة، المعلّم وخدمته والعودة إلى بيت أمّه ليعطيها ما قبض من أجر زهيد، فيذهب أخوه إلى المدرسة بالجورب الجيّد والبنطال الجيّد، ويأخذ لنفسه الجورب الممزّق والبنطال القديم، وحين يحتجّ، تقول أمّه: أنت ذاهب إلى الشغل، عيب تلبس على الموضة، أمّا أخوك، رفاقه بالمدرسة كلّهم يلبسون على الموضة.

يتساءل: ولماذا لا أذهب أنا إلى المدرسة؟

تجيبه: نصيبك يا ابني!

يهرب من أمامها كي لا ترى دموعه. تخلّى العمّ عنه وعن أخيه، بل يقال إنّهم حُرموا من حقّ أبيهم في الميراث لأنّه توفّي قبل جدّهم، وكانوا يسمّون «مأرودين». قصّة الميراث غير واضحة لأحد، يكره فؤاد أيّ سيرة تمسّ بأسرته وأقاربه، كان مخلصًا للجميع بمن فيهم عمّه الذي لم يعتن بهم. كانت أملاك عمّه تتضمّن مبنًى واسعًا في ساحة العاصي، عدا الدكاكين والبيوت وأراض زراعيّة متفرّقة، اشتراها حسبما تيسّر له، وتركها من بعده لثلاث بنات، لم يتزوّجن، رغم جمالهنّ. يقال إنّ السبب أمّهنّ التي تكبّرت كثيرًا، وكانت تنظر لأمّ العريس التي تزورهم بأنّها طامعة. وتردّد أنّ الحال ليس كما كان سابقًا، أيّام ما كان أبوها مالك الأطيان، الشجاع الذي لُقّبت العائلة كلّها بلقبه: بيت الضبع لأنّه قتل الضبع وعلّقه على باب بيتهم الحجري الكبير. تسكن النساء الثلاث بيتًا واسعًا ذا هيئة غامضة، هيبة خاصّة، يشعرها الناظر أو العابر. ورغم أنّ المخابرات شغلت مبنًى بجوارهنّ، إلّا أنّهنّ رفضن بكلّ قوّة أن يبعن البيت، قالت الكبيرة: فليأت رئيس المخابرات ويسكن بجوارنا، لا نترك بيتنا.

تعلّمت البنات الثلاث في دار المعلّمات، في وقت لم تكن النساء يكملن التعليم، واشتغلن معلّمات لفترة قصيرة ثم لم ترض الأمّ عن العمل، فجلسن بجوارها. يتمتّعن بصيت الأناقة، يعتنين بالهندام، بالجوارب النايلونيّة وأظافر اليدين والقدمين. يقال إنّ إحداهنّ تبدأ منذ الصباح بترتيب هندامها ومظهرها، ولا تنتهي من ذلك إلّا وقت النوم حيث تغيّر الشرشف وغطاء الوسادة ومناشف المغسلة والحمّام، فإن أرادت نشر الغسيل في الصيف، تضع طاقيّة

من القشّ كي لا تؤثّر شمس الصيف على بشرة الوجه، والكفوف في اليدين كي لا تؤثّر الشمس أيضًا على الجلد. ورغم أنّ معظم نساء الحارة ارتدين الجلباب الطويل كما فعلت سعاد، فإنّ النساء الثلاث رفضن بشدّة، وظلّ المعطف الذي لا يغطّي ربلة الساق لباسهنّ المفضّل، المعطف الفاتح صيفًا، والمعطف الجوخ الغامق شتاء، مع تنويع الجزدان والحذاء حسب لون المعطف وما تحته. يتذمّرن ممّن لا تهتمّ بنظافة الرصيف أمام بيتها، يعتنين بأكياس الزبالة وأمر ربطها جيّدًا، في وقت كان الناس يرمون الزبالة من سطلها في الحاوية، وفي أحسن الحالات يستخدمون أكياسًا مهترئة تنقط بقايا الطعام من زواياها على طول الطريق. تستأجر النساء الثلاث من يغسل ويفرك واجهة البيت مرّتين في العام، ويحرصن على تبييض حجر الباب بأنفسهنّ، عند الفجر أو وقت نوم الناس عصرًا.

تقول سعاد عنهنّ عوانس، ممّا يغضب فؤاد، يقول بنات عمّي، فتنقهر سعاد أكثر، وتشكّك بطريقة ما بأنّهنّ يخطّطن ليتزوّج بإحداهنّ.

لم يكترث فؤاد كثيرًا بكلامها ولم يهتمّ أيضًا بتحوّلاتها ولا بجلبابها، فمنذ انصرافها إلى الدين، لم يعد يراها امرأته التي يعرفها، تغيّرها بدأ منذ أن ولدت ربيع وانغمست بآخر العنقود، وتفاقم الحال حين تعرّفت على أمّ صالح وصار همّها أن ترضيها أوّلاً وأخيرًا.

يذكر يوم أتته عروسًا، وكان جهازها أكثره من اللون السماوي، كانت بلون وجهها الأملح وشعرها الأشقر، ولون عينيها

الأخضر، كنسمة ربيع، أحسّ بها، مستسلمة على الأغلب وبسيطة، يشعر بحنانها حتى العظم، تفكّر بإخوتها وتخبّئ لهم الحلوى التي يحضرها أحيانًا من دون علم أمّه، يحضر لها الحلوى لتخبّئها في غرفتها، كان للعروسين بعد أن تنام أمّ فؤاد، مائدة خاصّة في المساء.

كانت سعاد الصبيّة المطيعة تخجل، تقول، حين تتذكّر تلك الأيّام، إنّها كانت تستحي أن تأكل حتى يمتلئ بطنها، ظلّت على خجلها، حتى ولدت أيمن، ولكن، كان يحلو للولد البكاء حين يعدّون مائدة الطعام، تنشغل به، وترجع لتجد الطعام في نهاياته، أو باردًا، فتأكل ما تيسّر، خبزًا وزيتًا مع زعتر أو «معقود» المشمش مع الجبنة.

تفهّمت أحوال زوجها، وعلى قدومها يُقال جاءه الخير، انطلق محلّه البسيط مع شريكه، واستطاعا شراء الدكّان الصغير الملاصق، وبالتدريج ومع تدابير سعاد استطاع أن يثبت وجوده في سوق الطويل، معارف عديدون والثقة متبادلة بينهم، يوفّر ما يتيسّر من أجل أن يبدأ مشروعه في البناء والعمارة، حلمه منذ الصغر.

حين أتى يخبر أمّه وسعاد أنّه اشترى قطعة أرض نائية معروضة بسعر رخيص، شهقت أمّه، ظنّت أنّه ينوي الانتقال مع أسرته، لكنّه طمأنها أنّه سيعمّرها ويبيعها شققًا.

كانت سعاد تقنع البنات بأنّه يكفي لكلّ منهنّ حذاء واحد كلّ عام، وأنّ على الكبيرة التنازل للّتي تليها، عن الثياب والحقيبة والكتب. . وأنّ على الصغيرة قبول الأشياء التي استعملتها أختها،

لأنّهنّ أخوات، تقول. وكانت تقتصد بكلّ شيء حتى استطاع فؤاد أن ينهض بالبناء طابقًا، وبدعوات أمّه ولهفتها عليه، باع الطابق الأوّل بسعر أبهجهم، واستطاع الرجل تكملة الثاني. وكانت سعاد تسهر ليلة العيد لتتمّم خياطة ثياب البنات من بعض فضلات القماش التي تتبقّى في الدكان.

يعترف فؤاد لها بأنّه لولا تدابيرها ما استطاع أن يفعل شيئًا.

لم تشبه الحلم الذي حلم، زوجة ذكيّة وقويّة وقادرة وتغلبه. كانت قوّتها انفجارات في غير وقتها، وما فتئ ينبّهها ويعلّمها، لكنّه، ومع نزقها هذا، كان يحسّ بها رقيقة وشهيّة، حين ينظر إلى صورهما عروسين في بيروت واسطنبول، أنثى تتشبّث بذراعه، معطفها سماويّ اللون يكشف عن الكوعين والركبتين، موضة تلك الأيّام وحذاؤها الأبيض الفضّي جلد الحيّة، وجزدانها من الحيّة نفسها، لا يصدّق فؤاد الآن أنّها صاحبة هذا الجلباب الثقيل والمنديل الأسود السميك، وبدون حقيبة نسائيّة، يسأل صامتًا: «لكن لِمَ لم أقاوم هذا التغيير؟ ولِمَ لم أحاول أن أُعيدها إلى ما كانت عليه». كانا يذهبان كلّ عام رحلتين، رحلة بمفردهما، ورحلة مع الأولاد. ينقلان غرفة نومهما دائمًا إلى الطابق الآخر، بعيدًا عن الأولاد، فحين تنتقل الأسرة إلى الطابق السفلي صيفًا، يجعلان غرفة نومهما في الطابق العلوي، وحين ينتقل البيت إلى الطابق العلوي شتاء، فإنّ ليل سعاد وفؤاد في الطابق الأرضي. يحرص فؤاد على غرفة نومهما، أثاثًا وترتيبًا وبرائحة عطريّة خاصّة. كانت سعاد تتشهّى، ولم تكن تخجل من شهوتها، كان ما يعجبه أنّها،

رغم خجلها، تجد طريقتها في التعبير عن رغبتها بالحبّ، باللعب والتسلية، ينظر إلى تناسق ساقيها ويحبّها، وكانت تفضّل من الثياب التنّورة الضيّقة التي تظهر المفاتن التي تبهج زوجها، تحبّ أن ترى لهفته عليها.

ابتسم فؤاد وهو يستدعي كلّ هذه الأوقات، ويأسف لحالهم الآن. يشعر اليوم بأنّه لولا أمله بابنته الكبيرة فإنّه غير راض عن كلّ ما يجري حوله.

فكّر بابنه أيمن وانصرافه إلى عوالم جماعة الإخوان المسلمين وبرامجهم ومخطّطاتهم، منقبضًا ممّا هو قادم على البلد. بدأت جماعة الإخوان المسلمين حركاتها المسلّحة.

«لن يسكت عنها النظام الحاكم، ولن يسمح لأحد ولا لشيء سحب السلطة منه، أناس حرموا سنين طويلة، أُذلّوا سنين طويلة، وجاعوا سنين طويلة، لا بدّ أن يتشبّثوا بتلك المكاسب. لكنّ العلّة في النظام وأعوانه، لا يشبعون، البلد بحالها، مالها وثرواتها، سورية بحالها استولى الحكم على كلّ المفاصل بقبضة حديديّة».

حين يفكّر فؤاد بهذه الأوضاع يشعر بالتشاؤم، أحلامه وأحلام الشباب بعد خروج الفرنسيّين وحماسهم ببلد حرّ، حواراته مع صديقه وقريب سعاد طبيب الأسنان، نقاشاتهم وتطلّعاتهم إلى سوريا العلم والثقافة والحرّيّة والتطوّر، حلمهم بتربية جيل كريم وحرّ. كلّه تلاشى. ضاقت سوريا عليهم، عليه وعلى جيله الذي حلم طويلاً، ويشعر بأنّها اتّسعت لهؤلاء الذين تسلّموا الكراسي وتشبّثوا بها بكلّ ما يستطيعون من جبروت، واتّسعت لجماعة

الإخوان التي تنشر فكر السلاح والتكفير بين الناس، أمّا هو وجيله فإنّهم يتلاشون كلّ يوم مع أمانيهم وأحلامهم.

يكتفي بمراقبة ما يُحيط به بلا إبداء لرأي أو مشورة، الأمّ في عوالمها وجنّة ربّها وناره، وأيمن في تحرّكاته التي صارت مبهمة ولا يستطيع وقفها، يعيّره ابنه بأنّه وجماعته الحالمين المسالمين أضاعوا فلسطين، بل خسروا سوريا أيضًا، يسكت فؤاد، لا جواب لديه، وإن قال شيئًا، يقول: لم نتوقّع حدوث هذا!

أُغلقت الروضة منذ سنين، وتلاشت جمعيّة حماية الطفولة، وفداء، أمل أبيها وحلمه، انشغلت في دراستها وانسحبت بالتدريج من البيت، وبقيّة البنات إلى تفاصيلهنّ الصغيرة.

انصرف مخلص إلى مشروبه وكتابة كتابه السرّي، تابع دراسته في الجامعة، فلسفة وعلم نفس، وأوشك أن ينهي خدمة الجيش، أوغل في ابتعاده عن أسرته وتجنّب اللقاء بهم، لا يجلس معهم على مائدة واحدة، حتى في أيّام العطل والإجازات. يتأخّر في الاستيقاظ إلى أن يفوّت موعد الفطور، ويتعمّد أن يتناول فطوره متأخّرًا كي يجد حجّة يبرّر فيها غيابه عن مائدة الغداء. وفي المساء، موعد عشاء البيت، يكون مع أصحابه في الخارج. اعتادوا على سلوك مخلص، ولم يحاول أحد كسر عاداته أو تحليلها، يتردّد بينهم أنّه فاشل، يشرب ويدخّن، غير مجتهد، اتّجه إلى الفلسفة وعلم النفس ولم يدرس الطبّ أو الهندسة مثل أخيه وأخته. ورغم أنّه يعرف تمامًا رأي الأسرة به، فإنّه لم يبادرهم بعدائيّة، يحسّ بأمّه حين تتعب أو تمرض، يركض ليحضر الطبيب

ويشتري الدواء. ورغم تشدّده بأمر السترة إلّا أنّه يعامل أخواته بحنان إن احتاجت إحداهنّ شيئًا، يهتمّ بأخيه ربيع ويحذّره، يخشى عليه من الخارج الذي يقول عنه: لا يرحم.

جاء أيمن باشًّا، كانت المرّة الأولى التي يلتقي أهله بطبيعيّة، بعد أن رفضت أمّه العروس المقترحة، راح يمازحها كعادته، جلس بجانبها، سألها مداعبًا، عن آخر فتاوى أمّ صالح، وحين لم تستجب لمشاكساته، ضحك واستمرّ في استفزازها، استنفرت أمّه وراحت تعيد آخر فتوى سمعتها من أمّ صالح، كانت عن المرأة التي تنتف حواجبها: الناصّة و..

استدار أيمن ناحية أبيه مداعبًا: هل كنت على علم بهذه الفتوى؟

أدركت أمّه سخريّتهم، فقالت كعادتها مستسلمة:

ـ الحمد لله على الدين والإيمان.

أبلغهم تخرّجه من الجامعة مهندسًا. احمرّ وجه أمّه فخرًا وفرحًا، وبارك له أبوه وأخواته وأعدّوا عشاء دسمًا وخاصًّا بالمناسبة، وسهروا على صوت عبد الوهاب، ياوابور قل لي رايح على فين، أغنية فؤاد المفضّلة.

خلال فترة قصيرة، استلم أيمن الشؤون الفنّيّة في بلديّة حماة، وانغمست العيلة كلّها بأخبار مشاريع بلديّة حماة. لم يمض على العمل ثلاثة أشهر جتى بدأ الاصطدام بالمسؤولين. رؤساء الأقسام من جهة، ونقابة العمّال والبعثيّون من جهة أخرى. كان يتحدّث لأبيه

قانطًا من جوّ العمل، كان القائمون بالأعمال آمنين متعاونين على تيسير منافع بعضهم بعضًا، رشاوى وسرقات ومحسوبيّات، شبكة مستقرّة، متّفقين على تسيير العمل بما فيه مصلحة كلّ منهم. جاء أيمن وبدأ ينكش هنا وهناك، يوقف مزايدة، يعطّل صفقة، يمتنع عن التوقيع. تحوّل نهار الأسرة كلّه حكاياتٍ عن مشاريع بلديّة حماة وفساد المسؤولين، عن إمكانيّات أيمن بالتصدّي لهم وصراعه اليومي معهم، في كلّ يوم قصّة جديدة وحادثة جديدة. في إحدى المرّات، وكان الوقت قيلولة صيف، رنّ جرس الباب الرئيسي، فتحت غادة، ووجدت أمامها علبة كرتونيّة كبيرة، وسيّارة تنتظر، قال لها صاحب السيّارة المتأنّق وهو يدفع العلبة: هذه للمهندس أيمن، وقبل أن تنبس بكلمة، أدار سيّارته ومضى، نادت غادة أمّها، نادت سعاد على أيمن، وخلال دقيقة واحدة علا صراخ أيمن:

ـ كيف تستلمون شيئًا لا تعرفون محتواه؟

ردّت الأمّ ببساطة:

ـ محتواه ماكينة كبّة فخمة.

ـ لا تلمسيها، صاح أيمن بصوت هادر، هذه رشوة..

في اليوم الثاني، أحضر سيّارة أجرة، وحمل العلبة ووضعها في ساحة البلديّة مكتوب عليها: الرشوة التي حاول المقاول تقديمها للمهندس المسؤول عن المشروع.

لكن ومع مقاومته وعناده، استطاع المقاول القبض على المزايدة بطرق أخرى..

في إحدى السهرات، دخل أيمن متباطئًا، نظر في وجه أمّه وقال مشفقًا:

ـ سأسافر إلى السعوديّة.

سكتوا جميعًا، تلفّتت الأمّ حولها، ثم أمسكت بيد ربيع، وبدل أن تلوم أيمن على قراره، راحت تردّد: يه، يه.. وسكتت لبرهة، ثم قالت:

ـ إذا بدّك الصيدلانيّة نخطبها لك، لا تسافر.

ـ يا أمّي أنا لم أعشقها..

شهقت ونظرت في وجه الأب، من غير المستحبّ قول كلام كهذا أمام البنات.

قال أيمن: تختارين لي من شئت عروسًا وتأتين معها إلى السعوديّة.

بات مكوثه في البلد خطرًا، تعتقل المخابرات كلّ من تشتبه به، ويظنّ فؤاد أنّ مشاغبات ابنه في البلديّة هي من جعلت أحد المتأذّين يشي به.

تدبّر أيمن ڤيزا عمل مسّاح في جدّة، بمساعدة قريبهم الذي يُقيم هناك ولديه الجنسيّة السعوديّة وعلاقاته نافذة.

ترك أيمن كلّ شيء وغادر سوريا، ولم يعد منذ ذلك الحين، ولم ير بلده منذ ذلك الحين.

* * *

حقّق أيمن الكثير ممّا خطّط له، اشتغل في مجالات عديدة، وبدون تردّد، بتواضع غريب عنه. يتّصل بأبيه ويقول: راض عن العمل ومحيطه، رغم أنّني لا أُعامل كمهندس، ورغم أنّ راتبي ومكافآتي أقلّ من نظيري السعودي، إلّا أنّ جوّ العمل غير ملوّث بالمكائد والرشاوى كما كان في وظائف سوريا.

كانت أحوال حارات حماة من قلق إلى رعب إلى تهديد. أمر سفر الشباب إلى السعوديّة أو الإمارات أصبح ظرفًا مفروضًا على كلّ بيت، كأنّ السعوديّة والإمارات هي المآل والهدف والبلد، صارت وطنًا بديلاً عن مدينتهم الصغيرة المحتقنة. أصبح للمدينة فصول خاصّة على مرّ العام، فصول مبهجة بقدوم الغائبين وفصول كئيبة بسفر الغائبين. فصول العائدين تعني، بعرف الجميع، حقائب سفر سمينة، هدايا وثيابًا ومالاً، رائحة السعوديّة تنتشر بين الأُسر والأقارب، رائحة أشياء جديدة ورائحة هال طازج، رائحة تعني البهجة. قدوم الغائبين يعني سهرًا في الليل الصيفي، كلامًا وثرثرات، دعوات ولقاءات.. والقادمون على الأغلب من النساء

والأولاد، بينما يبقى الرجال هناك في السعوديّة ومدنها الحارّة، لا يأتي الرجل لأنّه لا يأمن إن زار بلده أن يُعتقل أو يُمنع من السفر، زيجات عديدة تمّت بدون أن تلتقي العروس عريسها إلّا زوجة في السعوديّة، يُقال، زواج على الصورة. تأخذ أمّ العريس صورة ابنها، لأهل العروس، تنظر العروس وتوافق أو لا توافق. فإن وافقت، يتمّ عقد الزواج، من دون أن يلتقي الشابّ عروسه، ولأنّ شبابًا كثيرين ابتُلوا بعدم العودة، فإنّ معظم العائلات تتعاطف مع الحال وتوافق على الزواج من دون شروط أو إرباكات: غطّيها وخدّيها[1]. أمّا الأسر الأكثر حذرًا، فقد درجت عادة أن يلتقي الشابّ الخطيبة مع أهلها في تركيا. تسافر العروس مع أهلها للقاء عريسها والتعرّف عليه قبل الزواج.

كلّ هذه الأخبار والأحداث تقع في الصيف المبهج والمزدحم بالقادمين وتندر لتتلاشى تمامًا في الشتاء.

حصل أيمن على عمل في شركة كبيرة، مهندسًا، استأجر ڤيلّا صغيرة واشترى سيّارة.

أخبر أمّه بأنّها يمكن أن تتباهى بابنها، ملمّحًا بأنّ عليها أن تهمّ لتحضر له العروس.

ما إن أعلنت سعاد أنّها ستخطب لأيمن، حتى انهالت عليها أمّهات كثيرات لصبايا يحلمن بالزواج من مهندس شابّ ويعمل في السعوديّة. كانت صيفيّة هانئة لسعاد. كلّ عصر تتّصل بها إحدى

---

(١) وضع الحجاب على رأس البنت وإرسالها إلى عريسها.

الأمّهات وتأتي بصحبة ابنتها، تشرب شراب التوت أو البرتقال ثم القهوة والشوكولا وتذكر محاسن ابنتها ومواهبها في النظافة والترتيب وغيره، وتخرج حالمة بأنّ ابنتها ستكون العروس المختارة. ربّما كانت أمّ بشير هي المرأة الوحيدة التي لم تأت ببناتها، أمّ بشير ابنة الحسب والنسب، الشقراء بيضاء الوجه، الواثقة، فريدة التي نالت شهادة التاسع حين لم تكن البنات يذهبن إلى المدرسة، والتي تزوّجت من موظّف في المحافظة في الخمسينيّات، سرعان ما ترقّى وعلا شأنه حتى صار نائبًا للمحافظ. وعاشت في هناء سنين طويلة، إلى أن تغيّرت الحكومة في السبعينيّات، تراجعت أحوالها وأحوال أسرتها، انتزع منصب زوجها منه وهبطت مكانته في المحافظة، وبالتدريج صار الرجل في بيته، تضطهده أمّ بشير ليل نهار، وتتذمّر من وجوده وتتأفّف من الأوضاع.. ولكن ورغم تراجع مكانة زوجها لم تنكسر أمّ بشير، استطاعت أن تحافظ على رأسها مرفوعًا، تنتقد بصوت عال وبجرأة وحذر حال البلد، تحسدها النسوة على براعتها في الانتقاد، تلك البراعة التي يفتقدنها، فهنّ إمّا خائفات من التحدّث بالسياسة أو مندفعات متهوّرات. كانت لا تهتمّ لرأي أحد، أو على حدّ قولهنّ، لا يملأ عينها أحد. لديها ستّ بنات وشابّان، البنات الستّ نسخة عن الأمّ، شقراوات بيضاوات البشرة، صرن مطمح الأمّهات، لأن يحظين بإحداهنّ كنّة، يناسبن أمّ بشير ذات الصيت. هجمت النساء لخطبة بناتها لأبنائهنّ. زوّجت أم بشير ثلاث بنات، بعد أن رفضت الكثيرين، وتبقّى لديها ثلاث، كانت سها رفيقة بشرى بالمدرسة، هي المقترحة عروسًا لأيمن.

صمّمت سعاد على خطبة سها ابنة الخامسة عشرة لأيمن، صمّمت رغم غيرتها التاريخيّة من أمّ بشير، ورغم شروط هذه الأخيرة وتشاوفها وزفراتها.

قالت فداء رأيها بشكل واضح أمام أبيها، البنت صغيرة وأمّها متكبّرة، وأخشى أنّهم لا يناسبوننا. أسكتت الأمّ ابنتها ودافعت عن اختيارها بأنّ مخوَل[1] البنت أوادم، والمخوَل هو الأهمّ في خطبة البنت والشابّ. كانت فداء تتضايق من تشاوف أمّ بشير على أمّها، تتولّى الردّ على أسلوبها بأسلوب مماثل، ممّا يجذب أمّ بشير ويخلق قابليّة للحديث، سئمت أمّ بشير من غباوات نساء الحارة وتظنّ أنّ مكانها ليس في هذه الحارة ولا بين هؤلاء النسوة. كانت تنادي فداء بالدكتورة رغم أنّها لم تنه دراستها بعد، وهي أوّل من نادى فداء بلقب الدكتورة، وانتشت فداء بهذا، إلّا أنّ كلمات أمّ بشير التي تنتهي دائمًا بلذعة ساخرة كانت تستفزّها.

حين تسلّمت مارغريت تاتشر رئاسة وزراء إنكلترا، كانت النساء يعلّقن ويتضاحكن، طلعت أمّ بشير، لأنّها تشبهها في الشكل والجسم وطريقة الكلام، والثقة بالنفس. كانت أمّ بشير ترتدي أيضًا الجلباب الأسود والمنديل، أمّا ما هو تحت هذا فهو الحليّ الثمينة والثياب الفاخرة، تتعامل مع الآخرين على أنّها ابنة الحسب والنسب وعلى الآخرين ألّا يتناسوا ذلك أبدًا.

ذهبت سها لعريسها، ممتلئة الرأس بتوصيات أمّها، تربية الزلمة، السيطرة على كلّ شيء في البيت. كلّ أمر تفعلينه اليوم

---

(١) خال، أخو الأمّ.

ستحصدينه غدًا، عليك البدء من اليوم الأوّل، الزلمة على ما عوّدته، كلّ ما يجنيه يجب أن يذهب إليك، ولا تتركي مصاري معك، اشتري ذهب، ولا تنسي أخواتك وأهلك، ربّيتك وتعبت عليك..

كلّ صيف، تجري أمّ بشير انقلابًا في بيتها. كانت بناتها بارعات في تخليص أزواجهنّ ممّا يجنون، يرسلنها للأمّ التي تتلقّفها غير راضية، تريد المزيد دائمًا. كان مصروف أمّ بشير على ثيابها وفرش البيت وإعادة إكسائه وتجديده السنوي يعادل مصروف عشرة بيوت. يعرف الجميع أنّ مالها من مال أصهرتها، لكن لا أحد يفسّر، لِمَ كانت خطبة بنت من بناتها أمنية عند نساء الحارة. ربّما جمالها واسم عائلتها، أو ذكاؤها وثقافتها، أو تشاوفها بالذات ما كان يجذب لها الآخرين.

وصلت ابنة الخامسة عشرة إلى عريسها، مع حماتها.

كانت فرحة سعاد هائلة، تنظر في وجه ابنها الباسم وتلتفت لكنّتها قائلة: شوفي كيف يلملم البسمة، يخجل أن يضحك. لكنّ العروس الصغيرة لم تأبه كثيرًا ببسمة عريسها، كانت تبحث عن طريقة تبدأ بها تنفيذ توصيات أمّها. أعجبتها الڤيلّا وغرفة النوم الملكيّة والحمّام الملكي، لم تحلم برؤية هذا واقعًا عن تلك الصور التي كانت أخواتها يحضرنها من الإمارات. ارتدت ثيابًا حريريّة ثمينة، وراحت تتبختر. لا تقترب العروس الصغيرة من المطبخ إلّا لإلقاء نظرة سريعة. تأمر وتنهى كما لو أنّها فُطرت على ذلك، ممّا أدهش أيمن، وأعجبه في الآن نفسه. أمّا سعاد فقد كانت تعدّ

الطعام مع الخادمة يدًا بيد، يقول لها أيمن: ارتاحي.. فتقول: لا أستطيع. تراقب سلوك كنّتها قلقة، ربّما تنوي العروس الصغيرة هدر أموال ابنها، تهجس، لكنّها سرعان ما تلتهي بحدث زواج ابنها، وتسعد بكنّتها التي تبدو كأميرة وابنها الأمير. وحين تدخل الخادمة بالقهوة على صاحب البيت وصاحبته، تنهض سعاد من مكانها لتأخذها من البنت وتشكرها بـ: الله يرضى عليك.

قضت سعاد بضعة أسابيع في بيت ابنها، ثم تركت العروس للعريس ولحياتهما الجديدة، ورجعت إلى أولادها في سوريا تحكي عن الهناء، وتفتخر أمام الجيران والأقارب بما حقّقه ابنها من نجاح، وعن كنّتها وحسنها وجمالها.



بعد أن كثرت حوادث الاغتيال والاعتقالات والفرار والتخفّي، صارت رحلات حلب متنفّسًا للأسرة عن جوّ الترقّب والخوف الذي يملأ المدينة، أصبحت حماة، في نظر الجميع، حارات فارغة، وأبوابًا مغلقة بإحكام. صوت رصاص ومتفجّرات تطلقها سرايا الدفاع باستمرار وكثيرًا ما كان لإخافة الناس وربّما بدون هدف محدّد.

كانت البنات مع ربيع والأمّ في بيت حلب، حين وقعت حادثة تفجير كبيرة. قيل إنّ الضحايا من الطائفة العلويّة، وحُسبت المجموعة التي نفّذت الحادثة على جماعة الإخوان المسلمين. كانت فداء تستعدّ لامتحان الدورة الثانية، مشغولة بأخواتها وأمّها وتسهر الليل من أجل الدراسة. ورغم موقفها الواضح والرافض لعمليّات الاغتيالات الغامضة، دكتور في الجامعة، إنسان بسيط اتُّهم بأنّه جُنّد مخبرًا لفرع أمن، معلّم مدرسة بعثي.. إلّا أنّها كانت تكتفي بالتذمّر أو بالتأسّف. لكن حين وقعت هذه الحادثة، كان الصباح فيصلاً في مواقف أفراد العائلة، منهم من التزم الصمت،

ومنهم من ندّد بقوّة، وكانت فداء هي صاحبة الصوت الأعلى، كأنّه فاض بها. قالت بعصبيّة وكأنّها تؤنّب من حولها: لماذا يفعلون هذا؟ ما الهدف من هذا؟ ما الذي يستفيدون منه؟ ستنشأ أحقاد جديدة وتسيل دماء جديدة، هل يظنّ جماعة الإخوان أنّ السلطة سوف تسكت؟ هذه سلطة وجيش وأمن طويل عريض، بحجّة التحقيق في الحادثة سيكون لديهم ألف سبب ليعتقلوا الشباب، ثم بحجّة سحب الاعترافات منهم سيعذّبونهم بكلّ الوسائل، هذا نظام يقود البلد، سيجد كلّ المبرّرات أمام رأي العالم لكي يفعل بالناس ما يشاء. غباء من جماعة الإخوان، أم ساديّة؟ كيف يفكّرون..

لم تجب الأمّ، صمتت وراحت تحكم غطاء الصلاة، تريد من فداء أن تصمت لكي تبدأ صلاة الضحى. أمسكت فداء بطرف غطاء صلاة أمّها وشدّته وأكملت تأنيبها: إخوان؟ إنّها ليست أخوّة، هذا قتل. راحت شفة الأمّ ترتجف انفعالاً، تلفّتت تستنجد بقول، ارتبكت بين نظرات الأولاد، حين رأت غادة وجه أمّها متخاذلاً، صاحت بأختها الكبيرة: أنت قليلة دين.

أشارت فداء إلى أختها المراهقة وقالت لأمّها: أرأيت، المتديّن يجب أن يؤمن بما يفعله الإخوان ومن لا يؤيّدهم فهو غير مؤمن. أرأيت الجيل الجديد؟ يعتقد الجيل أنّ الدين حكر على هذه الجماعة! أوشكت غادة أن تبكي وهي تقول لأختها: هذا جهاد في سبيل الله، يجب أن تؤمني به.

نظروا جميعًا في وجه غادة، وفهموا سبب ثورة فداء. قالت الأمّ: لا أعرف أنا، دعوني أصلِّ.

لم تدعها فداء تكمل صلاتها، قالت: بل تعرفين، وتعرفين أيضًا أنّ أكثر النساء اللواتي أفردت لهنّ ولدروس الدين نصف مساحة البيت هنّ أمّهات أو أخوات لشباب الإخوان الذين يتدرّبون ليل نهار على حمل السلاح.

تخاذلت سعاد، وأضافت: لا أعرف، من يعرف؟ كنت أهدف مرضاة الله.

استمرّت فداء: من أجل هؤلاء، صرت أضع الإيشارب في حماة وأخلعه في حلب، من أجل نساء الدرس الديني، أُجبِرت على هذا ولم أكن راضية، انظري ماذا يفعل أولادهم!

تذمّرت غادة أنّ أختها لم تُدرك أهمِّيّة قولها، أعادت بتوتّر: هذا جهاد في سبيل الله..

كذلك لم يسكت ربيع، كان يتأتئ برأيه طوال وقت النقاش، طالبًا من أخته أن تكفّ عن إزعاج أمّه، لا ذنب لها، لا تصيحي بوجه أمّك.

وتدخّلت بشرى: كلّ يوم تقتحم الوحدات الخاصّة البيوت بحجّة التفتيش، أهل المدينة لا يهنأون حتى بطعامهم أو نومهم، ما ذنبهم؟

صمتت فداء، قالت سعاد راجية: دعوني أصلٍّ، الله يهدّي القلوب، ويصبّر أمّهات العالم.

لم يكن فؤاد حاضرًا لكي يمنع النقاش بتجهّمه. كانت سمر مؤيّدة لرأي أختها الكبرى، وبشرى كعادتها أيضًا مقتنعة بوجهات

النظر كلّها على اختلافها، كلّ الأطراف محقّة، برأيها. أمّا لينا فلم تشغل نفسها بالجدال، كانت تنتظر أن ينتهين من النقاش الذي أضجرها، لكي يذهبن جميعًا إلى السوق، كما وعدوها، لتشتري بكلات وشكلات للشعر.

رجعوا إلى حماة، ووجدوا فؤاد كعادته قابعًا على كرسيّه الواطئ عند طرف الشرفة يدخّن وأذنه مع الراديو. فإن ترك كرسيّه في طرف الشرفة، يتوجّه إلى التلفزيون ويقف أمامه بركبتين متهدّلتين يصغي إلى نشرة الأخبار كاملة، محاولاً تخمين نوايا النظام من أجل قمع تحرّكات الإخوان وكلّ من يتعاون معهم. وحين يسمع جملة: سنضرب بقبضة من حديد، ترتخي عضلات وجهه ويخفض صوت التلفزيون وينسلّ إلى غرفته، لينام من دون نوم. تلحق به سعاد قائلة: لِمَ نخاف؟ أولادنا لم يحملوا سلاحًا. فيجيبها فؤاد: وهل سيفرّقون بين أولادنا وبين أولاد جيراننا؟ لن يفرّقوا. فتقول: الحمد لله، أيمن الذي كان يصلّي، محميّ في السعوديّة، أمّا مخلص فكلّ الناس تعرف أنّه قليل دين.. يقاطعها فؤاد: يا سعاد كبّري عقلك، لن يفرّقوا.

ومع هستيريا أخبار القتلى الغامضة من الطرفين، جماعة الإخوان المسلمين والسلطة، طلب فؤاد من سعاد، بشكل مباشر وصريح، أن تعتذر عن دروس الدين في البيت.

كان الأمر شاقًّا عليها، أن تخبر أمّ صالح الشيخة بقرار زوجها! يعني بنظرها تراجعًا بالدين والتقوى، المؤمن من ينصر دينه. إغلاق البيت أمام درس الدين يعني هزيمة للدين. آثرت سعاد

أن تتهرّب من مواجهة أمّ صالح. حين اقترب موعد الدرس التالي أرسلت غادة بثياب مبالغة بالاحتشام تقول لأمّ صالح إنّ الماما مريضة، ولا تقوى على التجهيز للدرس، وهي ترجو أن يكون الدرس عندك اليوم، لكنّ أمّ صالح نفت بخشونة: كلّ امرأة تأتي اليوم إليكم اصرفيها من وراء الباب.

وكان هذا آخر موعد لدرس الدين. وفي ذات صباح استيقظوا على قرع جارتهم تقول إنّ أمّ صالح وكلّ عائلتها غادروا ليلاً، تاركين بيتهم ورزقهم.

فرغت الحارة وفرغ اليوم من أمّ صالح ودين أمّ صالح. مرضت سعاد، أمر طاعة شيختها كان كلّ حياتها، لكنّ الشيخة لم تبادلها الثقة بمثلها، ولم تكترث لتلميذتها، ولم تقدّر حجم عطاء مريدتها، ولم تلتفت إليه أصلاً، سافرت هربًا، من دون أن تخبر أحدًا ولا حتى جيرانها الذين أطاعوها وحموها.

نظرت سعاد بخذلان شديد، في كومة المصاحف المكدّسة في زاوية الصالون، تأمّلت في تلك المساحة الهائلة التي ظلّت لسنوات مخصّصة للدرس الإسلامي، نظرت في الزوايا والحيطان التي طالما غسلتها لتهيئها طاهرة لحضرة الشيخة، تأمّلت في سجّادات الصلاة وأغراض الصلاة متفاوتة الأحجام التي خاطتها بنفسها وبكلّ المقاسات، لكي تشجّع النساء وتسهّل مهمّة الشيخة عليهنّ وعلى بناتهنّ.

حين غربت شمس ذلك اليوم صلّت سعاد المغرب وناجت ربّها كثيرًا، وقرأت في القرآن، تقنع نفسها بأن ليس للقرآن ذنب في

هذا، ولكنّ تعب السنين الماضية لم يغادرها وخيبتها كانت تتفاقم، صمتت، فاض كلّ شيء بالخواء والاكتئاب، ومرضت في سريرها أيّامًا طويلة.

كذلك كان حال فؤاد في غرفته، مستلقيًا يحدّق ويفكّر، قلقًا حتى العظم، على حال البلد والأولاد، وكلّ من في البيت منعزل وكئيب.

تغيّرت العادات، كان الناس في السابق يتسوّقون الخضار كلّ يوم طازجة في الصباح الباكر مع الحليب والفاكهة واللحم، لكن وفي ظلّ هذه الأحداث، لم يعد يتسنّى لهم فعل ذلك، صار مفهوم المؤونة هو قناعة الجميع، يشترون الطعام مؤونة شهر وربّما أكثر، وكثير من الأطعمة كالخضار والفاكهة والحليب، يقضون أيّامهم بدونها، عدا أنّ اللحم أيضًا يأكلونه بحال سيّئة حين يذوب الجليد في الثلّاجة بالكامل بسبب قطع الكهرباء الطويل، ثم يبنى من جديد حين توصل الكهرباء.

كان أكثر ما يهتمّ به فؤاد هو إحضار نوع خاصّ من الخبز، أطلقوا عليه خبز الأحداث، ابتُلوا بتناوله أكثر من سنتين، أرغفة كبيرة مدوّرة قطرها يصل إلى سبعين سنتمترًا، كان الأب يوصي الخبّاز عليها قبل أسبوع، وقبل أن تنتهي الدفعة التي سبقتها. يخبزها الخبّاز ويتركها تجفّ تمامًا ثم يرسلها بطرطيرة(١) مغطّاة بأكياس الطحين، تُحمل على دفعات إلى سقيفة البيت وتوضع على دفّة خشبيّة كبيرة بجانب جاروشة الفريكة. تتكدّس الأرغفة بانتظام.

---

(١) عربة بمحرّك وثلاث عجلات.

يشرف فؤاد بنفسه على ترتيبها كي لا يقع الكدس الأسطواني. يوضع أسفل الخبز شرشف كبير أبيض وفوق الكدس شرشف مثله، ثم تربط الأطراف بعضها ببعض حتى يتغطّى بالكامل. ينظر فؤاد إلى الخبز المغطّى ويتنهّد برضا، لن يجوعوا، مهما طال منع التجوّل، لديه مؤونة خبز تكفي أسرته شهرين. كان ربيع يعدّ الأرغفة وينزل من السقيفة ساخرًا يخبر أمّه وأخواته بأنّ دفعة اليوم فاقت الدفعة السابقة مئة رغيف. فتجيبه الأمّ المؤيّدة لفكرة المؤونة، الجوعان يأكل، عبارتها التي تقصد بها أهمّيّة الصبر.

كان الخبز، ومهما طال الوقت عليه، يصمد بلا عفن، وسعاد من عشّاقه. تقول إنّه مناسب للمعدة. تضع الأرغفة، قبل موعد وجبة الطعام، في قطعة قماش مبلّلة بالماء، تربط أطرافها على هيئة بقجة، ليصبح بدقائق طريًّا جاهزًا للغمس والأكل. ربيع لا يفضّله، ينتف تلك الفقّاعات غامقة اللون ويأكل الطبقة السفليّة البيضاء: أركض أنا وأشتري الكماج، يطلب بإلحاح. والكماج هو ربطة أرغفة الخبز البيضاء الحديثة الموضوعة في أكياس شفّافة مكتوب عليها تاريخ الصنع واسم المخبز والمكوّنات. لكنّ الأمّ التي تحرص موتًا على آخر العنقود، تطلب من الأب أن يمنع ربيع عن هذه الجرأة ولو كانت كلاميّة. شراء الخبز صار يقترن باختفاء الشباب والأولاد، حكايات كثيرة، عن أُناس ذهبوا ليشتروا الخبز ولم يرجعوا، وربّما كان هذا هو السبب الخفي وراء تموين الخبز لا غيره على هذه الهيئة في السقيفة.

حين يُسمح بالتجوّل ويقلّ تواجد العسكر في الحارات، يهرول

فؤاد إلى سوق الحاضر، لشراء كلّ شيء طازجًا، من اللبن والقشطة والخضار والفاكهة، والخبز في الربطات التي تفضّلها البنات والولد، يأتي عادة بتموين كبير من الطعام وبأخبار مؤسفة كثيرة. تقوم سعاد بإعداد الطعام الطازج وهي تسمع زوجها يقصّ عليها ما سمعه عن آخر منع تجوّل، ابن فلان أخذوه، ابن فلان قُتل، بيت فلان أغلقوا بيتهم وانتقلوا إلى دمشق، أقرباء فلان هجّوا من البلد، وهكذا.. يومان ويُعلن منع تجوّل جديد، انقطاع الكهرباء، حملات التفتيش، خبز السقيفة، عصبيّة الأب، صلوات الأمّ، صوت الرصاص، نقّ لينا وربيع..

تزداد غيبات مخلص، وحين يأتي إلى البيت، يقضي وقته في غرفته مع كأس عرقه، ومخطوطه الذي زاد وتضخّم. وما زال عن أهل البيت مجهول الموضوع، لم يعد أحد يهتمّ بأمر الآخر، فالجميع مترقّب ذلك القادم المجهول. توجّس جماعي يجعل تفاصيل الحياة اليوميّة تافهة. عمّت الاعتقالات كلّ الحارات، وانتشرت الأخبار بهستيريا، بعضها كان، على حقيقته، لا يصدّق.

* * *

تأتي أخبار أيمن من جدّة مبهجة لأمّه وباعثة على فخرها، ثراؤه يزداد. صار لديه ولد وبنت نالا الكثير من الدلال. كانت سها تشتري ثياب الصغيرة من «ماذر كير». يأتيها الكاتالوك إلى البيت أوّل كلّ شهر، تختار منه ما يعجبها، وترسل ثمن ما اختارته حوالة، لتأتي المشتريات في طرد من لندن، ثياب وألعاب للأولاد. سها العروس الصغيرة، صارت أمًّا وسيّدة، تحبّ من الحليّ الماس، وتترك أعمال البيت للشغّالة.

وفيما كانت أحوال أيمن في السعوديّة، عمله وعلاقاته، في ازدهار، كان البيت وصاحب البيت في حماة ينوس وينوس، تتّسع الهوّة بين البنات والأب، وبين البنات والأمّ، وبين الأمّ والأب وبين البنات فيما بينهنّ.

في آخر سنوات الطبّ، فقدت فداء أصدقاءها بالتدريج، سافر طارق زميلها الذي أحبّته بصمت، ليكمل في جامعة دمشق، واثنان سافرا لأوروبا بهدف الدراسة، وصديقتان تكرّر رسوبهما وتأخّرتا.

ومع تطوّر الأحداث الأمنيّة والتهاب الخلافات بين الطلّاب الذين ينتمون لقناعات واقتناعات متنافرة، وجدت فداء نفسها وحيدة. كانت تنفر من الطالبات المتديّنات، وتنفر من الشيوعيّات، وتشعر بأنّهنّ يكنّنَّ العداء لها. وهكذا وبالتدريج، ولأنّها لا تستطيع أن تبقى بمفردها، تعرّفت على مجموعة من بنات العائلات الحلبيّة الثريّة، بعيدات عن التحيّزات السياسيّة، رأت أنّهنّ أقلّ الزملاء حقدًا، وأكثرهم رغبة بالمرح والحياة. وبالتدريج بدأت اهتمامات فداء تتغيّر، لم تعد تهتمّ كثيرًا بالقراءة أو الاستماع إلى الراديو، كعادتها، صار ذوقها في انتقاء الثياب غريبًا على أخواتها وأبيها، تتابع الموضة وتنتقي ألوانها، وتضع أحيانًا طلاء أظافر، تهتمّ بالجزادين الملوّنة، زاد مصروفها أكثر وأكثر، قلّ اكتراثها بأخواتها وشؤونهنّ، انعزلن عنها بعد ما رأين من انشغالها عنهنّ، صارت لهجتها يغلب عليها الإيقاع الحلبي، وأصناف الطعام الذي تفضّل هي الأكلات الحلبيّة الحادّة، تكثر من الحامض والحارّ في السلطات، وتشتري أنواع الحلو الحلبي.

لم يرق كثيرًا للبيت في حماة هذا التحوّل، تعوّدوا من أختهم الكبيرة اهتمامها بالأدب والشعر وقراءة المجلّات الجادّة، والاستماع لما يجري حولها، وزيارة الأقارب والإصغاء لكبارهم خصوصًا الفقراء منهم، من يفرحون بقدومها ويسردون عليها أخبار أهلها في قديم الزمان.. تعوّدوا منها متابعة أخبار معارك فلسطين وحماسها للقضيّة، وتعوّدوا أنّ الأمر الجامع بينها وبين أخيها أيمن هو هذه القضيّة، «هزيمة الشعب العربي أمام العدوّ الصهيوني».

صار الجميع متنائين، كلّ منهم عن الآخر، والأمر لم يأخذ من تفكيرهم الكثير، همّ الأب وخوفه الذي بدأ يتزايد ويظهر بعصبيّة وردّات فعل غير متوقّعة، لا يطيق أيّ نقاش، ويميل إلى إعطاء الأوامر، يطلقها مرّة واحدة بعصبيّة ويمضي، يفعل ذلك فقط لكي يمنع التساؤلات. صار تواجد الوحدات الخاصّة في الشوارع والحارات أمرًا دائمًا نهارًا وليلاً، صوت الرصاص يكاد لا يتوقّف طوال اليوم، وفي كلّ يوم يأتي نبأ سقوط قتلى، وأنباء أخرى غامضة، وما إن يخرج فؤاد إلى دكّانه حتى يرجع راكضًا لاهثًا. كان الركض أزمة يوميّة يعيشها الرجال، ما إن يفتحون أبواب محلّاتهم ويخرجون بضاعتهم حتى يبدأ إطلاق النار من جهة مجهولة وقريبة، وكان الناس يعرفون أنّها عمليّة تقوم بها الوحدات الخاصّة للّحاق بمشتبه أو لتخويف الناس فقط، لكنّهم، وفي كلّ مرّة يخافون ويتسارعون لإنزال الستارات الحديديّة ويتراكضون بأقصى سرعة رجوعًا إلى بيوتهم.

ـ ركضنا. يقولها فيما وجهه ينقّط ذلًّا وقهرًا. ويمضي إلى كرسيّه في طرف الشرفة. تصمت سعاد متفهّمة، وتقول لكي تشغله عن كدره: تأكل عدس بحصرم؟ لكنّه يمضي لينكفئ في غرفته، غير راغب بشيء. وكثيرًا ما رأته سعاد يكفكف دموعًا تنهمر رغمًا عنه فوق الوسادة، فتتجاهل ذلك، ربّما لأنّها لا تريد رؤية زوجها وربّ أسرتها ضعيفًا، أو كي لا تحرجه بضعفه.. تحاول أن تلهيه بأيّ شيء، كأن تطلب منه أن يساعدها بتلبيس عناقيد العنب بأكياس ورقيّة ضدّ العصفور، أو أن يشدّ حبال الغسيل التي ارتخت، أو ينفض سخام الحمّام. ينفّذ لها ما تطلب ويلتهي قليلاً بالعمل

البسيط الذي توكله إليه، ويلتهي بالتذمّر منه. وبعد العصر يطلّ قليلاً من باب البيت الخارجي إلى الحارة والجيران، ثم يغلق الباب سريعًا، صارت صلواته أكثر من السابق، بل صارت منتظمة وخمس مرّات، وكانت البنات يرينه يقرأ القرآن ويدعو الربّ في الليل، وأغلب دعواته: يا ربّ السترة.

صارت حملات التفتيش أمرًا يوميًا، بل مرّات عديدة في اليوم. وكان رئيس المجموعة التي تنفّذ المهمّة، وبعد خروجهم من البيت، يخطّ بقلم عريض على العمود الحجري للباب الخارجي، فُتّش بتاريخ كذا والساعة كذا. امتلأ العمودان بتواريخ تفتيش، حتى لم يعد يوجد أيّ فسحة للكتابة والشخبطة، كانت أكثر البنات غضبًا من هذه الحملات هي غادة، أمّا بقيّة الفتيات فقد كنّ ينفّذن ما يقوله الأب بدون نقاش، ويفعلن تمامًا كما هو مطلوب: الصمت وتنفيذ ما يطلب منكنّ، لا يوجد عندنا أيّ شيء نخاف منه، دعوهم ينبّشوا، لا تظهرن لهم أيّ ضيق، ولا أيّ بشاشة.

هذا ما كان يعنيه فؤاد من دون أن يصرّح به. وكان ينهى البنات عن مسح الكتابة التي تخطّها مجموعة التفتيش على طرفي الباب الداخليّ والخارجيّ، علّها تعبّر عن موافقتهم وقبولهم واستسلامهم لهذه الحملات وعدم اعتراضهم على شيء، راجيًا الأمان.

خاطت الأمّ ثيابًا للبنات خاصّة بحملات التفتيش، قميصًا طويلاً إلى ما تحت الركبة، وبنطالات عريضة. قماش واحد للجميع. حين تدخل مجموعة التفتيش، تصطفّ البنات صفًّا واحدًا

وينظرن أمامهنّ، من دون التركيز على هدف معيّن، التقطن إشارة الأب من دون شرح، ونفّذنها، عليكنّ ألّا تظهرن شجاعة تستفزّهم ولا جبنًا يثيرهم، لم يشرح فؤاد طويلاً، استوعبن ما هو مطلوب، ما إن تمضي أوّل مجموعة تفتيش ويخلعن زيّ التفتيش، حتى تأتي مجموعة ثانية فيهرعن لارتدائه، وكانت لينا تقول: مشرشحة.

قبلت البنات كلّ الأوامر من دون اعتراض، كان الظرف طارئًا وكان النقاش في هذا ترفًا غير مقبول، فالأب خائف إلى حدّ الرعب من أن يحدث لبناته ما حدث لغيرهنّ. كلّ قلق فؤاد وغمّه وخوفه هو أن يُعتدى على بنت من بناته! كما يتردّد بين الناس، أو أن تُجرّ بنت من البنات للتحقيق في فرع الأمن، حيث الله أعلم متى تعود وماذا يحدث لها. كانت تلك الهواجس تسيطر تمامًا على رأس فؤاد، ليل نهار، تضخّمت حتى انعكست على يومهم. صرن يتجنّبن لقاء أبيهنّ، يتذمّر كأنّه يلوم العالم على أنوثتهنّ، وأحيانًا يحزن ويشفق كأنّه هو الملام. والبنات لا يُتقنّ أسلوب فداء في التعامل بندّيّة مع أبيهنّ، ممّا يزيد الشرخ، يزيد تجنّب البنات لقاء أبيهنّ، ويزيد ضيق أبيهنّ من كونهنّ خمس صبايا.

كانت فداء تأتي بين وقت وآخر من حلب، وحين تهمّ أمّها أن تحكي لها ما يحدث، تنفر وتقول: احكي لي عن أخبار أيمن. وتحكي هي عن أخبار بنات حلب، اللواتي لم يبدين أيّ اكتراث بما يحدث في حماة، أو أنّهنّ لا يعرفن ما يحدث. وتفرد فداء أشياءها وتتبرّع لأخواتها ببعض ما استغنت عنه. تتجنّب لقاء أبيها كأنّها لا تريد أن تقترب من لبّ الواقع، أو أبوها هو من تجنّب

لقاءها، وتجنّب الجميع أيضًا. كثيرًا ما استيقظت غادة ليلاً ورأته يحمل كتبًا من المكتبة الضخمة في أكياس من الخيش ويخرج ليرميها في حاوية الزبالة البعيدة، ورغم هذا الجهد الذي يقوم به، لم تكن كتب المكتبة تنتهي، كأنّ المكتبة نبعت، وكثيرًا ما سألت غادة أمّها: لِمَ يفعل أبي هذا؟ وما ذنب كتب المكتبة؟ لم تكن أمّها تجيبها، وأحيانًا تصرفها عنها: اسأليه؟

استوقفت غادة مرّة أباها وهو خارج ليلاً بكيس الخيش، كانت حزينة على الموسوعة الجغرافيّة، سلسلة مليئة بالخرائط الملوّنة وأخبار مدن العالم والسكّان، تحتلّ الرفّ الأوسط ودائمًا في متناول اليد. قالت له: أضعها تحت سريري، غضب وأمرها أن تذهب وتنام. وفي اليوم التالي، وحين وجدها بمفردها في الغرفة، قال: الكتب تشكّل خطرًا، وقد يعتبرون الكتب دليلاً ضدّنا إن أرادوا أن يتّهمونا. ثم حين رآها تنظر غير مقتنعة، توتّر: ألا ترين أحوالنا؟ تفتيش ورا تفتيش؟

هزّت غادة رأسها موافقة، لتهدئته فقط، لم تفهم ما حولها ومن حولها، نشأت وكبرت وسط هذه الأحوال غير المفهومة، قتل واعتقالات وحملات تفتيش..

نظر أبوها في وجهها، ثم مسح على رأسها وقال: صرت صبيّة، لماذا لا تمشّطين شعرك مثل أخواتك لينا وبشرى؟

نظرت في وجهه، ولم تجب، لكنّها نظرت طويلاً، كأنّها تلومه أنّها لم تكن بجمال أختيها، أو أنّها تلومه لأنّه لم يهتمّ بها كاهتمامه بفداء، أو أنّها تلومه أنّه أنجبها إلى هذه الدنيا، أو أنّها

تلومه لأنّها كئيبة وملبّدة ومكدّرة دائمًا.

بالرّغم من كساد السوق، لم تتراجع أحوالهم الماديّة، تحسّنت بتحسّن أوضاع أيمن في السعوديّة، يرسل الكثير لأهله، كما أنّ مصروف الحياة اليوميّة في حال الحرب لا يتطلّب كما في حال السلم، لا تحتاج العائلة الكثير من المال، حين يستمرّ منع التجوّل أسبوعًا، من دون كهرباء ولا هاتف، والطعام ممّا يتوفّر من مؤونة البيت، رزّ وعدس وزيت وزعتر وخبز يابس. يستخدمون ما لديهم من مازوت للتدفئة، يستمعون إلى الراديو وإذاعة لندن، والتي كانت نادرًا ما تذكر أخبار المدينة.

كان الأكثر توقًا لسماع خبر هو فؤاد، يُشاهد وهو يدخّن سجائر الصباح ويشرب قهوته ويقرّب أذنه من الراديو حين يحين موعد الأخبار. يحافظ على وجهه جامدًا كي لا تكتشف البنات والأمّ سرّ اهتمامه. وحدث أن أدار الراديو وتوقّفت الإبرة على إذاعة الإخوان المسلمين من بغداد، وجاء صوت المذيع واضحًا ومهدّدًا. وكانت الطامّة الكبرى. سأل البنات والأمّ وربيع، وأجرى تحقيقًا، عمّن يكون قد استمع لتلك الإذاعة، لكنّه لم يصل إلى نتيجة. صاح بهم جميعًا: لا تحرّكوا إبرة الراديو، إذاعة سوريا فقط. كان، بعد أن يستمع لأخبار لندن، يُعيد الإبرة لإذاعة سوريا حتى لا يسمح لأحد في البيت الاستماع لإذاعة أخرى، ولو كانت إذاعة لبنان. كانت خشيته أن تُداهم حملة تفتيش البيت فجأة وتُدير الراديو فيأتي صوت ذاك المذيع الذي لا يفتأ يخبر المستمع كلّ حين بأنّها إذاعة الإخوان المسلمين من بغداد.

كانت سعاد، حين تراه متوتّرًا جدًّا، تقترح أن ترسل ربيع إلى بائع السيّالات في شارع الجلاء لكي يحضر بعض السيّالات لتعدّها بالسمن العربي والجوز والسكّر والقرفة، لكن هيهات أن يخفّف هذا من جوّ التوجّس والقلق الشديد.



بعد سفر أمّ صالح، فرغ العالم على سعاد، وراحت تبحث لنفسها عن قضيّة تنشغل بها: البنات يكبرن، لم يطرق بابنا عريس مناسب.

ثابرت على النقّ اليومي طوال الصيف، ركبها وسواس واحد، كيف ستزوّج البنات إن لم يخرجن ويلتقين الناس، وكيف تفعل هذا، في ظلّ هذه الأحداث ومنذ أكثر من سنتين والحال منع التجوّل، والتفتيش تلو التفتيش؟

كانت تتذكّر نصائح أمّ صالح وتحاول تطبيقها علّها تساعدها: الظرف طارئ، من يفكّر بزواج البنات، والشباب يُقتلون ويُعتقلون ويختفون؟ خطبة سها لأيمن لم تكن مناسبة، كان عليك أن تخطبي فتاة تهيّئ خطبتها عريسًا لبنت من بناتك. وتتذكّر أنّها نصحتها بسماح لمخلص، أهاليهم كثر وناسهم كثر. سماح بنت شريكهم أبو غالب.

أخبرت فؤاد بالفكرة، وقالت: علّنا إذا خطبنا لمخلص هذا

الصيف، نضمن عريسًا لإحدى البنات. قالت، يأتي في مناسبة الخطبة والعرس نساء من أهل العروس وأقاربها، ويلتقين البنات فداء وسمر..، الله يقرّب النصيب.

تحفّظ فؤاد، أبو غالب شريكه في الدكّان منذ سنين طويلة، إلّا أنّه يختلف عنه، كان إسلام أبو غالب وابنه متشدّدًا، وكان أبو غالب وابنه ينتقدان بشكل مباشر طريقة فؤاد في بيته. يقول أبو غالب: البنت لبيتها وزوجها وسجّادة صلاتها، ما الذي تفعله البنت بالشهادة والجامعة؟ لكنّ فؤاد لم يكن يتناقش معه، ولا يهتمّ بأن يصلا لتفاهم فكري، كان يهمّه أنّ أبو غالب إنسان أمين، وأنّهما بعملهما المشترك في الدكّان الصغيرة متفاهمان تمامًا.

لم يعترض فؤاد على اختيار سعاد: فكرة أن تجد عريسًا لإحدى البنات كانت جيّدة، سعاد محقّة، البنات لا يلتقين أحدًا. ولكن من يتجرّأ أن يخطب طالبة طبّ؟

وكأنّ الأم سمعته يقول ذلك، أرأيت، قالت تذكّره بأنّه لم يكن واقعيًّا حين شجّع ابنته على هذه الأحلام وفرح بها. كان متوجّسًا كثيرًا من انفجار الوضع ويريد فقط أن يتشارك أحد معه همّ البنات والأحداث. لم يكن يُبدي هذه الرغبة لأحد ولا لنفسه حتى، لكنّها كانت حقيقة داخليّة تأكله. وجاءت سماح من عيلة نصفها من جماعة الإخوان المسلمين، التي ستصم مخلص كلّ حياته، ويحسب عليهم ولو لم يكن يومًا مقتنعًا بشيء ممّا يفعلونه.

سماح طيّبة وكريمة ومتواضعة، أجمعوا عليها ووافقوا، ابنة

لأب حنون. يعمل أبو غالب بالإضافة إلى شراكته مع فؤاد في محلّ القماش، يعمل في تجارة صوف الغنم. كان الجميع يعرفون أنّ غالب ابنهم، من القسم المسلّح من الإخوان، وبأنّه على حدّ اتّهام سمر التي لا أحد يعرف من أين تأتي بيقينها، وهو على الأغلب يثبت صدقه، بأنّه هو من اغتال مدير مدرسة الشباب، الذي قيل عنه إنّه أودى بنصف شباب المدرسة إلى التحقيق، وأكثر من ربعهم إلى الاعتقال في أماكن، الله وحده يعلم أين هي. غالب شابّ يبدو عليه النحول، تدرّب على حمل السلاح وإطاعة الأوامر، نشأ في عائلة كبيرة وكثيرة العدد، أمّا أسرته القريبة فهي قليلة الأولاد، وكان مثل كثيرين يحلم بأمّة تحمي الإسلام وتنشره بالموعظة الحسنة، فإن لم تجد الموعظة الحسنة فبأيّ وسيلة ومنها السلاح.

كان غالب يعيش مع أمّه وأبيه وأختيه، ولم يكن يهمّه كثيرًا أن يخفي تحرّكاته على أهل بيته، كان بحجّة مساعدة أبيه في تجارة الغنم، يسافر إلى البدو لإحضار السلاح وتخزينه، وكثيرًا ما استخدم قبو البيت لهذا، قبو البيت الذي كرّسه أبو غالب لصوف الأغنام، استخدمه غالب مخزنًا لسلاح الجماعة أوقات الزنقة. كانت أمّ غالب، الأمّ الوديعة الرقيقة المغلوبة على أمرها، ترى الرشّاشات اللامعة بين أكداس صوف الأغنام، فتنبهر بلمعانها وتمتلئ بالخوف، وتدعو الله أن يهدي جميع عباد الله، أوّلهم أعداء ابنها وأعداء الجماعة، كي لا يموت أحد ولا يُقتل أحد ولا يضطرّ أحد أن يقتل أحدًا. حين باحت بخوفها لبكرها، أجاب منبّهًا: يجب أن تكوني شجاعة مثل أمّهات

رفاقي، وطلب منها أن تساعد في إخفاء الرشّاشات، وتغيير أماكنها حسب الحاجة. كانت تطيع وتطرد من رأسها كلّ تخيّل عمّن سيموت بهذه الأسلحة، كلّ ما يقوله ابنها حقّ، فهو مجاهد يردّد كلام الله، وكلّ ما يقوم به حقّ فهو سيرفع راية الإسلام بجهاده، قناعة أغلب أمّهات من يسمّون بالمجاهدين. لكنّ منظر السلاح في بيتها يرعبها، فتمضي من يأسها إلى زوجها وتشتكي أنّ صوف الأغنام يسبّب حساسيّة وسعالاً للبنات، آملة أن ينقل الصوف من البيت، فينقل السلاح أيضًا. لكن هيهات، شهور طويلة، تنقل أمّ غالب الرشّاشات اللامعة من مكان إلى مكان بين أكوام الصوف، راجية من خوفها أن يختفي السلاح من الوجود كلّه.

أمّا ابنتاها فلم يكن يعنيهما شيء من جهاد أخيهما، تنفّذان ما يُطلب منهما، وتهربان إلى غرفتهما حيث تخيطان ثياب الرقص الشرقي. سماح بارعة بالرقص الشرقي، مؤمنة حتى الثمالة بهذا الفنّ، تتدرّب عليه وتخصّص له الوقت أكثر بكثير ممّا تفعله لوظيفة المدرسة. تشتري سماح وأختها المجلّات التي تهتمّ بأخبار الفنّانات والرقص، ففي البيت، ورغم الرقابة الظاهريّة على التلفزيون، لم تكن هناك رقابة على المصروفات.

تُنهي سماح وأختها سريعًا صلاة التراويح في الجامع القريب وتتراكضان إلى غرفتهما حيث عالمهما وأسرارهما. لغالب وكْره وسلاحه، ولهما وكْرهما. صُعقت أمّ غالب حين اكتشفت وكر الرقص الشرقي، وجدت بذلات الرقص خلف

الثياب المعلّقة، وفي الأدراج اختلطت ثياب الصلاة بسوتيانات مزيّنة بالبرق والخرز، وشالات تُلفّ على الخصر لتعين البطن على الهزّ. لكنّها سكتت أيضًا حين قالت ابنتها بنزق: نتسلّى يا أمّي، نتسلّى، أحسن ما نطقّ. سكتت أمّ غالب مثلما سكتت حين قال لها ابنها بأنّ السلاح في البيت من أجل إعلاء كلمة الله. أولادها جميعًا على حقّ، وعليها فقط أن تدعو الله أن يهدي الجميع إلى الخير.

حين أخبرت سعاد ابنها مخلص أنّها تودّ أن تخطب له. ضحك كثيرًا.. كان يدخّن مضطجعًا كعادته، قال:

ـ البركة بأيمن.

كان يلمّح إلى أنّها تنساه دائمًا وتتذكّر أيمن.

فقالت له بحنان، جعل عينيه تدمعان:

ـ وحقّ النبي أفرح بمجيئك أكثر من كلّ أولادي.

أخبرته عن اختيارها لسماح، ولم تكمل. كان مخلص مثل الداية، يُقال، يعرف كلّ بنات الحارة وبنات الحارات المجاورة، حريص على متابعة أخبار البنات وما يدور حولهنّ. ارتاح، البنت آدميّة، قال هذا، لأنّ البنت لم تستجب لغمزاته التي يوزّعها على النساء والفتيات. سأل أمّه راجيًا:

ـ صفي لي شكلها، فهي تخاف أخاها وتربط منديلاً على وجهها.

ـ حرام، لا يجوز.

تدخّلت غادة:

ـ أنا أعرفها، هي أكبر منّي في المدرسة، بيضاء الوجه بشعر أحمر..

ـ لا يجوز. نبّهتها الأمّ.

سارت كلّ الأمور على ما يرغبون. كانت أمّ غالب، بطيبتها، أقرب إلى الصمت، كلّ ما يقولونه لها توافق عليه. كانت لها بنت حم كثيرة الثرثرة، حاولت أن تشير إلى عادة مخلص في الشرب والسّهر. ولم ترق لسعاد هذه التلميحات، لكن سرعان ما اشتكت أمّ غالب بنت حميها لسعاد وتفاهمتا على إهمالها، أمّا غالب فكان فخورًا أن يناسب أيمن أخا مخلص، كما كان يريد أن يزوّج أختيه، خصوصًا أنّ العمل المسلّح الذي انخرط فيه يجعله بقلق دائم على أسرته.

كان السرور يبدو على سماح بأنّ عريسها ليس كأخيها، حامل سلاح الدين. فالبنت تحبّ الرقص والضحك والسهر، وبارعة بالطبخ، وحين أخبرت غادة مخلص أنّ خطيبته ترقص أحسن من سامية جمال، وأنّها ليست مجتهدة في المدرسة وعلاماتها ضعيفة، أجاب مخلص ضاحكًا:

ـ عزّ الطلب.

ـ ألا تحلم بعروس مثل رابعة عدي؟

ـ لا أريد عروسًا مثل رابعة عدي[1] أجاب ساخرًا من نفسه.

كان لرابعة عدي صيت، فتاة من عمر بشرى، اشتهرت في مدارس حماة، بأنّها لم يحدث في عمرها أن نالت أقلّ من العلامة الكاملة في أيّ مادّة. كانت مضرب مثل للطالبات ومحلّ عجب وتعجّب من المعلّمات ومديرات المدارس.

أمّا مخلص الذي يفهم المرأة جسدًا ولذّة وروحًا خفيفة، فإنّه يؤثر فتاة مثل سماح، تشحط السنة شحطًا وفي ليلة انكسارها في مادّة، ترتدي بذلة الرقص، وتسهر حتى الصباح وهي تجرّب حركات رقص جديدة تبتكرها بنفسها وتنوّع عليها.

أعدّت سعاد لحفل العرس، جهّزوا غرفة العروسين ممّا اختارته سماح، ساعدت غادة كثيرًا بهذا، وقع انسجام خاصّ بينها وبين سماح، شعرت غادة بالارتياح منذ أن اختاروا سماح عروسًا لمخلص، صارت صديقتها المفضّلة. تُدافع غادة عن سماح إن اغتابتها بنات حميها، كانت سماح تستمع لغادة، وتتحدّث معها بصراحة.

أتت عروسًا صبيّة شديدة البياض، وأكثر ثيابها مختارات من

(١) نالت المجموع الكامل في الثانويّة والتحقت بمعهد البحوث العلميّة في دمشق وكان الناس يقولون: ما شاء الله البنت تدرس الذرّة، حين يذكرونها يتحدّثون عنها كأنّها ملاك أو معجزة، قليلة الكلام، يقال إنّ من ينظر إليها يشعر بهيبة غريبة. وبعد سنوات قليلة أرسلت البنت إلى باريس، وهناك، اختفت تمامًا، ولم يُعثر عليها، ولم يعرف مصيرها أحد. يُقال إنّ البوليس الفرنسي فقد أثرها، كذلك يقول الأمن السوري.

اللون الأحمر والفيروزي، أثارت غيرة سمر وبشرى. صارت الأوقات التي تقضيها غادة مع سماح أكثر ممّا تقضيها مع أخواتها. وكانت تضحك وتفرح حين ترى بذلات الرقص الكثيرة. كانت تستغرب حبّ سماح للورد الصناعي في غرفة النوم، سألتها، قالت سماح إنّ الرقص الشرقي يستدعي العتمة والأضواء الشاحبة، وهذه لا تناسب الورد الطبيعي. أمّا في النهار فكانت تعتني بحديقة البيت. كثر الورد سريعًا بحضور سماح، كانت متسامحة مع زوجها ومشروبه، وحين يتركها ويصعد مجدّدًا إلى السطح تحرد، وتقول له إنّها لن تتكلّم معه بعد الآن، ولكن في الليلة نفسها تُسمع أصوات تأوّهاتهما، وكانت غادة تتلصّص وتستمتع بها.



قلّ اهتمام غادة بالصلاة، لم تعد تستيقظ لصلاة الصبح، وتقوم لصلاة العشاء بتثاقل، وكلّ الواجبات الدينيّة التي كانت تفعلها بحماس قلّ اكتراثها بها، وتباطأ، وصارت تطالب بمصاريف زائدة، لتضاهي رانية رفيقتها وندّها في آن. رانية وحيدة أمّها وأبيها، ابنة الحسب والنسب، مدلّلة، كما لم يحدث لبنت، كانت غادة تراها أجمل بنت في المدرسة، وترى نفسها أقلّ البنات جمالاً، أو أكثر البنات قبحًا، تهجس. كانت تتساءل مع ربّها الذي صلّت له طويلاً، لماذا وفوق أنّ رانية وحيدة ومدلّلة، خُلقت أجمل بنت في المدرسة؟ ولم يكن يجيبها، فكانت تزداد تلبّدًا وضيقًا وتحاول أن تتناءى عن ربّها الذي خلقها وسوّاها على هذه الشاكلة، فتتقرّب منه أكثر. ترى غادة أنّ رانية أكثر بنات المدرسة رفاهًا واجتهادًا ومرحًا، الكلّ يتودّد إليها، تراقبها غادة، تتقدّم رانية من مديرة المدرسة وتطلب منها، بهدوء وجرأة، صورة مشتركة، تبتسم المديرة وتنتظر ريثما تجد رانية بنتًا تعرف أن تلتقط الصور التي تريد، وتنتظرها بصبر أيضًا ريثما تشرح للبنت طريقة

استخدام الكاميرا، ورانية تفعل ذلك من دون أن تشعر للحظة بالضغط أو الحرج، وحين تقف بجانب المديرة لأخذ الصورة، تكتفي بقول كلمتين للمديرة وهي تضع ذراعها حول كتفها: العفو استوقفتك. وكانت المديرة، وفي الأسبوع الذي يلي، حين تصادف رانية في الباحة تقترب منها وتسألها عن الصورة فتعدها رانية بنسخ الصورة وإرسالها لها، تعدها ببساطة كما تفعل مع رفيقة لها في الصفّ.

تطلب من أبيها أن يفعل هذا، ينسخ لها الصورة ويضعها في ظرف ويرسلها بالبريد، من دون أن يتذمّر أو يؤنّبها لأنّها تهتمّ بأمور غير جادّة، كما يفعل أبو غادة إن تمادت في تلك الأيّام وسألته أنّها تودّ أن تلصق صورة منظر الغروب على حائط غرفتها. ولِمَ الغروب ولم الشروق؟ هل ستقضي السنة الدراسيّة مناظر طبيعة ومياعة..؟ اقرئي الكتب وادرسي دروسك..

لم تكن رانية تقول، أمّي أو أبي، أو حتى ماما وبابا، كانت تذكرهما بالأسماء، كان أكثر ما يغيظ غادة، ويجذبها في آن، أنّ رانية لا تتوقّف عن الكلام، وحديثها مسلّ وجريء ومفيد، كانت تقرأ مجلّات الفنّ والحزازير وتحلّ الكلمات المتقاطعة وهي تقضم كيت كات: وكانت حين تشتهي الكيت كات تذهب مع أمّها وأبيها مساء بالسيّارة كي يشتروا الكيت كات. وتسافر مع أسرتها كلّ صيف وترجع بلون البرونز، بساقين صلبتين ومشية ثابتة وفي الوقت نفسه تحدث حركة دلع بالكتفين، تجعل غادة تغلي من غيرتها وتجرّب ليل نهار أن تقلّدها، عبثًا. كانت مشية غادة دائمًا متشنّجة

وسريعة ومتهجّمة وتقول البنات عنها: الغضب الساطع آت. افترضت غادة أنّ رانية هي من حرّضت البنات على إلحاق اللقب بها، ونقمت عليها، وصارت تجرّب أن تنتقدها في غيابها، وتبيّن بكلمات فصيحة تعلّمتها من كثرة القراءة في القرآن أنّها بنت غير ملتزمة وأنّها تبتسم حين يجرّب شابّ أن يلطّشها بدل أن تُبدي الغضب، الأمر الذي كانت تفعله غادة فخورة باستقامتها ودينها. وحين كانت ترى ابتسامة رانية كانت تمتلئ غيظًا وتقول لها، إن لم نظهر العين الحمراء يتمادَ الشابّ أكثر. تقلّل رانية من حكمة غادة، وتقلب جفنها بطرف إصبعيها، لتصبح العين حمراء، وتجعل البنات يتضاحكن.

وظلّ أمر صراع غادة بين غيرتها الشديدة من رانية ورغبتها القويّة بأن تكون صديقتها المقرّبة ممضًّا حتى تعبت، تمنّت أن تكون مثل البنات رفيقاتها اللواتي ورغم الأوضاع الأمنيّة شديدة الحساسيّة، يأتين كلّ يوم بحكاية: اليوم لحقني فلان وكان مرتديًا فانيلا صيفيّة في عزّ البرد، والثانية: البارحة رنّ الهاتف مرّات عديدة وكلّما كنت أرفع السمّاعة يأتيني صوت شادية: خايفة لمّا تسافر.. والثالثة تقول: جارنا رمى وردة حمراء من الطابق العلوي بينما كنت أخرج من باب البناء، والرابعة عن قريبها الذي طوى قصاصة مكتوب فيها: من يفتح الأبواب يغلقها، لنزار قبّاني، ووضعها تحت الفنجان.. إلّا غادة كانت الوحيدة التي لم تحضر قصّة لرانية. من أين تحضر الحكاية! لم يكن هناك من ينتظرها، ولم يرنّ الهاتف دون جواب، ولم تر وردة منذ الربيع الماضي، كما من المستحيل أن يزورهم قريب ويضع قصاصة ورق تحت

فنجان القهوة.. فمن أين تحضر قصّة جذّابة كقصص رانية وبقيّة البنات؟

تنال رانية الدرجة الأولى وغادة الثانية، والفرق بينهما علامات قليلة، تراها غادة سنين ضوئيّة، تسلّمت رانية ورقة العلامات وهي مرتدية الجينز، فوقه قميص من الكارو الأبيض والأحمر، حملت حقيبة من الجينز الطري، وخفًّا باللون البيج، موعودة بصيف مليء، تباهت. تهرب رانية من أخبار القتل والاعتقال، وتهزّ كتفيها علامة عدم الاكتراث، وتخبرهنّ أنّها ستقضي أسبوعين في اليونان عند عمّها، وأسبوعين في دمشق عند خالتها، وبضع سفرات مع أهلها إلى «شاطئ الرمال» في طرطوس.

أخذت غادة ورقة علاماتها أقلّ من علامات رانية بعدد السنتميترات نفسها بين طولها وطول رانية، سألت رانية البنات من دون أن تنتظر جوابهنّ كيف سيقضين الصيف، فأجابت غادة من دون أن يلتفت أحد إليها أنّها ستستعير كتبًا من المركز الثقافي العربي، علّقت رانية بابتسامة: العربي..؟

افترضت غادة أنّ رانية تسخر منها، وزاد الحنق على نفسها، معنى هذا أنّه ظهر منها استعراض مملّ، فقرّرت أن تراقب ألفاظها أو تقلّل الكلام.. سمرة وجهها وقناعتها بنقص مكانتها، تجعلانها دائمًا ملبّدة. وفشلت كما فشلت سابقًا في جذب البنات إليها، كما فشلت أيضًا أن تكسب رانية نفسها صديقتها. قضت الصيفيّة وكلّ يوم خبر اعتقال أو قتل أو اختفاء، وهي تهرب من كلّ هذا لتستمع إلى ندوة «لماذا» في راديو مونتي كارلو، عسى أن تلتقط حكاية

جنسيّة تحرّر الكبت بداخلها. قلّت صلواتها، وقلّ اكتراثها بحفظ القرآن ودراسة أحكام التجويد. وفي يوم من أيلول وبعد افتتاح المدرسة ببضعة أيّام، قالت لأبيها:

ـ أريد أن أقدّم ثانويّتي في حلب عند أخواتي.

لم يثن أبوها طلبها، في اليوم التالي ساعدها على نقل أوراقها من حماة إلى حلب.

* * *

أمضت فداء الصيف في بيت أهلها، تفكّر بالمستقبل وبالبحث عن مشفًى للاختصاص، طبّ الأطفال، حلمها وحلم أبيها. لم تكن ترغب بمغادرة البيت كثيرًا، والمشكلة مشكلة الإيشارب، غطاء الرأس، شرط الخروج.

رجعت فداء رفيقة أبيها، يتحدّثان عصر اليوم، عند البحرة، حديثًا معظمه عن توتّر الأوضاع السياسيّة. تقرأ المجلّات الشهريّة، العربي وطبيبك، وتتابع المسلسل المسائي، وترتّب أشياءها، وتساعد في إعداد الطعام. لطعامها نكهة خاصّة، يعرفها فؤاد ويفضّلها، يقول: السلطة التي تعدّها فداء طازجة. كانت تنقع الخضراوات بالملح والخلّ الأبيض، وتقطّعها بأحجام كبيرة، وتقدّمها بجاط عميق زجاجي شفّاف، بينما تفضّل أمّها تقطيعها إلى قطع ناعمة، وتضعها في جاط مسطّح بزجاج محجّر. كانت فداء تحرص على تسخين الخبز، بينما تكتفي أمّها بتغطيته بفوطة مبلّلة، وقماش الفوطة كان يومًا قميص بيجامة أحدهم. ورغم اعتراض الأب المتواصل على هذه العادات، لم تكن سعاد تتراجع عنها،

تقول على مرّ السنين: لو أنّي لم أقتصد، لما وجدتم بيتًا تتملكونه. وما تقتصده في شهر يصرفه ابنها بساعة واحدة، إلّا أنّها تقبل منه وله هذا وتبرّره بكلّ الأشكال.

لم تتجاوز سمر العشرين، حين همست لأختها فداء بأنّها ترغب أن تتدرّب في أحد البنوك. فوجئت فداء: عمل في هذه الظروف الأمنيّة؟ منع تجوّل وراء منع تجوّل، وأبوك يذهب إلى دكّانه صباحًا ليرجع راكضًا بعد ساعة، كيف ستذهبين وترجعين؟

كانت سمر، على صمتها وحيائها، شديدة العناد، وبّختها أمّها أن تكفّ عن النقّ، وسخرت منها أخواتها، ولكنّها أصرّت، وأمام إصرارها، قال فؤاد: سوف أسعى لك بوظيفة في مكان محترم، انتظري، انتظري.

لم يطل انتظارها، بحث بين معارفه القدماء، وتدبّر لها وظيفة في فرع بنك صغير. أظهرت سمر، منذ الأيّام الأولى، مواهبها في العمل البنكي، أثبتت مهارة أدهشت المدير والموظّفين، كانت لديها ذاكرة وقدرة على اختلاق الحلول للزنقات التي يقع فيها مدير البنك أمام زبائنه. أكملت دراستها وهي تعمل، وخلال شهور تسلّمت الخزينة، وصار مرتّبها لا ينقص عن مرتّب موظّف يعمل في البنك نفسه منذ سنوات.

ورغم نجاحها هذا وفرح أهلها بها، إلّا أنّه لم يعن للأمّ شيئًا، تنظر في وجوه بناتها وتغتمّ: عدن إليّ بشهادات جامعيّة، لكن عازبات..

تبوح كلّ حين بالهمّ لفؤاد فينهرها بعصبيّة. يفكّر بالأمر ذاته

بهلع مضاعف بسبب الأحداث والأوضاع الشديدة الاضطراب.

تراقب فداء قلق أمّها ونظرة الناس إليها وإلى أختها، بنات يكبرن الكنّتين الاثنتين ولم يتزوّجن، تراقب قلق أبيها قانطة، تنوي العودة إلى حلب، لا تريد أن تحبس نفسها في حماة، بسبب غطاء الرأس هذا، ولا تريد أن تضعه ويصبح شأنها شأن عانس من عانسات الحارة.



أرسل أيمن مزيدًا من المال، قائلاً كعادته: لا تدعوا أخواتي يحتجن شيئًا.

سافر فؤاد وسعاد إلى دمشق لشراء أشياء للبيت والأولاد، وتركا في بيت حماة ربيع ولينا، وسمر وفداء، ومخلص وزوجته.

وفي صباح اليوم الثاني، اندلعت أحداث المدينة، حماة ١٩٨٢.

كان ربيع أوّل من استيقظ على صوت الطفل المنادي عبر مئذنة جامع «أبو رحمون»: حيّ إلى الجهاد، حيّ إلى الجهاد. راح ينتقل من شرفة البيت الجنوبيّة حيث الجامع وأصوات النداء، إلى نوافذ البيت الشماليّة حيث يتسارع الصبية تاركين بيوتهم لتلبية نداء الجهاد. استطاع ربيع أن يلمح بعضهم يرجع ليترك هويّته بيد أمّه الملهوفة وهي تشدّه إلى صدرها وتقبّله وتدعو الله أن يحميه.

سيطر الحماس على ربيع، رأى رفيقه في المدرسة يركض مع البقيّة، لم يستطع أن يمسك نفسه، الجهاد واجب وكرامة! لم ينتظر، همّ بلبس ثيابه واللحاق بهم، لم يتردّد أو يخف، كان يفكّر

بأنّ سعره بسعر رفيقه، وعمره بعمر رفيقه، ورفيقه خرج مع إخوته الكبار. لا وقت للتردّد، حسم أمره. كان يهمّ أن يتناول جاكيتة سميكة معلّقة عند باب الخروج، حين أحسّ بقبضة حازمة تمسك بقبّة قميصه من الخلف، التفت مذعورًا، كان أخوه مخلص ينظر إليه بخطورة. دفعه بصمت وإصرار إلى داخل البيت، ثم إلى فراشه، وقال كلمة واحدة:

ـ نم.

لم ينم، ظلّ مستيقظًا يفكّر بمصير رفاقه الذين رآهم يهرعون إلى الجهاد، كانت المرّة الأولى التي يرى أخاه مخلص بهذه الشدّة. لم يصبر، أيقظ أخواته وراح يحكي لهنّ ما شاهد. كادت التأتأة تشلّ لسانه. لم يذكر أنّ مخلص كان مستيقظًا ومنعه من الذهاب، ولم يذكر أنّه فكّر بهذا. قالت له فداء التي أدركت سبب حماسه وخيبته في آن: الآن يرجع الصبيان، وينتهي النداء وينتهي الجهاد.

صدقت فداء، رجع الكثير من الأولاد إلى بيوتهم، ولكن هيهات، عُرِف تمامًا من هو الولد الذي تملّكه الحماس، ومن هو الولد الذي نجحت أمّه في استبقائه في البيت. في اليوم نفسه، قُطعت الكهرباء والهواتف ومُنع التجوّل في الطرقات، وحلّ الرعب والهلع، ولم ينس أهل المدينة بعد ذلك ما شهدوه.

بذر الجيش في المدينة، يبدو، بوصيّة واحدة: اقتلوا وانهبوا واهدموا..

أرسلت فرق عديدة وبأعداد كبيرة من الجيش، دبّابات،

طائرات.. وكلّ ما لدى أجهزة الجيش من عتاد، وانتشرت في كلّ مناطق المدينة وحاراتها. كأنّ لديها مهمّة واحدة لا غير، سحق المدينة.. القيام بحملات التفتيش والاعتقال والتحقيق والتعذيب والقتل، هدم كلّ الأماكن المشتبه بوجود سلاح أو نيّة بالقتال، أعانها مخبرو الحارات. اقتيد الأولاد الذين أصابهم الحماس وأهاليهم وامتلأت المدارس والمراكز ذات الساحات الواسعة بأجساد ترتعد وتنتظر مصيرها. ولم يطل ارتعادها وانتظارها، هناك جرت عمليّات القتل الجماعي، وهناك حفروا وطمروا، وهناك.. بالشاحنات جُمعت أجساد الآلاف ونُقلت، وبالقلّابات رُميت وكُدّست في المقابر الجماعيّة. والضحايا من كلّ الأعمار، قامات قصيرة وقامات طويلة، أجساد شابّة وأجساد هرمة، وجوه بضّة وكانت حالمة ووجوه خائفة وكانت يائسة، من كلّ الأعمار ومن كلّ الأشكال، شباب كثيرون أتوا لزيارة الأهل بعد امتحان الجامعة، مشتاقون فقط للُقمة الأمّ أو لكي يأخذوا الخرجيّة ويغسلوا الثياب، لكنّ الثياب لم تُغسل، بل تلطّخت بالدماء ودُفنت مع الأجساد في المقابر..

من الضحايا من كان تاجرًا ويغشّ أحيانًا ومنهم من كان صالحًا ولا يغشّ، لكن ربّما يفضّل أولاده الصبيان على البنات، ومنهم من كان متزمّتًا مقطّبًا في بيته ومرحًا مزوحًا خارج بيته، ومنهم من كان متكبّرًا ومنهم من كان طيّبًا، منهم من كان جسورًا وصادقًا ومنهم من كان جبانًا وكاذبًا، منهم من كان محبًّا وكريمًا ومنهم من كان شامتًا. كثيرون كانوا يخطّطون للحجّ القادم، وكثيرون كانوا يتلاعبون بالضرائب وكثيرون كانوا يكدّسون المال،

منهم من كان يصرف المال ليعرض كرمه ومنهم من كان يفعل في سبيل الخير، يُقال.. كثيرون كانوا ذوي حسب ونسب وكثيرون كانوا من الغوغاء، منهم من كان عليه دَين لم يسدّده، ومنهم من كان ينتظر حقّه، منهم من كان مخلصًا وأمينًا ومنهم من لم تعنه كثيرًا صداقة الصديق، ومنهم من كان يحبّ ومنهم من كان يخون، ومنهم من ينوي أن يعدل عن خيانته ومنهم من كان قد خلص أنّ الحياة شطارة.. ومن بينهم، أيضًا، مراهقون لم يلحقوا أن يفعلوا ما يفعل الآباء، لكنّ ذنبهم كان كبيرًا، مقتلهم كان حماسهم، مقتلهم أنّ الأهل لقّنوهم أنّ الدم الحامي كرامة وأنّ النخوة كرامة وفعلوا تمامًا كما لُقّنوا، وقُتلوا ودُفنوا وطُمروا. ومنهم من كان بين بين، على وشك أن يبدأ مشروعه، يعمل ويتزوّج وينجب أطفالاً، كان لبعضهم طموح ولبعضهم أحلام وكلّهم كانوا كما كلّ الناس الذين يعيشون في العالم..

كم العدد؟

قيل، ثلاثون ألف قتيل، وقيل أربعون ألفًا، ومع أنّ المجال بين الرقمين واسع إلّا أنّ كلمة الآلاف هذه كانت ضئيلة أمام ما حُفر في ذاكرة الناس والمدينة من ذلّ وقهر.

شهر شباط قسم ظهر المدينة، كثيرون قُتلوا وكثيرون غابوا وكثيرون هربوا ونجوا، بعض من تبقّى يسرد ما رآه كأسطورة، بوجل وتعبّد ورعب. صارت دمشق والقصر الحاكم أمرًا غيبيًّا غير مُدرك الشكل، هل الحكّام من البشر؟ أم من آلهة تقلب الأرض والسماء، تسحق البشر والرزق من الوجود، وتقدّم الشتاء على الخريف!

جاءهم خبر أولاد عمّهم، أربعة شباب قُتلوا في يوم واحد، وصلهم الخبر كالصعقة من جارة عمّهم، قالت مقطوعة الأنفاس: قتل الإخوان أسعد، لأنهم ظنّوا أنّه مخبر، وقتل الجيش إخوته الثلاثة الباقين، وسكتت سلفة سعاد التي كانت تتشاوف بأبنائها الشباب.

لم يصدّق مخلص الخبر، كان يقضي السهرات برفقتهم، يشاركونه لذّة الكأس والحديث عن النسوان، لم يكن لأحدهم اهتمام بغير السهر والتسلية والضحك، لم يبق منهم أحد، إلّا مخلص، فما الذي يمنع أن يُقتل وأخوه ربيع؟ كان ينظر إلى زوجته وإلى أخواته، ليس في البيت من رجل غيره. أبوه وأمّه في دمشق، يشتريان الهدايا، لمن؟ كان مرتديًا جلّابيّة رماديّة، ينام ويصحو بها، ينتظر حملة التفتيش التي ستقوده وتقود أخاه الصغير إلى القتل.

في السادسة مساء يوم ١٠ شباط، كان مخلص مقطوعًا من الدخان، ومؤونة البيت في آخرها، قليل من البرغل تطبخ منه فداء، قليل من الزيت يُستخدم للإنارة والطعام أيضًا. كان جالسًا في زاوية الغرفة، يتدفّأ على نار الفتيل ويرمق ارتعاشها، حين طُرق الباب طرقًا شديدًا، حبسوا أنفاسهم، واتّجهت أنظارهم إلى مخلص، ارتخت عضلات كلّ الوجوه، همّت لينا أن تبكي، أمسكتها أختها ونهرتها، هرول ربيع إلى وراء الخزانة.

حين رأى مخلص الرعب في وجوههنّ ووجه أخيه وهو مختبئ خلف الخزانة، نهض متماسكًا وقال بجدّيّة مرتجفة: ربّما تبقين

وحدكنّ، مهما حدث، لا تفتحن الباب لحملة تفتيش إلّا بعد أن تطلبوا منهم إحضار الجيران معهم. كان ما يرعبه أكثر من احتمال قتله هو قتل أخيه، وأن يُعتدَى على أخواته وزوجته.

حين تأخّروا في فتح الباب، نادى أحد أفراد الحملة باسم مخلص تحديدًا، فانشلّ البيت، لم يعد من شكّ بأنّهم سيقودونه للإعدام. عانق أخاه، ونظر في عيني أخته الكبرى فداء قائلاً بخشونة وبصوت متهدّج: انتبهوا، فهمت؟ وفتح الباب، ثمانية عساكر مدجّجين بأنواع السلاح، كرّروا اسمه، فابتسم بوجه أصفر تلك الابتسامة التي أتقنها أهل البيوت حين يفتحون الباب لحملات التفتيش، ابتسامة صفراء ذليلة محتّمة. بادرهم: تفضّلوا، محاولاً تحديد مهمّتهم، تفتيش. مع يقينه أنّ حملات التفتيش لا تردّد اسمًا بعينه. وقفت زوجته وراءه، واصطفّت أخواته، ولم يظهر ربيع الذي بال على نفسه وراء الخزانة. نظر أحد أفراد الحملة بعيون ثعلب إلى وجوه البنات ووجه سماح الشديد البياض، وابتسم ابتسامة تشهٍّ، هجس مخلص: «سيرجعون إلى البنات». بقلب موجع وريق ثقيل، حاول المناورة بتذلّل: والله يا سيّدي لا دخل لي بكلّ هذا، أنا درست فلسفة ولا أنام بدون الكأس. ولا أصلّي..

لم يكمل، صاحوا به أن يخرس ويخرج فورًا. تناول معطفًا معلّقًا عند الباب، ارتداه فوق جلّابيّته ومضى وراءهم. وقفت فداء تنظر في أذيال جلّابيّة أخيها وهو يصعد سيّارة الصندوق. صفقوا باب السيّارة وأقلعت وإختفت سريعًا في المنعطف، قبل أن يلملم أخوها أذياله.

ظلّ الحديد يرصّ على الذيل الرمادي المتدلّي من جلّابيّة مخلص طوال الطريق، وظلّت فداء مسمّرة على الدرجة الأولى وراء الباب تستحضر تماسكًا ضروريًّا أمام أخواتها وزوجة أخيها المبهوتة.

جلس مخلص في سيّارة الصندوق جنبًا إلى جنب مع رجال كثيرين، يتساءل صامتًا إن كانوا اقتيدوا بالاسم مثله. كلّ منهم مطرق وينتظر الرصاصات التي ستميته وتريحه. أفرغت السيّارة بعض الرجال في المدرسة القريبة، وأبقت بعضهم إلى المدرسة التالية، أنزلت عددًا منهم في مركز شراء الحبوب في منطقة المحطّة وأكملت طريقها، وهكذا ظلّت تتوقّف وتفرغ وتتنقّل، حتى لم يبق في السيّارة إلّا مخلص وعدد قليل من الرجال، توجّهوا بهم إلى فرع الأمن. أدرك أنّ الأمر خطير، ولن يكون قتلاً عشوائيًّا سهلاً كما سيحدث لهؤلاء الذين أُنزلوا في المدارس أو الساحات، سيخضع للتحقيق والتعذيب أوّلاً، توجّس.

ركلوه وعفسوه بأقدامهم قبل أن يرموه في غرفة الانتظار للتحقيق.

لم تشأ الدموع أن تسيل، كانت عيناه معذّبتين وعضلات وجهه تنبض بالقهر، فتزداد دكنة وجهه، وعروق كفّيه تزداد ازرقاقًا. صورة أخواته وزوجته لا تفارقه، ويتمنّى أمنية واحدة فقط ألّا تتذكّر الحملة أنّ البيت صار فارغًا إلّا من الصبايا.

ولكن كلّ ما توجّسوا منه حدث.

في العاشرة ليلاً، رجع اثنان من عساكر الحملة بسيّارة جيب، أحدهما صاحب عيني الثعلب، أحضر رفيقًا له، واعدًا إيّاه بصبايا حمويّات. طرقا الباب. كانت البنات متكوّمات حول الفتيل، سمعن الطرق الغريب. كان من النادر أن تأتي حملة تفتيش عشوائيّة بعد الثامنة ليلاً، إلّا لاقتياد أحد الرجال، ولم يعد في البيت إلّا ربيع. صرخت فداء، إذا أرادوا أن يقتادوا ربيع فسوف نمنعهم ولو قتلونا جميعًا. فوجئت زوجة مخلص بقرار الأخت الكبرى، قالت: أنا لا أريد أن أموت. قالت لها سمر بخشونة: لن يقتلونا، ولكن علينا أن نحمي ربيع. قالت سماح بل يقتلوننا جميعًا، وقد قتلوا كلّ أخوات بسّام الأرناؤوط[1]، قالت لها سمر بعصبيّة: بسّام حمل سلاحًا مثلما فعل أخوك، أمّا إخوتي فلم يفعلوا. نهرت فداء أختها: لا وقت الآن، الطرق يزيد. اقترحت سمر أن يتكلّمن من وراء الباب. وتولّت سمر المهمّة. فوجئوا بأختهم التي اعتادوا منها الصمت وإن تكلّمت فبصوت منخفض، أن تكون متماسكة وواضحة ساعة المحنة.

ـ من يطرق الباب؟ قالت.

صاح أحدهم:

ـ افتحوا.

---

(١) شخص معروف في المدينة محسوب على الجناح المسلّح للإخوان، قام بعمليّات اغتيال عديدة في حماة ١٩٨٠ وكان بارعًا في الهرب من عناصر الأمن حتى تحوّل في نظر الكثيرين إلى أسطورة في البطولة والذكاء. قُتل بالمصادفة البحتة بيد شرطي مرور.

ـ ماذا تريدون، أخذتم أخي منذ ساعات.

ـ تفتيش..

الهدف ليس ربيع وإنّما هنّ بذاتهنّ، هدف ليلي. كانت اللهجة أقلّ عنجهيّة وحدّة ممّا هو معتاد. نظرت فداء في وجوه أخواتها، يضرب عبء المسؤوليّة كخنجر في حلقها، بمن تستنجد؟ جيرانهم رحلوا والبيوت المحيطة بهم فرغت تقريبًا من أصحابها، كانت الأفكار تدور في رأسها كدوّامة وهي تتلفّت حولها. كأنّ أختها سمر تلقّفت عجزها، اقتربت فجأة إلى ما وراء الباب، واشترطت على القادمين:

ـ اقرعوا باب أحد الجيران ليكونوا معنا.

ـ افتحي شرموطة، وإلّا أكسر القفل.

تبادلن النظرات. وإذا بسمر تصيح مهدّدة:

ـ قل للعقيد حسن إنّنا نحتاجه معكم في حملة التفتيش.

وما إن نطقت سمر بهذا الاسم حتى علا هدير محرّك السيّارة واختفى أثرها وأثر القادمين.

فوجئوا بالقول الذي ردّدته سمر وتلك الجملة التي أنقذتهنّ وأنقذت ربيع.

سارعت سمر، حين رأت نظرة ريبة من زوجة أخيها، تبرّر: إنّه خاطر خطر على بالي، حيلة فكّرت أنّها ربّما تنقذنا. ومن هذا العقيد؟ صاحت فيها فداء، أجابت سمر: لا أعرفه، اسم زبون

موجود في أضابير البنك. كيف تجرئين، على ادّعاء معرفته؟

ستكون تلك الجملة الذكيّة رافعة لمكانة سمر في العيلة، لم تكن تحلم بها. وقضت بقيّة أيّام منع التجوّل، تأمر وتنهى.

قبع مخلص ساعات ليليّة طويلة. تتناهى إليه أصوات الصراخ والتعذيب الحقيقيّة وليست تلك الأصوات المسجّلة، والتي تستخدم عادة لإنهاك أعصاب السجين، لم يكن هناك وقت لرفاهيّة كهذه. صار التعذيب بالنسبة للبشر نمط حياة وللمحقّق نمط عمل.

جاء دوره. سيتعرّض للتعذيب كغيره، فكّر بوجل. حاول أن يسترجع دراسته وقراءاته في علم النفس والفلسفات وكلّ النظريّات التي تمعّن فيها وكتب فيها، علّه يعثر على طريقة حوار تمتصّ عدوانيّة المحقّق، وتخفّف مرور وسيلة التعذيب أو القتل على جسم الضحيّة.

فكرة ألحّت عليه، وشعر كأنّه، بانغماسه فيها، يصلّي، أو يمارس تصوّفًا خاصًّا يمنحه خلاصًا، صبرًا، قبولاً، يخفّف عنه ثقل اللحظة والألم.

حين جرّوه إلى غرفة التحقيق، كان بجلّابيّته الرماديّة كخرقة مهترئة، رأسه مرتخ، ويداه مستسلمتان تمامًا للشدّ والنبذ والضغط والترك.. تلفّ أفكاره وتدور. هل يطلب الآن التقليل من العذاب؟ أم كلّ ما يطلبه الآن هو الاستعجال بالموت؟ هل الاستسلام للجلّاد ينفع؟ أم ادّعاء الصمود أنفع؟ قال العقل: إنّ الاستسلام لا يترك وازعًا للتعذيب، ولكن مؤكّد أنّ كلّ ضحايا اليوم كانوا مستسلمين لقاتليهم، فلِمَ لا يهدأ القاتل؟ ربّما بسبب أنّ الضحايا

كثر، ولا يمكن أن يترك ضحيّة تهرب من يده، وهذا ما يجعله شرهًا للذبح والسلخ. فكّر مخلص وهو في دوّامة الخوف، هل جرّب هذا الجلّاد وسأل الضحايا قبل قتلهم؟ لمْ يفعل، ليس لديه الوقت لهذا. مخلص لا يعرف أبدًا عمّا سيُسأل، هل أنت من التنظيم؟ سيجيبه مثل كلّ المتعوسين: لا، لست كذلك، وسينال أوّل وجبة تعذيب. وسوف يستمرّ الأوّل بالسؤال نفسه مع التنويع عليه، وليس لدى مخلص جواب آخر مثل كلّ الذين اقتيدوا معه. فكيف يمكن اختصار هذا الفعل، السؤال والإنكار والتعذيب والشتم. كان من يقتاده يتصرّف كآلة وظيفتها نهنهة الضحيّة قبل وصولها إلى المحقّق، وعلى الضحيّة ألّا تُتعِب المحقّق وتأخذ وقت غيرها. والعسكري الذي يقود الأسير، آلة لا تُصغي لأيّ نداء أو رجاء أو غمز أو لمز. ولا بدّ من المرور على هذه الآلة، آلة تلهث من الحنق والكره.

لم يكن الأمر كما تصوّره مخلص، اتّهام وسؤال وإنكار وتعذيب، كان شيئًا آخر، كان هولاً حقيقيًا. فالمحقّق لشدّة انشغاله وتعبه من كثرة ما عذّب من مواطنين، ومن قلّة النوم وكثافة أعداد الضحايا، كان يسلك سلوكًا هستيريًا.

يُقاد المواطن كنعجة، والجزّار يقوم بالذبح باعتياد. فإذا كانت النعجة تذبح لتفيد ببضعة كيلو غرامات من اللحم، فإنّ المحقّق يستثقل الآن حتى عبء أجساد الضحايا، أين يذهب بكلّ هذه الجثث؟ وأين يجد أرضًا تُحفر لطمر هذا العدد الهائل؟ هذا عدا أنّ بعضهم لم يمت تمامًا، ما زال بين الجثث أحياء يقاومون نزيفهم

وجروحهم، ويتمسّكون بالرمق الأخير.

قرّر مخلص أن يجيب على الأسئلة بصدق وليكن ما يكون، الموت حاصل حاصل.

- اسمك مخلص؟

- نعم.

- منذ متى وأنت مع الخروات؟

أجاب ببساطة:

- لم أكن يومًا معهم ولا أعرف أحدًا منهم.

أدرك مخلص سريعًا أنّهم لم يرموه في المدارس كغيره ليُقتل من دون تحقيق لأنّهم يشتبهون بأنّ لديه معلومات، تلك المكتبة الضخمة واللعينة والتي أبت أن تنتهي بيد أبو أيمن وهو يملأ كلّ يوم شوالاً من الكتب ويرميه خارجًا. أو ربّما بسبب شباب الحارة الذين خرجوا للجهاد، أو بسبب أولاد عمّه الذين قتلوا بسلاحين متضادّين، لكنّ السبب كان غير ذلك، والسبب خطير ولا يحتمل جدلاً. تسلّم مخلص من أبيه مشروع بناء سكني صغير، وقبل أن ينتهي من تشطيبه، اندلعت الأحداث، وككلّ الأبنية الفارغة، لجأ إليها الأولاد «المجاهدون» وقُتلوا فيها، وكان لبناء مخلص النصيب في هذا.

لم يصغ المحقّق لجوابه، كان يطرح أسئلته ولا ينتظر الجواب، يبدو أنّ الحكم صادر سلفًا. جولات التعذيب لم تكن طويلة ولكنّها كانت لحدّتها شبه قاضية.

لم يكن هناك فرق بين الصراخ والبكاء والرجاء والتعنّت والصمود. . كلّها مشاعر انتابت مخلص دفعة واحدة وكانت سببًا لحدوث ذلك الكسر، صدع عميق حدث في نفسه ولم يعد هناك شفاء منه.

وفي نهاية جولات التعذيب، كاد مخلص أن يغيب تمامًا، تصعقه الأوجاع في كلّ خليّة من بدنه. استغاث أخيرًا بكلمتين: خلّصونا، خيّو.

كان يطلب الموت، ووصلت النجدة، للمصادفة البحتة. توقّفوا من ضجرهم، استقتل مخبر الحارة كي ينقذه، قال عن مخلص: يسهر ولا يأبه إلّا لشرب العرق والغمز للنساء، أضاف وهو ملثّم: إلّا هذا، أحسن واحد بحماة، وأقسم للضابط بأنّ الرجل لا علاقة له بشيء، رجاه كثيرًا، وركع يقبّل اليد.

ـ خرا عليك وعليه، اتركوه. قال المحقّق.

كان مخلص شبه غائب. ومنذ ذلك اليوم وهو مدين لهذا الشخص بحياته. عرفه، ولكن أراد أن يحفظه من غضب أهل حارته، بعد أن أودى بالكثيرين ممّن فقط كانوا يذهبون إلى الجامع، ولم يكن يعرف المخبر المسكين أنّ جوابه بأنّهم يصلّون سوف يحكم عليهم بالموت. ولأنّه كان يرتعد من غضب الناس، حاول بكلّ ما أوتي من قدرة أن ينقذ مخلص علّه يكفّر عن الضحايا التي كان سببها كلمة منه. كانوا يسألون مخبري الحارات التي لم يخرج منها مقاومة، لكي يعرفوا من هو متعاطف مع المسلّحين ومن كان في نيّته المشاركة، أمّا الحارات التي خرج منها سلاح واحد

فقط، فلم يسألوا المخبرين، كان يبدو أنّ لديهم الأمر بإنهاء الأمر جذريًا.

قضى مخلص أيّامًا طويلة تحت أغطية ثقيلة في فرشة عند زاوية القبو، يطلّ وجهه أسمرَ كالحًا وملبّدًا بالألم. لم يكن ينظر في وجه أحد. وسماح تشعر بالذنب لأنّ زوجها سدّد ثمن ما كان على أخيها وجماعته تسديده.

انسحبت فداء من قناعاتها السابقة، ترمق مخلص يئنّ من ألمه في فرشته ولا يظهر منه إلّا أعلى رأسه لأخذ بعض الهواء. تصاعدت أسئلة جديدة، ما معنى فلسطين والوطن، وهم حبيسون منذ خمسين يومًا يأكلون لُقيمات من البرغل، ويحتفظون ببقايا الزيت لإشعال فتيل ليروا الطريق إلى الحمّام فقط؟ ما معنى سوريا والأمّة العربيّة، وكلّ ما اعتقدته بعمرها؟ إن كان مصيرهم الجلوس متلاصقين تحت نافذة القبو كلّ النهار والليل، يرتجفون من البرد، ينتظرون تلك اللحظة التي سيقصف البيت، ويخلصون؟ فكّرت، ما معنى أنّ كلّ ما دافعت عنه وتأمّلت فيه وآمنت وحلمت به، من قضيّة المرأة وحجاب المرأة إلى قضايا الوطن؟ ما معنى تكريس حياتهم ومستقبلهم لقضايا الوطن إن كان هذا الوطن لا يكترث بهم. لا يعرفون إن كان سيطلع عليهم غدٌ أمْ لا، ولا يجدون طريقًا للهروب أو النجاة؟ تصغي لأنين أخيها وصوت الرصاص في الخارج وتأتي أصوات الشام والمدن الأخرى والشعوب الأخرى، عبر الراديو، حيّة، صاخبة، يتحدّثون عن الإنجازات ويبثّون البرامج والأغاني باعتياد، وليس من إشارة تنبئ بأنّ أحدًا يتذكّرهم ولو للحظات.

بدأت بطّاريّات الراديو تنوس، خشيت فداء أن تنقطع وسيلتها الوحيدة مع العالم، ولا أحد يعرف، متى ينتهي كابوس الحرب.

تستيقظ وتنام في أوقات نهاريّة وليليّة مختلفة، في بيجامة واحدة وجوارب عديدة مع جاكيت من الصوف السميك، لا حمّام ولا ماء دافئ، لا شاي ولا قهوة، حين استطاعوا الحصول على تنكة من المازوت وأشعلوا المدفأة والحمّام لنصف نهار، تخاصموا، من يغتنم أوّلاً ويقشط جسده بالماء الساخن.

تجلس لينا أمام المرآة، وتمشّط شعرها وهي تبكي. كانت سمر الأكثر صبرًا وتحمّلاً، تعد ربيع ولينا بأنّه، غدًا أو بعد غد ينتهي كلّ شيء، وتفتح المدارس والأسواق، يأكلون ويشربون ويستحمّون ويلتقون أمّهم وأباهم.

هربت سماح من عيونهم وانسلّت عبر الحارات لتزور أمّها، سمعت أنّهم أخذوا أباها، حاولت أن تحضرها معها وهي تقبّل يدها راجية، لكن أمّ غالب خائفة جدًّا، وتخشى أن تسبّب لابنتها وزوج ابنتها المزيد من العذاب، جلست وحيدة تصغي لصوت الرصاص وتدعو ربّها أن يرجع لها أبا أولادها. لأوّل مرّة في حياتها تنام أمّ غالب وحيدة في بيتها الكبير، وضعت رأسها على الوسادة مكان نوم أبو غالب، تنشّقت رائحة رأسه، رائحة صوف خرفان ممزوجة برائحته التي تعرفها من سنين طويلة، هذه هي الليلة الأولى التي ستنام في السرير من دونه، كان صوت الرصاص يأتيها كثيفًا وقريبًا، تبعد من رأسها أن تكون إحدى الرصاصات في صدر

رفيق عمرها، طمرت رأسها باللحاف وأمّلت نفسها أنّه سيرجع، لا بدّ أن يرجع.

نام أهل الحارة كالعادة على أصوات الرصاص والمتفجّرات. ونام أهل البيت يحلمون بصباح قادم تأتي أمّهم ويأتي أبوهم ويأتي الطعام ويأتي المازوت. أحلام الليل، متفجّرات ووجوه مهدِّدة ووجوه خائفة وبيوت مهدّمة، لم تكن أحلامًا أو كوابيس، كانت تختلط بين بين، واسوداد الليل والبرد يزيدها توتّرًا وخوفًا.

قبل السادسة صباحًا استيقظوا على صوت انفجار هائل وقريب جدًّا، اهتزّت الأرض بشدّة تحتهم واهتزّت الجدران حولهم. نظروا في السقف فوق رؤوسهم كأنّه على وشك السقوط، ركضت لينا تسأل بهستيريّة أين تقف كي لا تموت، ظنّوا أنّ البيت قُصف فوقهم، تسمّرت فداء ذاهلة، كيف تحميهم؟ عانقت لينا وربيع وسارعت إلى جانب سمر، ثوان، حلّ هدوء كامل، ثم اخترقه صوت امرأة تصيح وتُعيد من عمق: يا الله اغفر لي، يا ربّ اغفر لي. تسلّلوا إلى الحديقة الخلفيّة مصدر صياح المرأة، ورأوا ما لم يُنس بعمرهم كلّه. مئذنة الجامع التي كانت تنتصب كلّ العمر أمام بيتهم غير موجودة، وغبار كثيف يملأ الجوّ، نثار وأحجار تتطاير وغشاوة كثيفة تغطّي السماء. صياح الجارة ورجاؤها بالغفران لا يهدآن، صرخت سماح تبكي: قامت القيامة. أصاب فداء الجزع وللحظات صدّقت، صاحت سماح من جديد: هذا الغضب غضب الربّ، سوف ينتقم ربّنا لكلّ من قتل ومن عذّب وسجن أبي..

راحت لينا تبكي منهارة، وربيع يمسك يدها ويرتجف، وسمر تنهرهما.

أدركت فداء، وبعد أن انقشعت الرؤيا، أنّهم فجّروا مئذنة الجامع. تركت الحديقة الخلفيّة بعد أن أكّدت لأخواتها أنّهنّ بأمان، ودخلت إلى المطبخ، تهطل دموعها وهي تفتّش في الخزائن وفي الرفوف عن لقمة طعام منسيّة تعينهم ليوم جديد. لم ينهض مخلص من فرشته وأنينه، ولم يتزحزح من مكانه. حاولت فداء التخفيف عنه بأن اقترحت عليه أن يجلس جلوسًا في فرشته ويكتب في كتابه، أدار رأسه إلى الجهة الأخرى، فهو لا يجرؤ حتى على تذكّر ما حصل، كيف يجرؤ على كتابته وتوثيقه.

أوقات من الجحيم، يُقال، عاشتها المدينة، نفدت المؤونة من البيوت، اشتدّت معارك الناس الذين يقطنون بيتًا واحدًا حول لقمة الخبز، كثيرون باتوا بين القتلى، باتوا وهم يبحثون عن طريقة يدفنون فيها موتاهم، من دون أن يبرحوا أماكنهم، حتى لا تصيبهم رصاصة طائشة أو غير طائشة. نخر عظامهم برد الأربعينيّة. كانوا يجلسون متنبّهين، يصغون إلى عربة الخبز تمرّ أمام بيتهم، تلك التي كانت ترمي بالأرغفة على الأرض في الطريق، يهبّون كي يختطفوا رغيفًا، أو يرسلون صغارهم يستقتلون ويعودون ممزّقي الثياب، يرتجفون من البرد، وشفاههم مغبرّة بالطحين وتراب الطريق، يجعرون ويعلكون قطع الخبز التي استطاعوا نزعها من غيرهم.

تحوّلت منطقة الكيلانيّة والزنبقي إلى ركام. قُتلت النساء المكوّمات في الملاجئ مع أطفالهنّ، وفي تلك المنطقة بالذات،

نجت إحدى النساء وقالت إنّها رأت بطن امراة مقتولة، يتحرّك. كانت المرأة على وشك الولادة. وفي تلك المنطقة بالذات رمت امرأة رضيعها في النهر، بالخطأ قيل، عفو الخاطر قيل، وجنون قيل، وقيل أيضًا إنّها رمته قاصدة كي تريحه من هذه الدنيا وهذا العذاب..

انتهت أسابيع منع التجوّل، تمامًا حين انتهت المدينة.

تنهنهت المدينة منذ الأسبوع الأوّل لبدء الأحداث، لكن لم يتمكّن أحد من رؤية ذلك، لأنّ منع التجوّل استمرّ بقيّة الأسابيع، أخذوا الناس من بيوتهم، كلّ الرجال الذين وجدوهم في البيوت، وقتلوهم، مستندين على الحيطان، قُتلوا، وهم راكضون قُتلوا، وهم مكوّمون بعضهم بجانب بعض قُتلوا..

قضى فؤاد وسعاد أقسى أيّام العمر عند قريب في دمشق، يترقّبان الأحداث ويفتّشان كلّ يوم عمّن يهديهما إلى خبر عن الأولاد. ترتدي سعاد المانطو صباحًا وتحمل حقيبتها، وتأتي لأهل البيت لتودّعهم، قائلة، أجرّب، علّهم يسمحون لي بالدخول إلى حماة. كان فؤاد ينزوي في ركن عند النافذة في بيت أقاربهم في ركن الدين، ويضع الراديو على أذنه علّ إذاعة رحيمة تخبره عمّا حلّ بأولاده ومدينته وعالمه وكلّ حياته، من دون فائدة، يترك أمر زوجته وتهوّرها لأهل البيت أن يهدّئوها، ويقنعوها أن تخلع معطفها وتتوضّأ وتصلّي لتدعو لأولادها بالنجاة. وكثيرًا ما كان أصحاب البيت يمنعون الأخبار عنها، الأخبار الكثيرة والمتناقضة التي تصلهم، ويكذّبونها لهولها، لم يصدّق عقلهم أن يُقتل أهل مدينة

بحالها وتهدم فوق أهلها! كانوا يمهّدون لفؤاد وسعاد بأنّه من الممكن ألّا يجدوا كلّ أولادهم سالمين. كانت سعاد تتّصل بجارة بيتهم في حلب، لتتحدّث مع بشرى وغادة، فتجدهما تبكيان. تتراكض غادة وبشرى وبقيّة البنات إلى الجارة وتسمع صوت بكاء الطالبات بجانب التلفون، كان التوق لخبر ينهش كلّ من كان بعيدًا عن المدينة ويريد الاطمئنان عن أهله. لم تكن سعاد تستطيع النوم إلّا لمامًا، دقائق وتصحو من الهلع والكوابيس، تصحو صارخة.. ومع كلّ كابوس يرجعونها للنوم، مؤمّلين الانفراج في الصباح القادم.

استيقظت في يوم عند الفجر، ارتدت معطفها وعقدت منديلها وأخذت مالاً من جيب زوجها، وخرجت من بيت الأقارب في ركن الدين إلى كراجات الشام. كانت تحدّث نفسها، سأنزل عند التحويلة التي يتفرّع الطريق عندها، وسأقطع المسافة كلّها مشيًا إلى حماة، وأرجو كلّ عسكري أصادفه أن يتركني أمشي إلى بيتي وأولادي، فإذا أصابتني رصاصة، أكون شهيدة عند الله..

كان النزول عند تحويلة حماة بنظر الناس جنونًا بعينه. وجد بعض السائقين الذين تعاطفوا مع الراكضين هربًا من المدينة وتوقّفوا لينقلوهم إلى القرى المجاورة، وهؤلاء السائقون هم من كانوا ينقلون أخبارًا عجيبة غريبة عن المدينة والفارّين منها.

جلست سعاد في مقعدها تنظر عبر النافذة وتبكي. وحين دخلوا مدينة حمص زاد بكاؤها، وحين اقتربت الحافلة من حماة، تركت مقعدها وهرعت إلى السائق، وقفت بجانبه وطلبت منه أن

يتوقّف عند التحويلة، طلبت منه بعيون محمرّة ولهجة آمرة أن يتوقّف. دُهش السائق والركّاب وظنّوا أنّها معتوهة، كان الدخان يتصاعد من المدينة، والمجنون فقط، برأيهم، من يتجرّأ على النزول أو يفكّر بمحاولة الدخول إلى المدينة، لكنّها أصرّت، وانهمرت دموعها وهي تعيد الأمر بحزم. أمام كلماتها باللهجة الحمويّة، أدرك الجميع بأنّها مهترئة قلقًا ولا تهمّها حياتها. انصاع السائق لها وتمهّل، لم يتوقّف تمامًا، فتح لها الباب ونزلت كأنّها قُذفت قذفًا. أغلق الباب وأقلع سريعًا من دون أن يراقبها أو يترك بقيّة الركاب الذين بكوا لبكائها يراقبونها ويراقبون مصيرها، ممنوع منعا باتًّا التوقّف هنا. تنبيهات لكراجات دمشق وحمص وحلب، ممنوع على السائقين التوقّف عند مدينة حماة.

كان أمام سعاد أن تقطع شوارع السفر العريضة بين السيّارات المسرعة باتّجاهين لتمضي باتّجاه حماة مشيًا، تلفّتت بالاتّجاهين، ثم ركضت، ونجحت بقلب يكاد أن يتوقّف. مشت ومشت، ولم تر شيئًا غير دخان يتصاعد وحين تتزايد أصوات المتفجّرات، تعرف أنّها تقترب، مؤمنة بأنّ لكلّ عسكري أمًّا، وسوف يسمح لها بالمرور، وبأنّها إن قُتلت برصاص طائش ستكون شهيدة عند ربّها، وينتهي عذاب الترقّب. مضت بإصرار، اقتربت أكثر وأكثر، إلى أن لاحت ملامح مدينة.

ارتاعت حين لم تجد المدينة، لم تجد الطريق الذي تعرفه وتظنّ أنّها ستسلكه لتمشي عبره وتقطع الجسر فوق العاصي بين الحاضر والسوق، لم تجد الحاضر، ولم تر الجسر الذي يوصل.

بهتت، كيف تذهب إلى أولادها في الجهة الأخرى من المدينة؟ للحظات فكّرت أنّها ربّما يتهيّأ لها ما تراه، بسبب قلّة النوم، ولكن أين السبيل؟ وقفت في وسط الطريق، تنظر، منديل رأسها معقود في فمها، ويداها مستسلمتان على جنبيها، تردّد، أين الطريق؟ أين البيوت؟ بيت أهلها، من المفروض أنّه قريب وأنّها تستطيع رؤية «الكيلانيّة» كما رسمت في ذهنها حين كانت شاردة في مقعدها.. لم تر شيئًا غير جبال من ركام، ودخان وغبار. لا تعرف كم طال وقوفها حائرة، أيّ طريق ستسلك؟ كانت تتوقّع بأنّها ستصادف عساكر ودوريّات لهم أمّهات يفهمون سبب قدومها، ولكنّها لم تر أحدًا ولا شيئًا غير أصوات المتفجّرات والمدينة خراب. لم تتزحزح لا إلى الأمام ولا إلى الوراء. ظلّت متسمّرة بعناد، لم تبك ولم تندب، كانت واقفة تنتظر، تفرك عينيها وتضرب كفًّا بكفّ، أحسّت بالألم في أسفل ظهرها، جلست القرفصاء، عينها لا تتزحزح عن الجهة التي كانت فيها المدينة. وفجأة رأت سربًا من بعيد، أناسًا يتراكضون، مجموعة من الأمّهات والأولاد يتراكضون كمن يتسابقون، هبّت سعاد واقفة، ثم كردّ فعل عفوي، ركضت باتّجاههم، كانت المرّة الأولى منذ بدء الأحداث يشاهدون شخصًا يركض باتّجاه المدينة، فالجميع يركض هاربًا من المدينة. حين التقتهم، كانوا عديدين، معظمهم من النساء والأولاد، وبعض العجائز من الرجال، كانوا يتراكضون بسرعة، لم تصدّقها سعاد، ابن الخمس سنوات لا يستطيع الركض بهذه السرعة، كذلك الشيخ الكبير والمرأة السمينة.. لكنّهم يركضون من غلوّ الروح خارج أعمارهم

وطاقاتهم. التقت سعاد بأوّل المتسابقات، حاولت إيقافها: ليش عم تركضوا خيتو؟ صاحت بها: اركضي بهيمة، كيف رايحة بالعكس؟ وكان الذي يليها ولدًا لا يكاد يبلغ الرابعة، يصيح بأمّه أن تحمله، وفجأة وجدت سعاد نفسها أمام ابنة عمّها، ابنة عمّها التي تزوّجت وسكنت بالقرب من بيت أهلها في منطقة «الحاضر». بدت المرأة غريبة الأطوار، أو أنّ هستيريا أصابتها. حاولت سعاد أن توقفها وهي تضمّها، ليش هالركض؟ ليش كلّ هالركض؟ بدل أن تتوقّف المرأة وتستجيب للعناق، ضربت سعاد لأنّها تعيقها عن الركض، ركضت سعاد في اتّجاه الخروج من المدينة برفقة الفوج، وطوال طريق ركضهم، كانت المرأة تروي لسعاد ما حدث لأهل الحارة. أدركت سعاد أنّه لم ينج أحد من أهلها وأقاربها في منطقة الزنبقي. صارت تأمل فقط أن ينجو أولادها، سألت حين وصل الفوج إلى الطريق العامّ وأدركوا بأنّه لا يمكن أن يطالهم القصف، وكان منظر سيّارات السفر بالاتّجاهين، والشارع العريض، الأوتوستراد، مبعث أمان للجميع، تربّعوا على الرصيف العريض، هانئين بالنجاة وبمنظر السيّارات المتسارعة، لقد نجوا. راحوا يرقبون الأوتوستراد بالاتّجاهين، من دمشق إلى حلب ومن حلب إلى دمشق.

لم يرغب أحد منهم بإلقاء نظرة إلى الوراء حيث المدينة تشتعل. هدأت المرأة قليلاً، ثم أخبرت سعاد حكايتها، أخذوا ابنها الوحيد، ورفاقه كلّهم قُتلوا، قالت: تعرفين أنّه كان رقيقًا ولا يقوى على القتال، أبقيته إلى جانبي، ولكنّهم أتوا وأخذوه، وطلبوا منّا أن نرفع الراية البيضاء ونخرج من البيت، وحملنا خرق ابن

بنتي، وركضنا، ثم أكملت، وتركونا نركض، وفجّروا الحارة وراءنا. .

ـ يقولون إنّ حارتكم لم تهدّم، أخذوا رجالها.

فكّرت سعاد: مخلص. . ابتلعت ريقها، وأحسّت تنميلاً في منابت شعر رأسها.

تركت الفوج الراكض مع ابنة عمّها المنكوبة في أقرب ضيعة وأعطتها بعض ما كان معها من مال، وأخذت الباص الماضي إلى حلب وذهبت إلى شقّة بناتها. كان فؤاد قد اتّصل عند الجارة عشرات المرّات منذ الصباح يسأل إن كانت سعاد قد وصلت إليهم، أدرك أنّ زوجته مضت إلى حماة ولم تستطع الدخول إلى المدينة، أكملت مجبرة إلى حلب، قريبة من جزء من أولادها، وفي اليوم التالي لحق بها، متجنّبًا النظر من نافذة الباص، ومتجنّبًا أن يتحدّث بكلمة واحدة مع جاره في المقعد عمّا يحدث في المدينة. كان الخوف ينهشه ويزعزعه، وفكّر بأن يمضي إلى بناته في حلب.

حين فُتح الباب للأمّ القادمة، لم تع بناتها من بنات غيرها، خمس بنات ارتمين في حضنها يبكين، وانهالت الأسئلة عليها دفعة واحدة، لم يكن لديها جواب ولا لسؤال واحد. كانت غادة الأكثر صياحًا، اشتاقت لإخوتها، تقول: هل ربيع بخير؟ هل مخلص بخير؟ بقيّة البنات يسألن عن أهاليهنّ وبيوتهنّ وأقاربهنّ. تجنّبت سعاد ذكر ما رأته من مشهد للمدينة ودخلت إلى المطبخ لتطبخ لهنّ طعامًا. كانت البنات انقطعن عن الجامعة تمامًا منذ اندلاع الأحداث، وغادة لا تذهب إلى المدرسة. قرّرت بشرى أن تقدّم

اعتذارًا عن السنة الجامعيّة، واكتشفت أنّ البنات، بعد أن انقطعن عن أهاليهنّ، بعن خواتم وأساور ذهبيّة لكي يصرفن على طعامهنّ. وجدت الثلّاجة شبه فارغة، وعشرات فناجين القهوة المتّسخة في المجلى، مع بقايا سجائر، حاولت إحدى البنات إخفاءها، ولكن لم يشغل سعاد شيء إلّا أن تسمع خبرًا عن ابنيها وبناتها.

وصل فؤاد في اليوم الثاني وأصبح البيت أكثر استقرارًا، أعطى البنات بعض المال، واشترى اللحم والفاكهة، وأشار عليهنّ بضرورة العودة إلى الجامعة، وغادة إلى المدرسة. كان يهجس كلّ الوقت أنّه لن يرجع إلى حماة ولن يرى مدينته ثانية، فالأخبار التي تصل تقول إنّه لم ينج إلّا من استطاع الهرب من المدينة أو من كان له قريب وواسطة في الجيش.

يتجوّل فؤاد كلّ يوم في سوق المدينة في حلب بتوق عارم لسماع خبر يطمئنه عن بيته وأولاده، عبثًا..

قُسّمت مدينة حماة، بلغة من هربوا، إلى أنصاف وأرباع، ربع هُدّم فوق أصحابه، ربع اكتفوا بهدم جزء منه بعد أن أفرغوه من أهله، وربع المدينة الجنوبي اقتادوا رجاله إلى فروع الأمن والمدارس والمراكز العامّة، أمّا أجزاء المدينة الشرقيّة والغربيّة، فقد قيل إنّها الأحسن حظًّا حيث لم تُصب بكثير من الأذى، إلّا تعذيب واعتقالات. سوق الطويل مكان عمله لسنين طويلة، نُهب وهُدم بالكامل، كذلك سوق الصاغة..

كان مجيء سعاد وفؤاد إلى بيت الطالبات رحمة، بعد أن قضين ثلاثين يومًا في حال يتم شديدة الوطأة. انزوين في البيت غير

راغبات بملاقاة أحد. أحسّت غادة أنّ رفيقاتها في المدرسة يتجنّبن الالتقاء بها، ومن ألمها قطعت درس معلّمة العربي التي كانت تناقش في حقّ الفقير على الغني، وقالت: حين تكون حياة الأسرة كلّها مهدّدة، لا يبقى هناك من حقّ لا للفقير ولا للغني، لا أعرف أيّ خبر عن أسرتي وبيتنا في حماة، والمدينة كلّها تحترق ولا أحد يعرف مصير أهله، فكيف أنتم كمعلّمين ومعلّمات في حلب لا يذكر أحد منكم حول هذا شيئًا! ولأنّها أجهشت في البكاء بعدها، فقد طلبت المعلّمة منها بهدوء أن تخرج من الصفّ. لم ترجع غادة إلى المدرسة، حتى جاء أبوها وأمّها وأجبراها على فعل ذلك، ولاحظت تجنّب البنات الالتقاء بها، لكنّها لم تعد مكترثة بشيء، كانت تحسّ بنقمة.

وصلت بالتدريج أخبار أهالي البنات بعد انقضاء فترة منع التجوّل، أقلّها سوءًا، كانت أخبار أسرة غادة وبشرى، نجت أسرتهما من الموت، أمّا بقيّة البنات، فقد قُتل أبو سميرة وأعمامها جميعًا في منطقة جنوب الملعب، هُدم بيتهم وبيوت أعمامها المتلاصقة، نجت أمّها وأخواتها. قُتل أخو مها الأوّل واختفى الثاني، نجا البيت من الهدم ونجت الأمّ والأختان الصغيرتان، مات الرضيع لسبب مجهول، ربّما يكون الجوع أو شدّة الحرارة التي أصابته ولم يستطيعوا إنقاذه.

أمّا البنت الثالثة والتي تُسمّى كفاح، فقد تأخّر وصول أخبار أسرتها. كانوا يسكنون في منطقة الزنبقي بالقرب من الكيلانيّة، قيل إنّ إخوتها أُعدموا عن بكرة أبيهم وعلى مرأى أهل الحارة، ثم فُجّر

بيتهم بمن فيه، البيت الذي تقطن فيه أمّها وأخواتها وزوجات إخوتها وأولادهم، لم يرجع من أسرتها القريبة أو البعيدة أحد على الإطلاق، لا عمّ، لا خال، لا طفل ولا قريب تلجأ إليه.

كان فؤاد يتناهبه شعوران، شعور الخوف من إيواء البنت بين بناته من أن يتعرّض وأسرته لمزيد من الأذى، وشعور أن يترك البنت تلقى مصيرها وحيدة. تلقّت البنت الخبر من دون أن يرفّ لها جفن، لم تسأل سؤالاً واحدًا إضافيًا، قالوا لها الخبر دفعة واحدة، لم يبق لك أحد، ظلّت جامدة عدّة أيّام من دون طعام أو شراب، بعد ذلك صارت تنتابها حالات عصبيّة غريبة، تتمثّل بالارتجاف الشديد، تطلب الغطاء بصوت منخفض جدًّا، ورغم أنّهم يرمون عليها كلّ أغطية البيت لكنّها لا تكفّ عن طلب المزيد بالوتيرة نفسها، صوت خافت وخائف. ظلّت في بيتهم في حلب بضعة شهور، ترعاها فداء وبقيّة البنات، يعدّون طعامها ويقنعونها أن تأكل، يخرجونها مساء بضع دقائق لتتمشّى، يقدّمون لها الحلوى وبعض الهدايا الصغيرة، بطاقة، شريط تسجيل، يسردون النكت أمامها، عبثًا، كانت تطيعهم وتفعل ما يطلبونه منها، لكنّها ظلّت ذاهلة، إلى أن غادرت سوريا بطلب من أقارب لها في الأردن، ولم يعرف أحد إن كانت قد عولجت هناك أم دُفعت إلى مصحّ.

اطمأنّ الأب والأمّ أنّ أبناءهما على قيد الحياة، وأنّ البيت لم يصب إلّا بنثار من القذائف وبعض الرصاص الطائش.

حين سُمح للباصات بالدخول إلى المدينة بعد أن سُوّيت بعض طرقاتها لعبور وسائل النقل، بدأ طريق الرجعة للمحاصرين في

الخارج، رجع المحاصَر ممتلئًا بالرعب. سعاد التي لم تكفّ لحظة تنقّ خلال فترة الأحداث، هدّدت بأن تنزل بمفردها إن لم يرافقها فؤاد، هو يريد أن ينتظر بضعة أيّام أخرى، ليختبر صدق فتح التجوّل، لكنّه انصاع أمام إصرارها وعاد إلى المدينة.

حين اقترب الباص من مدخل المدينة، وشاهدا تلال الخراب على الجانبين، ارتاع فؤاد، وشعر بألم حادّ في صدره جهة اليسار، وبألم غريب يمتدّ إلى يده، غامت عيناه مع صياح سعاد بجانبه، وتسارع الباص لكي يوصلهم إلى المحطّة ليقوموا بإسعاف الرجل. كانت الأعراض أعراض جلطة. وكان يرجو فقط أن يصل إلى البيت ليلتقي بابنته الكبيرة.

لم يغادر ربيع النافذة، كان ينتظر أمرًا هو نفسه لا يعرفه، ينتظر عودة أمّه وأبيه، أو ينتظر عودة أولاد الجيران الذين مضوا إلى الجهاد، أو أنّه يحلم بعودة الحياة إلى مجراها فيخرج ليلعب كرة القدم. كان ربيع أوّل من رأى أباه وأمّه قادمَين، وصاح يخبر أخواته وأخاه المستلقي في فرشته ذاتها. ترك ربيع نافذته وركض باتّجاه أمّه التي ركعت على قدميها في وسط الشارع، وراحت تقبّل يدي ابنها. سقط منديل رأسها وظهر شعرها رماديًّا تمامًا، ارتاع ربيع من منظر شعر أمّه، وراح يجهش، كيف صارت أمّه كبيرة هكذا خلال هذه الأسابيع؟

كان الأكثر ثرثرة عمّا حدث هما ربيع ولينا. تجنّبت سماح اللقاء بأحد، تتصرّف كأنّ الذنب ذنبها، أخوها خارج البلاد في أمان بينما المدينة بحالها تدفع الأثمان. أثارت سمر إعجاب أبيها

بحكمتها، هي من تدبّرت أمر مؤونة البيت، وهي من أنقذت أساور أمّها وذهب أخواتها في صدر ثيابها. وقرّرت أنّها ستذهب إلى وظيفتها في البنك بمجرّد أن يبدأ عمله.

استلقى فؤاد في سريره في غرفة نومه أيّامًا طويلة، وانشغلت سعاد بإعادة ترتيب بيتها، الفرش والملاحف والشراشف، السقيفة، تموين البيت من جديد، كانت تفعل هذا، وبين الحين والآخر تلتقي نسوة الحارة وتسمع أخبار الأهل والأقارب والجيران. تزور أمّ غالب وتؤمّلها بأنّ زوجها راجع، رغم يقين الجميع بأنّ الرجل كان من تلك الدفعة التي قُتلت بالكامل.. بين ساعة وأخرى ترجع سعاد لتكفكف دموعها، وتقول: أتذكرون فلانًا؟ قُتل وظلّت جثّته في الحارة أربعة أيّام لم يستطع أحد حملها، أبو فلان وبعد أن فجّر البيت على أولاده، راح يتأمّل كلّ يوم بقايا جثثهم منثورة على الجدران، معدة، يد، قلب، ساق.. هجّ من البيت وراح يمشي غير آبه بالجيش إلى أن قُتل، أمّ فلان قُتل أبناؤها أمامها، وحين رمت بنفسها فوقهم أطلقوا الرصاص عليها أيضًا، الله يرحمها كم كانت كريمة. بنت فلان كانت في القبو جالسة مع أمّهات أخريات، في حضنها بكرها ثلاث سنين، دخلوا ورشّوا الرصاص على كلّ من في القبو. ابن فلان وهنا أجهشت، الصبي رفيق ربيع وبعمره، عُذّب كثيرًا قبل أن يُقتل لأنّهم اعتقدوا أنّه يعرف السلاح المخبّأ في الحارة. أخت فلان قُطعت يدها لأنّهم لم يستطيعوا سحب أساورها من يدها.. فلانة شرموا أذنيها من أجل انتزاع أقراطها..

وفلان الذي اشتهر بأنّه ظلّ قابعًا أسابيع الأحداث كلّها في

قعر الناعورة، هرب ونفذ من القتل الذي لحق كلّ أهل حارته. إلّا أنّه قضى الفترة كلّها يتسلّل إلى سقيفات البيوت ليلاً ليلحس بقايا قطرميزات متروكة له وللفئران، ويشرب، قالوا، من بوله.

وتلك المرأة التي من لهفتها وخوفها رمت ابنها في النهر بدل بقجتها..

* * *

سارعت فداء في أوّل فرصة إلى مغادرة المدينة. التحقت بمشفى للاختصاص، تريد أن تنهي أمر علاقتها بالمدينة التي لم تعد تعني لها إلّا الموت والخوف. حدث بداخلها تغيير كبير، لم تعد تكترث أن تسمع أخبار العالم كما كانت تفعل، لم تعد تكترث إطلاقًا بأخبار فلسطين، التي كانت تتابع وتحصي شهداءها كلّ يوم.. وانعكس هذا حتى على محيطها القريب، لم يلق الأب الحنان الذي انتظره من ابنته الكبرى، ساعدته من دون أن تقترب من وجدانه، كانت بعيدة عن وجدانها أيضًا، كان بداخلها شعور واحد، هو جوع وبرد الأحداث، وذاك الرعب الذي عاشته حين أخذوا أخاها مخلص ورجعوا في الليلة نفسها، ثم ذلك الفجر الذي فجّروا فيه مآذن الجوامع واعتقدت أنّ القيامة قامت.

ترك مخلص فرشته لكي يشارك بالمسيرة الجماعيّة التي أُجبر من تبقّى من أهل المدينة على القيام بها، تحيّي فيها الرئيس وتبيّن ولاءها له، تدعو له بطول العمر، وعلى الشعب أن يفديه بروحه ودمه وولده. كانت آخر مهمّة قام بها الجيش هي توزيع اللافتات،

عدد كبير من اللافتات، كُتبت فيها عبارات الولاء وصور الرئيس. تناول مخلص حصّته مثل الناس، وخرج في المسيرة حاملاً لافتته، من دون أن يقرأ ما هو مسطور فيها، رجع من المسيرة بصدع نفسي جديد.

لم يعد يطيق، في الليلة نفسها أرسل يرجو أيمن أن ينتشله من الجحيم.

بعد أن شهد مخلص الأحداث، وحدث ذاك الصدع في داخله، لم يعد يرغب بالشرب أو السهر، ولم يعد يصعد إلى السطح للمغازلة، كما لم يعد يتدخّل إن أُسدلت ستائر البيت أو تُركت مكشوفة. التزم الصمت وأطرق برأسه. ورغم علمه بأنّه ماض إلى سجن آخر في السعوديّة، حيث لا شرب ولا سهر، فإنّه طلب ذلك فقط لأنّه لا مخرج آخر من هذا الهول، أبناء عمّه الذين كان يسهر معهم قُتلوا، ولم يعد هناك من سبب لبقائه، وابن خالته قُتل، عمّه الوحيد مات بالجلطة على قتل أبنائه، معظم رفاقه الذين كانوا متواجدين في حماة قُتلوا أو اختفوا.

وضع مخطوطه في مكان ما، لم يعرفه أحد، أخذ بضعة قمصان وبناطيل وسافر مع زوجته.

وكانت صدمته الأخرى باستقبال أخيه أيمن ساخرًا:

ـ وتخرجون بمسيرة تحيّون قاتليكم؟

أجابه بمرارة:

ـ كنّا مجبرين!

صاح أخوه كارهًا:

ـ مجبرين؟

ـ يا أخي فكّر بالبنات، حدث الكثير من حوادث اغتصاب البنات.

أجاب أيمن، وماذا يعني الاغتصاب أمام القتل الجماعي والمقابر الجماعيّة؟ قال بغضب شديد، كان على الناس ألّا تستسلم هكذا.

قال مخلص وهو يبتسم بمرارة:

ـ ينقصك القليل من الخيال، ماذا سأفعل أنا الآن في السعوديّة؟

ومنذ اليوم الثاني انشغل مخلص بالترتيب للسكن والبحث عن مشروع يبدأ العمل به. وهذه التحضيرات لم تأخذ منه الكثير من الوقت، فهم رغم خساراتهم التي حدثت من جرّاء الأحداث، هُدمت دكّان الأب، وهُدم البناء الذي كان قيد الإكساء والبيع، دفعوا الكثير من الرشاوى لخروج مخلص من البلد، إلّا أنّ فؤاد قدّم ما تبقّى لديه ليؤمّن مخلص خارج البلد. حصل مخلص على مساعدة من أخيه ومن أقارب زوجته، بعض المال ليبدأ محلًّا صغيرًا لبيع الإكسسوارات.

رجع مخلص إلى الحياة بالتدريج، ورجع لعادته القديمة في شرب العرق، رغم صعوبة تأمينه في السعوديّة وخطورة فعل ذلك. تعرّف على شلّة لا يستغني رجالها عن المشروب الليلي. كانت

سعادة سماح كبيرة حين رجع زوجها في اليوم الأوّل من عمله ضاحكًا: تفضّلي، هذا لك وللبيت، وعرفت أنّه اقتطع فقط ثمن مشروبه. ارتدت له ثياب الرقص وجعلته يقضي ليلة لم يعشها منذ ليلة زواجهما. لم تعد سماح تأبه بتعليقات أقاربها بأنّ زوجها يشرب الخمر ويعصي الربّ، كما لم تعد تأبه بتشاوف سلفتها عليها لأنّها زوجة الكبير المفضّل، والأكثر مالاً وجاهًا. كانت تخطّط لأمر واحد وهو أن تدفع الجميع لتغيير نظرتهم إلى زوجها، بأنّه ليس أقلّ شأنًا من أيمن. كانت تتابع مع زوجها كلّ تفصيل يخصّ المحلّ، وتكاد تعرف أنواع البضاعة التي يشتري ويبيع، وماركات حوامل البرادي وقبضات الأبواب، وأجرة العامل الذي لديه.. اهتمامها هذا ساعد مخلص في تحسين تجارته. كان يرى أنّ لديها موهبة وذاكرة خاصّة، تُشير عليه بأن يكرّر شراء صنف أو أن يوقف شراء صنف، كما أنّ موهبتها الاجتماعيّة، وعلاقاتها مع نسوة مدينة الرياض، زادت عدد زبائن المحلّ، وسريعًا سريعًا استطاعوا استئجار المحلّ المجاور وتوسّعت أعماله. أحضرت سماح الشغّالة واستأجروا شقّة كبيرة في بناء جديد في وسط الرياض.



حين تحسّنت صحّة فؤاد، في أواخر شهر آذار، التقى بجاره وصديق عمره أبو خيري، وترافقا سويًّا لتفقّد أحوال خراب المدينة والأرزاق. لم يطل غيابهما كثيرًا، رجعا بوجوم وذهول، لم يسعفهما الخيال لفهم كلّ ما شاهداه، لم يجدا شيئًا أو زاوية أو ركنًا كما كان، إمّا تهدّم، أو بات آيلاً للسقوط، لم يجدا أيّ مئذنة فوق جامع، ولم يجدا أيّ حارة كما كانت، كأنّ المدينة أُعدمت، أو أُلغيت، بيوتها وأشجارها وأسواقها، لا أثر لاسم أو عنوان كما عرفوه، غبار كثيف وكتل من الركام.

نجت بعض الدوائر الرسميّة من الهدم وإن لم تنج من السلب.

حين رأى فؤاد سوق الطويل ركامًا طويلاً، سحب صاحبه وأدار ظهره سريعًا، قال: أحسّ أنّي رجعت ابن عشر سنين، فقيرًا وضعيفًا، آتيًا ليشتغل أجيرًا عند الخيّاط. قال أبو خيري بصوت عميق ومجروح:

ـ يا ترى هل سنستدّ يومًا؟

زفر فؤاد، صورة ابنه مخلص ينهض من فرشته بجسد متهدّل وضعيف، منصاعًا يحمل لافتة ويتّجه بها إلى ساحة العاصي، ووسط ركام المدينة، يشارك من تبقّى من أهلها في تقديم الشكر والولاء والطاعة والنداء بفداء الرئيس بالروح والدم، كانت صورة لا تفارقه، تُذلّه وتؤلمه وتضرب في صميمه، ولكنّ كلمة الثأر طعنته كسكّين في أعماقه، وبعثت عنده إحساسًا ثقيلاً، كان يتقاسم مع الجميع إحساسًا بالظلم والحنق والمهانة، ولكن أن يفكّر بالثأر! هذا أمر كريه آخر، هزّ رأسه رافضًا ومشى قائلاً: الله يخلّي يلي سلم، حاج خيّو، خلصنا. كفكف أبو خيري دموعه التي تهطل كلّ حين.

صادفا بعض المعارف، كان الأحياء يتفقّدون بعضهم بعضًا، وكلّهم لا يعثرون على الأعزّاء الذين ينتظرون.

رجع فؤاد إلى البيت حاملاً باقتين من الكرّاث، ونصف كيلو من اللحم، وليمونًا. ناول سعاد حمله، خلع حذاءه، وضعه باستسلام على درج السقيفة، وهرول حافيًا إلى غرفة نومه، أغلق الباب، ينوي البقاء فيها إلى الأبد.

كانت صور المدينة والحارات تشوّش ذاكرته، أو فهمه لكلّ ما رآه. قرأ الكثير في كتب التاريخ، وقرأ عن مجازر عديدة حصلت، وكان يتخيّل هولها، ولكنّ ما رآه واقعًا حدث خلال أسابيع، لم يصدّق عينيه، المدينة أُلغيت، بأهلها وعمارتها. كان يملؤه إحساس بالضآلة، بم سينجو؟ ومن أجل ماذا الآن؟

تذكّر دواءه، كان موضوعًا على الكومودينو بجانبه كأس ماء،

نصفها مملوء ويعلوه الغبار، أيّ ماء يجري الآن في المدينة؟ وكم من دماء اختلطت بماء المدينة، أطفال وشباب وأمّهات. . تذكّر أخاه الوحيد وأولاد أخيه حين كانوا أطفالاً يطرقون الباب صباح العيد بثياب جديدة وضحكات خبيثة، يتراكضون على الدرج، وحين تراهم زوجة عمّهم يدّعون التهذيب ويجلسون على الكنبات، وما إن تأتي بنات عمّهم حتى يبدؤون بتقليدهنّ، يقوم الأوسط منهم بتقليد غادة فيمشي رافعًا رأسه، وتقليد لينا فيمشي بدلع، وتقليد بشرى فيضحك ملء فمه. وحين يدخل عمّهم، يجلسون بتأدّب، ثم يتناولون قطع البقلاوة، وهم يتضاحكون. لم يبق منهم أحد، ولا أبوهم. كلّما حاول فؤاد تجميع ذاكرته ليحصي من فُقد ومن بقي، يشعر بدوار، رجعت صورة أبناء أخيه يمدّون أيديهم الصغيرة لأخذ العيديّة منه. مسح وجهه وعينيه، وجلس على طرف السرير، كيف يتماسك وينسى؟ يفكّر، لم يعد شابًّا لكي ينظّف ذاكرته ويمسح سِنِي عمره الطويلة.

نادته سعاد للغداء، لم يجب، فتحت الباب متسائلة، قال: كلوا ولا تنتظروني. لكنّها ألحّت. كانت سمر ولينا تنتظرانه أيضًا. جلست سمر مرتدية قميصًا أخضر ويبدو عليها أنّها تحمل أخبارًا، عيناها تلتمعان، سكبت الكرّاث وتناولت رغيف الخبز، وقالت وهي تعصر الليمون:

ـ سيصرفون تعويضات للمتضرّرين من الأحداث.

حبس فؤاد اللقمة في فمه، وتسارع خاطر واحد إلى رأسه، لو يمرّ يوم واحد من دون أخبار، أيّ تعويضات تعوّض ما حصل؟

قالت: ستقوم البنوك بتوزيع هذه التعويضات على الناس الذين هُدّمت محلّاتهم أو بيوتهم أو فقدوا أُناسًا، على أن يوقّعوا أنّ من تسبّب في خساراتهم هم جماعة الإخوان المسلمين. نظر فؤاد في وجه ابنته بيأس، منتظرًا تتمّة الخبر، قالت: أن تأتي الأرملة وتسجّل أنّ زوجها قتله الإخوان وجثّته مجهولة. أغمض فؤاد عينيه، أرادت أن تختصر الحديث وتخفّف من أسى أبيها: بابا نستطيع أن نطالب بتعويض عن الدكّان التي هُدّمت، والرزق الذي كان فيها. ثم استأنفت، يقال إنّ سوق الطويل سوف يعمّر من جديد.

لم يدرك أحد عمق الانكسار الذي يحسّ به الرجل، وأنّه لا قيمة للأيّام المتبقّية من عمره، وأنّه، في حقيقة الأمر، لا يريد إعادة بناء دكّانه، يريد أن ينسى كلّ شيء، لم يتقبّل ما حدث، ولا يريد أن يتقبّله، وإن قبله الآن، يحسّ بالمهانة ويرغب بطيّ المهانات، طيّ الذاكرة كلّها. نظرت إلى أبيها تنتظر جوابًا، ثم قالت بتردّد: سوف أتقدّم بطلب تعويض عن الدكّان وعن سيّارة أخي والبناء الجديد الذي هُدّم، وما إن نطقت باسم البناء الجديد حتى أصابت فؤاد ثورة من الغضب، وقال آمرًا: لا تفعلي.

قالت: الدكّان وبضاعتها فقط.

كان يخشى وبعد أن سافر مخلص أن يُذكر اسمه في أضابير التعويض، كان يريد أن يحمي أبناءه من سجلّات الدولة، يريد أن يتجنّب أيّ دائرة رسميّة، لأنّها تعني الدولة، الدولة التي تقتل أبناءها وتهدم بيوتهم. مخلص صاحب السيّارة، ومخلص صاحب

مشروع البناء الذي لم يكتمل، بناء على العظم، لجأ إليه بعض المقاومين، كما فعلوا عند كلّ بناء مهجور، وقاوموا ببضع رصاصات كانت في أسلحة مطمورة في بيوت، قُتلوا جميعًا وما زالت بقايا جثثهم ملتصقة على عظم البناء.

لم يقبل فؤاد أن يذهب إلى البنك لكي يوقّع أوراقًا ويشهد بشيء، كما لم يقبل أن يوقّع على الأوراق التي أحضرتها سمر إلى البيت، محاولة وأمّها أن تقنعاه بأن يوقّع لكي ينال حقّه مثل كلّ المتضرّرين. لم تفهم سمر وأمّها سبب رفضه. كان يريد لحقّه الذي ضاع أن يبقى مقدّسًا، أو كان يريد لحقّه أن يكون في أيقونة تعادل كمّ الآلام والفجائع التي عاشوها.

بعد أيّام قليلة جاء سعاد خبر موت أخويها، وكانت تأمل بأنّهما معتقلان مثل غيرهما، ولكنّ أقاربها أكّدوا لها بأنهما اقتيدا يوم الجمعة، ومن اقتيد يوم الجمعة يعني أنّه قُتل. يوم الجمعة الأخير من الأحداث، رجع الجيش وقام بحملة تمشيط واسعة وحاسمة وأخيرة، اقتاد كلّ الرجال الذين تبقّوا في بيوتهم. ولم تنج من هذه الحملة حتى الأسر المسيحيّة، اقتادوا حتى العجائز منهم الذين يبركون في فرشاتهم. وقتلوهم جميعًا ودفنوهم في مقابر جماعيّة ما زالت مجهولة المكان. يتردّد بين الناس أنّ كلّ حديقة أنشئت حديثًا هي مقبرة جماعيّة، كلّ أرض دُرِست وسُوِّيت لينشأ عليها مشروع جديد هي مقبرة جماعيّة والهدف طمر الحقائق والحقوق.

* * *

حزم فؤاد وسعاد أمرهما بأنّه لا حياة لعائلتهما في هذه المدينة، أرسل لابنه أيمن يخبره بأنّه ينوي القدوم إلى جدّة مع الأسرة كلّها. كان من الصعب إقناع فداء التي بدأت دوامها في مشفى الكندي في حلب، كذلك سمر التي تعبد شغلها ووظيفتها، إلّا أنّ قرار الأب كان قاطعًا. وافقت البنات، سيرضخن الآن له، وربّما يمكثن فترة قصيرة هناك، ثم يرجعن إلى سوريا.

مع حلول الصيف، كانت أوراق السفر جاهزة. أُغلق البيت بطوابقه الأربعة. أقفلت سعاد الباب بيدها، ونظرت نظرة أخيرة إلى واجهة البيت المثقّبة بآثار الرصاص والقذائف، نادتها البنات أن تسرع، فأسرعت، تربط منديل رأسها وتمسك حقيبة جوازات السفر بكلّ حرص. توجّهوا إلى المطار، البنات الخمس وربيع والأبوان.

انشغلت البنات في السوق الحرّة في المطار، وتضاحكن. انشغلن تمامًا بالشراء والتشاور بينهنّ عن العطور وأنواع الشوكولا. نظرت فداء إلى أبيها، فوجدته ينظر بارتياح، خفّ ضيقه. كان يحسّ بالخذلان بعد أن تأمّل في دمشق عامرة وحيّة وغير مكترثة.

وبسبب شعوره بالغبن، دلّل البنات أكثر وترك لهنّ أن يخترن ما يرغبن من السوق الحرّة. كانت سمر الوحيدة التي تحمل سلّتها بيدها وتحاسب عن نفسها. راحت سعاد تؤنّب البنات وتؤنّبه أنّه يفلت الحبل وأنّه عليهم أن يضبّوا الكفّ، فقد أصبح الآن بلا دكّان ولا رزق، وأنّه لا يمكن الاعتماد طوال الوقت على مساعدات أيمن. ضايقه كلامها، هو أيضًا لا يريد أن تعتمد البنات على أخيهنّ، إنّما أراد في تلك اللحظة تعويضهنّ عن حرمانهنّ.

حين فُتح باب الطائرة في مطار جدّة، هبّت موجة حارّة رطبة ثقيلة. كانت غادة أوّل المغادرين، صُدمت بالحرارة الثقيلة، شهقت وتراجعت ولكنّ تدفّق المسافرين خلفها لم يدع لها فرصة أخرى، ركضت قفزًا على درج الطائرة إلى الباص المنتظر والمكيّف بالتأكيد، وعند الدرجات الأولى، قالت لأمّها: كيف يعيش الناس هنا؟ لا أستطيع التنفّس. كانت الأمّ الموعودة بالأرض المباركة هي الأكثر احتمالاً لهذه الصدمة الجوّيّة، أجابت بإصرار: سنعتاد، إنّها أرض المصطفى حبيب الله.

انبهرت البنات بالڤيلّا التي يعيش فيها أيمن وأسرته، وتمتّعن بما أغدق عليهنّ، المطاعم والفنادق ومجمّعات الماركات العالميّة، أدوات التجميل والعطور. . إلّا أنّ تقطيبة زوجة الأخ وغضبها الواضح من قدومهنّ، جعلاهنّ منذ اليوم الأوّل يخطّطن للعودة إلى سوريا. كانت توغل في إظهار جمالها وفخامة ثيابها وزينتها، وتوغل في انتقاداتها لدين البنات، تتشاوف بتديّنها وشقرة شعرها، ممّا يحرجهنّ ويربكهنّ، عالة على البيت، وعليهنّ الرحيل

فورًا. لم تحاول سها استفزاز حماتها، حماتها لا تفوقها علمًا، أمّا البنات فكلّهنّ أكثر منها علمًا، كانت فداء تتجنّبها وتتجاهلها، وتقضي وقتا طويلاً في المطبخ مع الشغّالة، أمّا سمر فتبقى مع أولاد أخيها، وكذلك غادة، بشرى لا تترك التلفزيون رغم تذمّرها الدائم من برامجه، حيث يصبح زمن الفيلم العربي بعد القصّ ثلث ساعة. أمّا لينا فكانت تتغلّب على وطأة الوقت ووطأة زوجة الأخ بأن تجرّب ثيابها، وتتزيّن وتتهندم.

فهمت لينا محيطهم بهدوء واخترقته ببساطة وبفترة قصيرة، وعرفت مفاتيحه، تهتمّ بالحليّ والثياب وأسرار المكياج من دون أن تستفزّ أباها، وهي بطبيعتها التي نالت الدلال من الأمّ والأب ولم تلق التشدّد الذي نالته أخواتها، فقد كبرت أكثر تسامحًا وأقلّ اكتراثًا بما يجري حولها. في كلّ ما تبديه من ردّات فعل تبدو مرسومة أو ممثّلة، كان لديها مثل غادة وبشرى طموح الزواج من عريس تتفوّق به على حارتهم وجيرانهم ومن حولهم ممّن تعامل مع أخواتها على أنّهنّ سمراوات وغير محجّبات، كان اهتمامها أقرب إلى اهتمام بنات المدينة وصبايا الأقارب، كسرت رغبة أبيها الباطنيّة بمنع إظهار أنوثتهنّ أو أنّ تلك الرغبة كانت قد كُسرت عند الرجل حين كبرت لينا. اهتدت إلى أنّ الحلّ الأمثل لتحقيق طموحاتها هي أن تتواصل مع الجميع، والتواصل مع الجميع يعني مجاملات كثيرة، لِمَ لا؟ حين كانت غادة تكاشفها، تُدير لها ظهرها ولا تُجيب، وتمضي في طريقها، كبرت وصارت الأكثر حنكة بين أخواتها. هامت أمّها بها، ها هي إحدى بناتها تفهم هذا المجتمع وتقتحمه. تقدّم لخطبتها وهي لم تتجاوز الرابعة عشرة عدّة شباب

ممّن كانوا يعملون في السعوديّة، مهندسون وأطبّاء، أفرحت أمّها. تعرف سعاد أنّ فؤاد لن يقبل بزواج بنت قبل أن تكمل جامعتها، لكنّ البنات الأربع قبلها لم يدقّ بابهنّ أحد! تفكّر الأمّ قلقة كلّ الوقت.

لاحظ فؤاد تشاوف كنّته على بناته، لكنّه تجاهلها، مبرّرًا أنّ الأمر جديد عليها وسوف تعتاده، الڤيلّا واسعة، ويمكن لكلّ فرد أن يستقلّ بغرفة بعيدًا عن الآخرين. لكنّ سكوتهم جميعًا على سها جعلها تمضي أكثر في تعنّتها، تتعمّد أن توصل صوت تذمّرها كلّ ليلة في غرفة نومها مع زوجها، تُعيد وتكرّر أنّها مأسورة، ولا تشعر أنّها حرّة مع أسرتها. . لم تنته الصيفيّة والشهران إلّا وكان قرار فداء واضحًا: لا يمكننا البقاء هنا. جرّب أيمن أن يغريهنّ بأمور كثيرة، لكن لم يفلح، تعرّفن على حياة النساء في السعوديّة، وحضرن حفلات زفاف عديدة، وشهدن كيف تزفّ الضرّة ضرّتها إلى زوجها. تناولن أنواع الأطعمة والحلويات في أفخر الفنادق والمطاعم. اشترين ثيابًا وعطورًا وحليًّا كثيرة، كان قرار البنات بالعودة إلى حماة قاسيًا على فؤاد، لكن، وبعد جلسة نقاش واحدة مع فداء، أذعن، كانت حجّة فداء، هل سنمرّ بأسوأ ممّا مررنا به خلال الأحداث؟ رجعت البنات الخمس فقط، وظلّ فؤاد وسعاد وربيع، يجرّبون الاستقرار في جدّة.

ذرفت الأمّ وهي تودّعهنّ في المطار دموعًا قاسية، أحسّت فداء أنّها ليست دموع حزن على فراقهنّ، بقدر ما كانت حسرة وألمًا عليهنّ، أدركت أنّ السبب الرئيسي لمغادرتهنّ هو تعامل

زوجة أخيهنّ وتشاوفها، المرأة الشقراء ذات البشرة البيضاء، وهنّ البنات السمراوات اللواتي لم يطرق بابهنّ عريس، وهنّ بالتأكيد بلون الجلد وبدون العريس أقلّ شأنًا، وتحوّلت شهادة الطبّ التي تحملها الكبيرة وشهادة التجارة للتي تليها ومشروع الطبيبة للثالثة، كلّه تحوّل إلى نقمة عليهنّ، فالعريس فقط هو القيمة الحقيقيّة في عرف الناس. أرسلت بناتها مع ألف توصية، ورجعت تجهش بجانب زوجها.

عادت البنات الخمس إلى سوريا، جزء يستقرّ في حماة، وجزء يستقرّ في حلب. ما زالت لينا في المدرسة وعليها أن تلتحق بأسرع وقت، انقطعت سمر عن وظيفتها، وتسلّم مكانها موظّف آخر، وأخذت تخطّط قلقة كيف تستردّ مكانتها. أمّا فداء فسوف تبدأ اختصاص الأطفال في مشفى الكندي في حلب، وترجع بشرى إلى السنة الرابعة طبّ. لم تسأل غادة عن نتيجة البكالوريا لأنّها تعرف سلفًا أنّ العلامات سيّئة، حجّتها، كيف أُحاسَب كغيري من الطالبات، وأنا لم أدرس ولم أداوم أكثر من ثلاثة شهور من السنة الدراسيّة..! لم يكن هناك أيّ مخطّط، كانت تفكّر بأمر واحد، وهو أنّها لا تريد أن تعيش في بيت حماة ولا تريد أن تمشي في حارات حماة المهدّمة، ولا أن تُقابل وجوه الناس الملبّدة. تريد الذهاب إلى الجامعة، تلبس الثياب الجديدة التي أحضرتها من السعوديّة وتتصرّف كأنّها ابنة عائلة ثريّة، كانت كلّ حين تلتفت إلى بشرى وتسألها كيف هي حياة الجامعة، الطلّاب والطالبات، كيف يتحدّثون ويتضاحكون.. قاطعتها فداء: من الأفضل ألّا تختلطي مع الشباب. فوجئت غادة بنصيحة أختها، تعرفها، عاشت حياة

جامعيّة بصحبة شلّة من الشباب والبنات، كانت تنقل كلّ تفصيل لأبيها ولأخواتها فيحلمن بعيش ما عاشت. ودائمًا هناك وضوح وجرأة، طلّاب وطالبات يتضاحكون ويتناقشون ويخرجون ويقرؤون. . تغيّرت فداء، تغيّرت كثيرًا بعد الأحداث، فكّرت غادة، وسألت أختها عن السبب، أصرّت فداء على رأيها، من الأفضل عدم الاختلاط بالشباب، وأضافت: كذلك لا تكثري من الصديقات، رفيقة تذهبين معها وترجعين معها، ولا تثقي بالآخرين سريعًا.

لم تتمعّن غادة بالفرع الجامعي الذي تريد دراسته، فلتدرس الأدب العربي، الأدب الإنكليزي، الهندسة الزراعيّة، العلوم. . أيّ شيء. حين سألتها فداء عن ميولها، وأنّ عليها أن تختار الفرع الذي تميل لدراسة موادّه، وساعدتها بأن قالت لها: أظنّ أنّ الأدب الإنكليزي يناسبك، لكنّها آثرت العلوم، وقالت: سأكمل دراسة مخبر وتحليل وهكذا أصبح مثل طبيبة. لم يناقشها أحد بعد ذلك، ساعدتها بشرى في التسجيل في الجامعة وأخذتها إلى أماكن شراء الكتب. . سجّلت الجدول وعادت إلى البيت قاطعة طريق الجامعة الطويل مشيًا على الأقدام، تحلم بحياة الجامعة والحرّيّة. كانت مسحورة بشمس تشرين، تشعر بتفاؤل وتفكّر بأنّها بثيابها وأناقتها التي تفوق كثيرات من بنات العلوم سيسهل عليها العثور على دكتور جامعة ثريّ يتزوّجها. . هذا كلّ ما كان في رأسها، زوج ثريّ تجاكر به زوجة أخيها سها وتفخر به أمام رانية ورفيقاتها في المدرسة اللواتي آثرن إعادة البكالوريا، حيث لم يكن من العدل احتساب سنة الأحداث سنة دراسيّة. اعتناء غادة الشديد بثيابها

وعطرها وأحذيتها وجزادينها، انتظارها اليومي للعريس، بعث في وجهها ومشيتها ملمحًا جعل الكثير من الشباب يستسهلون الاقتراب منها. لم تستطع أن تحدّد سبب هذا السيل من المعجبين الذين يجرؤون على التحرّش بكلمات نابية. اقترب أحدهم منها وقرصها من مؤخّرتها، وفي شارع معتم، فتح أحدهم بنطاله وأخرج عضوه وكانت المرّة الأولى التي ترى عضو الرجل وأصيبت بالهلع.. بعثت هذه الوقائع عقدة الخوف أن تمشي بمفردها. وفي الوقت نفسه كانت تخجل أن تخبر أخواتها عن هذه المشاكل، كانت تظنّ أنّها ترتكب خطيئة ما، تجعل الشباب يتجرّؤون عليها.

كانت برفقة فداء تصعدان في الباص حين مدّ أحد الشباب يده وقرصها، واكتشفت فداء فعلته، وانهالت عليه بالصياح، هرب الشابّ تلاحقه شتائم الركاب. وحين جلستا في المقعد، راحت فداء تشرح لها كيف تركب الباص وكيف تتصرّف كي تتجنّب هذه الحوادث، وأنّه عليها ألّا تسكت أمام هذه الاعتداءات، وأمرتها في النهاية أن تتجنّب ساعات الازدحام، وألّا تصرف وقتها في رسم كحل العين وكيّ ثيابها، خجلت غادة، إذ اكتشفت أختها بأنّها تتعرّض لهذه المشاكل وتسكت عنها.

حين التزمت بنصائح أختها، قلّ الخوف اليومي، وصارت أوقات البقاء في الجامعة أطول والجلوس في المكتبة المركزيّة للدراسة ومراقبة بقيّة الطالبات والطلّاب يأخذ وقتًا أيضًا، كان آخر أمر تفكّر به هو أن تفهم المحاضرات وتتابع ما يشرحه المحاضر. كان الدكاترة بعمر متقدّم، متزوّجين ولديهم أسر،

وتبدّد أوّل حلم بأن تعثر على دكتور يتزوّجها، وندمت لأنّها اختارت فرع العلوم، افترضت أنّها لو اختارت الهندسة الزراعيّة لتهيّأت لها فرصة التقاء مهندس يكبرها بضع سنين تتزوّجه وتكمل دراستها. تذهب لزيارة أختها في كلّيّة الطبّ، علّها تعثر على طبيب على وشك التخرّج، تسأل أختها مواربة عن أخبار الشباب، من يفكّر أن يتزوّج سريعًا، ومن هو قادم من أسرة غنيّة، أو من كان لديه صيت، علّها تبني عليه حلمها، عبثًا، مضى الفصل الأوّل سريعًا، وما في الرأس إلّا الحلم البليد ذاته، عريس تجاكر به الشقراوات المتزوّجات.

فوجئت برسوبها في كلّ الموادّ.

كانت صدمة كبيرة.. نفرت من حلمها الذي كانت تحلمه وتكرهه في الوقت نفسه، كانت مكرهة تحلم.. عريس!

حين وصل خبر رسوبها إلى السعوديّة، قرّر فؤاد وسعاد أن يرجعا مع ربيع إلى سوريا.

لم تستطع أن تُجيب أحدًا عن سبب الرسوب، ولم تكن تعرف هي نفسها السبب الحقيقي.

جلست فداء معها في أحد المساءات وسألتها عن سبب إهمالها للدروس، أنصتت إليها كما فعلت حين نالت علامة سيّئة بالرياضيّات في الرابع الابتدائي. سألتها الآن عمّا كانت تفعله حين تجلس والكتاب بين يديها، لم تجب بوضوح، قالت إنّها تشرد بأمور كثيرة، لم تخبر عن سبب شرودها، أنّ العريس الحلم الذي تستطيع أن تجاكر به زوجة أخيها الشقراء، سبب أساس؟ لم

تمانع حين قالت لها أختها بشرى بأنّها ستساعدها بالدراسة، حيث إنّ موادّ السنة الأولى علوم تتقاطع مع موادّ السنة الأولى طبّ.

بذلت فداء وبشرى جهدًا كبيرًا لمساعدة غادة على الدراسة وتعويض ما فات. يستيقظن باكرًا في فصل الربيع، يعددن القهوة ويجلسن للدراسة مع رائحة زهر الليمون، وقبل موعد دوام الجامعة تقوم فداء بإعداد فطور جيّد لأختيها، وتحاول أثناء تناول الفطور أن تدمج غادة معهما في حديث مشترك وأن تحثّها لتخبر عن مخطّط يومها، عبثًا، ظلّت أختهما منغلقة وأبيّة على الفهم، ولم تستطع تعويض ما فاتها وجاءت نتائج الفصل الثاني بالسوء ذاته، ورسبت غادة في السنة الأولى علوم طبيعيّة.

كان صيف غادة صيفًا كئيبًا، حصلت زميلاتها في إعادة الثانويّة على مجموع عال، واخترن كلّيّات الطبّ والهندسة، كنّ متفائلات بحياة جامعيّة جديدة. ورغم أنّ غادة كانت الأكثر تفوّقًا بينهنّ إلّا أنّ فرعها الدراسي هو الفرع الذي يعتبر الأقلّ شأنًا.

كانت في طريقها إلى البيت حين تقدّم شاب يرتدي ثيابًا جديدة وربطة عنق، سألها إن كان بالإمكان أن يتعارفا، تردّدت، ثم أخبرته عن اسمها، وقال إنّه تاجر يعمل بالخيوط في سوق المدينة، وإنّه ورث الصنعة عن أبيه، وأوحى لها بأنّه من عائلة ثريّة، وكانت سعيدة وهي تقبل طلبه بأن يجلسا في مقهًى ويتحدّثا، إنّها المرّة الأولى التي ستفعل كما يفعلون في الأفلام والمسلسلات، تلتقي شابًّا في مقهًى ويتحدّثان، وربّما يمسك لها يدها ويبثّها أشواقه

وإلى آخر المشهد. لم تخبر أختيها فداء وبشرى. أحسّت أنّ كلّ ما تفعله، بنظرهما، خاطئ، وعليها ألّا تفعله، وهي تريد أن تعيش التجربة التي تراها وتسمع عنها، كما أنّها تريد فارسًا حقيقيًّا للعادة السرّيّة التي تمارسها مرّات عديدة من دون أن تتخيّل رجلاً معيّنًا اللهمّ إلّا وجه ممثّل عابر.

مدّ الشابّ يده وأمسك بيدها. كرهت أن يلمسها، وخافت أن تسحب يدها، كيف تتصرّف؟ ابتلعت ريقها، أحسّت فقط بخشونة كفّه، ورأت التهابًا في عينيه، نفرت، كانت تجلس على طرف كرسيّها كمن سيغادر حالاً، وجهها مضطرب وحاجباها مقطّبان، وكلّ إجاباتها على أسئلته تأتي موتورة وعصبيّة. قال لها الشابّ ساخرًا: يبدو أنّك جدّيّة جدًّا. ربّما يقصد، ليست دلّوعة كالبنات، ليست جميلة ككلّ البنات. افترضت وردّت: لم أعتد أن أخرج مع شابّ. ضحك: كلّهنّ يردّدن الجملة نفسها. راح يشرح لها بأنّه لا ينوي الزواج، وبأنّ عليها ألّا تعلّق آمالاً على هذا الأمر، فهو إنسان شريف، ولا يريد أن يخدعها.

ركضت تاركة الشابّ مذهولاً وأمامه كأسان من الشوكولامو لم يُمسّا. لم تنم غادة بعد ذلك ليالي عديدة، تفكّر بالذنب الذي ارتكبته، سوف يخبر الشابّ جميع الناس بأنّها خرجت معه، ومن يدري ربّما يخبر تجّارًا في سوق المدينة يعرفون أباها، يعرف أبوها بالأمر، كم سيغمرها الخجل من الجميع إذ تفعل هذا، وأخواتها الثلاث اللواتي يكبرنها لم يفعلن هذا. لِمَ كانت فداء تتصرّف بثقة وتتحدّث عن كلّ ما يصادفها أمام أبيها وكلّ أفراد العائلة؟ وبشرى

تتحدّث على الأقلّ أمام أخواتها بكلّ ما تقوم به وما يحدث معها، أمّا غادة فإنّها تكثر من الأسئلة لكنّها لا تبوح بما يحدث معها، وما تبادر به. تشعر بأنّ ما تفكّر به خاطئ، وكلّ ما تقوم به خاطئ. تقوم من مطبّ لتقع في آخر، لم تستطع أن تنشئ صداقة متينة مع زميلة لها في الجامعة ولم تستطع أن تلتقط عريسًا كما حلمت وخطّطت. تفكّر وتنطوي على نفسها، ولا تجد منفذًا لصراعها مع ذاتها.



صارت سنة غادة الدراسيّة بسنتين، ودائمًا كومة من الموادّ تنتظرها، في حين تمضي أخواتها ورفيقاتها في الطريق الصحيح، تفكّر غادة، نجاح وراء نجاح.

حين أصبح حملها من الموادّ ثقيلاً وأحسّت أنّه من الصعب العبور، عزت ذلك لقلّة صداقاتها، وأنّها ترغب بأُناس ذوي اهتمامات جادّة، يقرؤون الكتب ويتابعون الأخبار السياسيّة والثقافيّة، يتناقشون فيما بينهم ويحلّلون، أُناس يُخرجونها من همّ العريس وهمّ الزواج والدراسة.

ترى مجموعة من الشباب والشابّات يبدون بمظهر مختلف عن بقيّة الطلّاب، يذهبون معًا ويرجعون معًا، يقلّلون الاحتكاك ببقيّة الطلّاب، تسمع أنّهم معارضون للأوضاع السياسيّة وأنّ لديهم أقارب في السجون. وقفت مع تلك المجموعة، التي لا تستطيع القول عنها إلّا أنّها مجموعة صعبة، تتحدّث في السياسة والثقافة وتمزح بنكت ذكيّة وتعرف أخبار البلد والعالم. وإذا شاهدوا فيلمًا ينتقدونه ويتناقشون حوله، كلّ بدوره وبرأيه الخاصّ المختلف عن

الآخر أو المتشابه مع الآخر. يعرفون كيف يقفون بعد الأمسيات الأدبيّة ويتحاورون مع الشعراء ومع الأدباء أصحاب الأمسية بلا خجل. يحضرون النشاطات ويشاركون فيها ويتبادلون الكتب، كتب من خارج منهاج الجامعة.. كيف تدخل بينهم؟ هذا ما دار في خلدها.

كانت تراقبهم وتبتلع ريقها وتجرّب تقليدهم عبثًا. كانت تعليقاتها التي تحاول إثبات وجودها بينهم تأتي ثقيلة وبلا معنى، تنتقد نفسها، يسمعونها ويتبادلون النظرات. قد يلوون شفاههم، وقد يتجاهلون ما قالت. إن كانوا مهذّبين جدًّا يرسمون ابتسامات طفيفة، فتحسّ وقتها أنّها كانت غبيّة وأنّ عليها أن تفكّر جيّدًا كي تكون مثلهم ماهرة ومثقّفة ومسلّية، تنوي بصمت.

وقفت تسلّم عليهم وتضحك ملء وجهها راجية أن يقبلوها بينهم، أصبحت ملامحها على وشك البكاء، لأنّهم لم يلتفتوا إليها أو تجاهلوا وجودها وتحدّثوا فيما بينهم عن أحوالهم ودراستهم وأخبارهم، وسرعان ما دخلوا في السياسة. أصغت جيّدًا كي تلتقط طريقة حديثهم وتعليقاتهم. لكنّهم كفّوا فجأة، وتحدّثوا بأخبار الكلّيّة. حاولت أن تلفت انتباههم إليها فقالت لأحدهم مازحة:

ـ هات النصف فرنك.

لم يضحك أحد، ولا زميلها. كانت تحاول أن تبتكر أيّ نكتة كي تضحكهم، عبثًا.

قالت إحدى الفتيات:

ـ يقال إنّ علامة العملي قد تخفّض من ثلاثين إلى عشرين.

أجابوها فورًا كلّ برأيه.

أعادت غادة مزحتها ثانية:

ـ هات النصف فرنك.

فلم يعلّق أحد أيضًا. في المرّة الثالثة استدار زميلها ناحيتها وقال بشفقة وضيق:

ـ أيّ نصف فرنك؟

تكدّرت، وسكتت، وانتقدت نفسها، ترتكب الحماقات. حاولت أن تجد طريقة تمازحهم وتجعلهم يهتمّون بأمرها، تخبرهم أنّها ليست فارغة رأس، كما يظنّون، وأنّها ليست معقّدة وأنّها تشكّ مثلهم بوجود الله، وتخبرهم بأنّها تحمل تمامًا أفكارهم نفسها!

كانت، لشدّة رغبتها بمرافقتهم، تحلم أنّها تسهر معهم، أحدهم يشرب حتى يسكر فيبكي ويصيح فتمسك به وتساعده صابرة كي يغسل وجهه. عندها يفهمون أنّها تعاني أيضًا وتصبح صديقتهم.

ليتهم يدعونها للعمل معهم في حزبهم الغامض الذي لا تعرف ماذا يُسمّى حتى.. كيف يجتمعون وماذا يقرّرون وكيف يسهرون شبابًا وشابّات ويشربون؟ هل تنتهي السهرات بالجنس؟ يعني عندما تسكر إحدى فتيات الشلّة وتبكي، فيقوم الشابّ ليغسل لها وجهها فتصيح ألّا يبلّلوا شعرها، ألّا يشتهي أن يضمّها وينام بجانبها؟

كانت غادة تتساءل كثيرًا ولا تجد جوابًا فيزيد غموض حالة الشلّة الصعبة وجاذبيّتها.

صارت رغبتها برفقتهم حدّ اللهفة. ترتدي ثيابًا فقيرة وغامقة ولا تضع على وجهها أيّ مكياج، تحمل بعض الكتب ذات الغلاف الأحمر على جنبها، كما يحملها الشباب، وتمضي متمنّية أن تصادفهم وتثبت لهم أنّها أشبه بفتياتهم. تقول بشرى عنهنّ: خمّة ولؤم. تلومها لأنّها تتشبّه بهنّ. صار اهتمام غادة بهذه الشلّة ومحاولة تقليدهم مثار قلق شديد عند أخواتها، وإن لم يحاولن نقل هذا للأب، إلّا أنّ بشرى وفداء استثيرتا، انصراف الأخت عنهما تحدّيًا، وهذه الشلّة، كما يعتقدون، لا تمتّ لهم ولا لعاداتهم بصلة، كما يحسّون أنّ هناك شبهًا ما بين ملامح هذه الشلّة، وملامح العسكر الذين اقتحموا بيتهم عشرات المرّات للتفتيش، شبه في اللهجة.. تقول بشرى لها، فكانت غادة تسخر منها. ولم تكترث أبدًا بذاكرة أختيها. اهتمّت بهؤلاء الشباب والشابّات، وصار أمر الانضمام إليهم وسواسًا يوميًّا تعيشه، ويُثير أخواتها.

في تلك المرّة التي ابتسمت بشرى ساخرة من مظهر غادة، شتمتها:

ـ أنت مجرّد طفلة تافهة، وقليلة العقل.

أجابتها بشرى ببرود:

ـ وأنت، ستصبحين امرأة شيوعيّة.

قالت تلمّح بأنّ أختها غادة تمضي في طريق «هؤلاء

الشيوعيّين»، وسوف يستطيع أحدهم إقناعها يومًا بأن تمارس الجنس بحرّيّة كما يفعلون.

امرأة! كانت المرّة الأولى من تلك النقاشات الحادّة والكثيرة التي دارت بينها وبين أخواتها، التي بكت فيها.

وظلّت أيّامًا تبكي. استيقظت فجأة، لا تريد أن تبتعد عن أهلها. ولكن تريد أرضًا أكثر صلابة تقف عليها، أرادت أن تقول لهنّ إنّي لست جريئة إلى هذه الدرجة وإنّي أصلاً لست مقبولة بين «هؤلاء الشيوعيّين» أيضًا. لكن لا أحسّ أنّ أرضكم صلبة، أرض حماة وأهلها لم تعد أرضًا. تريد أن تصرخ بهذا. لم تشرح لأحد هذا إنّما قرّرت أن تنصرف للدراسة فقط. صارت تدرس بهستيريا، تمامًا كما فعلت يوم حفظت أكثر من ثلث القرآن خلال أيّام قليلة، لم يعد هدفها النجاح، صار هدفها معدّلاً يؤهّلها للإيفاد خارج سوريا. صارت تحلم بإنكلترا أو ألمانيا.

لم تقرأ كتابًا واحدًا عن الشيوعيّة، ولا تعرف عنها إلّا تلك الشلّة التي تنظر للآخرين بتعال، ومع ذلك، وجدت نفسها متورّطة بتهمة الشيوعيّة، كانت تنتظر عند باب أحد المخابر وتعدّ تقرير الأسبوع العملي، حين خيّم ظلّ ثقيل عليها:

ـ لك هذه الورقة.

امتدّت كفّ ضخمة وناولتها قصاصة ورق بالية، كان مراقب دوام الكلّيّة، ينظر في وجهها، مترقّبًا ردّة فعلها. ثلاث كلمات مكتوبة «مراجعة الأمن السياسي» تحته التاريخ والساعة.

ـ شكرًا.

ـ ألا ترين؟ قال مراقب الداوم مشفقًا ومتعاليًا في آن.

ـ أرى. أجابت محاولة لفّ الحديث.

كان اليوم يوم خميس والموعد صباح السبت. أمامها يومان. نظرت مطوّلاً في ورقة الاستدعاء تلك، لِمَ كانت قصاصة بالية؟ ألأنّها في نظر الأمن صرصور لا يستحقّ استدعاؤه أكثر من قصاصة؟ بدأت ترتعد.

ربّما إن حاولت تذكّر كلّ لحظة مرّت عليها وهي في انتظار لقائهم، لشفيت من إحدى مغاراتها السوداء، أو من سعيها لإيجاد أرض صلبة تقف عليها، لكن لا تستطيع، فهي مغارات كثيرة المتاهات، تشعر بقدسيّتها ورهبتها فقط. كأنّها كانت على موعد مع حبل المشنقة. ربّما انتظار الموت أسهل، فهو بمعناه «النهاية». أمّا ما كان بانتظارها معهم فكان أمرًا مجهولاً ومفتوحًا على كلّ الاحتمالات، وهي من تعرف عن أساليبهم المتنوّعة في إهانة المواطن. لم تسأل أحدًا ولم ترجُ أحدًا ولم تخبر أحدًا، مع أنّها كانت خائفة جدًّا وتحتاج إلى من تخبره وتبكي على صدره. ولكن من؟

«أبي الذي سيُصدم بي، أم أمّي؟ ستخاف على سمعتي وسمعة بقيّة بناتها من الفضيحة».

خرجت فجر الجمعة من البيت، لشدّة تعبها من أرق الليل. قضت النهار كلّه تمشي على أقدامها. لم تجلس ولم تسترح.

فكّرت بآلاف الأفكار. ولم تستطع أن تجزم بأيّ منها. الاحتمالات الكثيرة التي تجعل أبسط الأمور صعبة وعصيّة. وراحت تشغل نفسها بالتفكير بالثياب التي سترتديها من أجل موعد التحقيق، لم تفكّر بلون البنطال الذي سترتديه أو شكل الحذاء. كانت تفكّر بأكثر القطع حشمة وراحة، مفترضة سجنًا يطول. فكثيرون وكثيرات من الطالبات، سمعت، لم يرجعوا إلّا بعد سنين، ومنهم من لم يرجعوا أبدًا ولا أحد يعرف عنهم شيئًا.

«كيف سيكون ردّ أبي؟ وهل يعتدون على البنات المعتقلات؟».

ما السبب الذي جعلها أيضًا تتكتّم عن إخبار أحد من أفراد الشلّة، الذين كانت تتودّد إليهم طوال شهور دون جدوى؟ ربّما لو قامت بإخبارهم لدعوها لزيارتهم، وعلّموها أساليب مواجهة التحقيق. لا لم تفعل، ليأسها من كسب صداقتهم.

في غمرة المشي الهستيري الذي مشته يوم الجمعة، اتّصلت بأختها فداء في المشفى.

سألتها عن عملها، بصوت غريب، شغل أختها.

أكملت غادة مشي يوم الجمعة.

وحين امتلأت الدنيا بالليل، رجعت مهترئة الأطراف. هربت إلى سريرها، وطمرت رأسها. كانت أختها بشرى في حماة وفداء في مناوبة ليليّة في المشفى، وهي لوحدها تجترّ هلعها. غفت لبعض الوقت أو لم تغف، تمشّت في الشقّة الفارغة، وخرجت إلى

الشرفة، نظرت في الشارع الفارغ والليل الفارغ، ما أسخف هذه النجوم! وما أغبى تلك الشجرة! وكلّ ما كانت تحبّه نفرت منه، كأنّها انتظرت من هذه الأشياء حماية ما، بكلمة أو نصيحة، لم تستسلم لفكرة أنّ ظلمًا يقع عليها، وأنّ عليها أن تدفعه عنها، إنّما كان كلّ ما في رأسها أن تنهي هذا الكابوس بأيّ طريقة، تلفلفه وترسله إلى ما وراء الذاكرة. بعد ساعات سوف تعرف مصيرها، التعذيب ثم النقل إلى سجن مديد، أو التحقيق والتعذيب لبضعة أيّام في الفرع نفسه ثم الإفراج، أو التحقيق المهين والطويل لبضع ساعات. ورغم أنّ الثالث كان أمنيتها، إلّا أنّها أيضًا أحسّت به كابوسًا، إذ لم تكن لديها أيّ فكرة عن سبب الاستدعاء، ولكنّ هذا ما كان يحدث لطلّاب كثيرين، كما تعرف.

في التاسعة صباحًا من يوم السبت فتحت خزانتها كي تتناول ثيابها. باق على موعدها ساعتان. النبض متسارع جدًّا والقلب يخفق بشدّة، واليد ترتجف، وساقاها لا تحملانها.

لم ترغب أن تلبس بنطال الجينز حتى لا توحي إليهم ببنات اليسار، كما لم تنتق طقمًا باللون البيج حتى لا توحي لهم ببنات الأسر العاديّة والتي هي أيضًا مصدر استفزاز، برجوازيّة، سيظنّون. ما الذي عليها ارتداؤه بحيث لا تستفزّهم.

ارتدت تنّورة سوداء ينهدل فوقها قميص بلون فضّي معرّق بالعسلي. لبست سروالين داخليّين معًا، أحسّت بشعور غامض بالحماية حين ضبّت أعضاءها بسماكة مضاعفة من القماش. تناولت حذاءً عتيقًا لبسته من دون أن تنظّفه.

اختارت حقيبة عتيقة بقفل رخو، احتارت بما عليها حمله وما الذي ستحتاجه إن بقيت سنين أو أيّامًا أو ساعات، تناولت علبة محارم البيت، هويّتها وبعض نقود. نظرت في أشياء غرفتها في وداع أخير.

خرجت من البيت، تباطأت في إغلاق الباب وتردّدت في إقفاله، ثم قرّرت إغلاقه من دون إقفال. كانت تودّ أن تترك كلّ شيء في البيت كما لو أنّها عائدة بعد ساعة لا أكثر.

كم مكثت هناك؟ لا تذكر أو لا ترغب أن تتذكّر. ساعات طويلة، وفي غرف ثلاث فارغة إلّا من كراسي الانتظار المصفوفة بشكل عشوائي، بعضها مشقّق وبعضها مجدّد، بعضها مدهون وبعضها صدئ، أثاث يحمل في أطرافه وزواياه قلقًا وترقّبًا ورعب أناس عديدين. ابتلعت ريقها، بحلقت في جدران سقيمة وسقف تتوسّطه لمبتا نيون متوازيتان، نافذتان تطلّان على منور داخلي والمنظر أيضًا جدران إسمنتيّة.

مسحت غادة المكان بنظرها، وتسمّرت عيناها على باب الغرفة. كلّ حين يأتي عنصر أمني يفتح الباب مواربة، ينظر إليها ببرود، ثم يغلق الباب ويمضي، وتبقى بمفردها تنتظر، ثم بعد وقت قصير، يأتي وجه آخر يشقّ الباب بالمقدار نفسه، ينظر إليها ويمضي، وهكذا.. عشرين مرّة، ثلاثين مرّة. لم تحص عدد الكرّات التي فعل فيها العسكر هذا الأمر نفسه، لكنّها أحسّت أنّها لم تعد تقوى. قالت لآخرهما برجاء: كم سأنتظر؟

أدخلوها إلى غرفة الضابط الأساسي، غرفة معتمة وباردة مع

رائحة خاصّة، رائحة قويّة، رائحة بشريّة لكنّها غريبة، تذكّرت رحلة مدرسيّة وتذكّرت أنّ أحد الشباب في المنطقة البعيدة أمسك برفيقة لها في الصفّ وحاول أن يلمس صدرها، وفيما صاحت البنت وأنقذتها غادة وشدّتها وركضتا، كانت رائحة الشابّ تمامًا مثل هذه الرائحة.

ألقت نظرة سريعة على المكتب وصاحبه، وجلست مكان إشارته. وهنا بكت أكثر بكثير ممّا أجابت، كان بكاء ورجاء ألّا ينتشر خبر توقيفها، حتى لا يموت أبوها بالجلطة.

تنهّد ضابط التحقيق بسخرية ولذّة. رجاءاتها البعيدة جدًّا عن عمله دفعت عنده بقايا شفقة، أو ساديّة وشهوة للأنثى الضعيفة. تركها تمسح دموعها ومخاطها بأصابعها، بعد أن أتت على كلّ المناديل التي كانت في حقيبتها.

رفع سمّاعة الهاتف، ضرب رقمًا وراح ينظر إليها بعيون ظافرة ونهمة، ثم ومن بعد سلام مائع مع مجيبه أو من يدّعي الاتّصال به، قال مبتسمًا ابتسامة رخوة:

ـ لا بدّ من وجودها، لا سهرة بدونها.. نعم نعم تجهّز بذلة الرقص الحمرا ولوازمه.

قال ذلك وهو ينظر باتّجاه غادة. أغلق السمّاعة، وأغمض عينيه لبرهة متلذّذًا بابتسامة زادت من رعبها. ثبّتت نظرتها في إغماضة عينيه علّها تسبر ما الذي ينوي فعله بها. لم تستطع، إنّما أحسّت أنّها ترى عضوًا ذكريًّا منتصبًا ينقط، داهمها الغثيان. «ترى هل سينادي من يأخذها إلى القبو؟ أم سيؤجّل الحديث معها بضع

ساعات تقضيها في تلك الغرفة الفارغة؟ أم سيجعلها تمضي إلى بيتها من دون أسئلة؟» قطع ارتيابها فجأة:

ـ من هم معارفك في الجامعة؟

غصّت. رغم أنّها توقّعت هذا السؤال بل ربّما لم تتوقّع غيره، لكنّ لهجة التحقيق جعلتها تتردّد.

ذكرت أسماءهم واحدًا واحدًا، أسماء الشلّة التي تمنّت بشدّة أن تكون من معارفها..

ضحك من سرعة الإجابة، وأضاف:

ـ غيره..

ـ كلّ العلاقات سطحيّة وتقتصر على السلام.

قال بلهجة خطيرة وبنبرة متعالية:

ـ أنت إن لم تتعاوني معنا، لن ترجعي إلى بيتك.

أجابت بخنوع:

ـ ما الذي عليّ فعله.

ابتسم، وأغمض عينيه مرّة ثانية متلذّذًا بسلاسة التحقيق وطراوة المتّهمة. فكّرت غادة: «كيف سأتعاون معهم»؟

كأنّه سمع حالها، قال كأنّه ينصح طفلاً:

ـ يعني إذا وجدت أحد الطلّاب يسرق كرسيًّا، طالبًا يفتعل إشكالات، حركات مريبة، تكتبين لنا تقريرًا مفصّلاً، بالأسماء والأفعال والأماكن.

أجابت جواب التلميذ المجتهد:

ـ هذا الذي تذكره، أمر واجب على كلّ مواطن.

كانت مستعدّة لادّعاء البراءة إلى أبعد من هذا، إن كانت ستتخلّص من أمر التوقيف.

قال وهو يطبق إضبارتها كأنّه يهمّ أن ينهي تحقيقه معها:

ـ اختبار لك ولإخلاصك لنا نريد منك تقريرًا بكلّ واحد من هؤلاء.

ـ لم أفهم.

ـ أين يذهبون؟ وكيف يقضون وقتهم ومن هم معارفهم...؟

أدركت الآن بشكل لا ريب فيه أنّه يريدها مخبرة. كانت تشعر بمثانتها ستنفجر وبأنّها على وشك التقيّؤ. وعدت أنّها ستفعل، لأنّها لا تقوى على النقاش، ولا تقوى على رفض الأمر، ولا تفقه أصلاً ردًّا مناسبًا لهذا الأمر، كانت ترغب بالخروج من المكان فقط، والهرب إلى بيت أهلها، حيث لا ترى أحدًا، لا الشلّة الصعبة ولا فروع الأمن والمحقّقين.

تركها تغادر. كانت الشمس إلى غروب، مشت إلى الشارع العامّ ثم أوقفت سيّارة أجرة. أحسّت أو توهّمت أنّ هناك من يراقبها. سرحت عبر نافذتها، كانت فيروز تغنّي، وحدن بيبقوا.

سبب الاستدعاء، تقرير كتبه أحدهم، بعد أمسية لأحمد فؤاد نجم.

سمعت من الشلّة الصعبة أنّ هناك أمسية لأحمد فؤاد نجم، حجزت مقعدًا بجانبهم، ووقفت بين الشلّة نفسها كأنّها واحدة منهم، وراحت تلوّح بإشارة النصر بحماس، فقط لتثبت لنفسها أنّها تؤمن بقضايا الشعوب، حماس ليس إلّا.. تنفيس عن كلّ تلك التيّارات التي تناهبتها بحياتها، اندفاع لساعة من الزمن، تمامًا كما فعلت حين تركت مدرستها وقت الغروب وهي في العاشرة من عمرها، وخرجت تغنّي أغنية الطلائع لحافظ الأسد. كان الثمن هذه المرّة ثقيلاً. وربّما بالغت بإظهار تأييدها لشعر الرجل علّها تركن لقضيّة تعمل من أجلها، وأرض لا تهتزّ تحتها، ولكن هيهات، لم يُستدع أحد بعد الأمسية إلّاها، فكّرت، لماذا لم يتعرّض أحد من الشلّة لهذا، لو تعرّض أحدهم لهذا لملأ الدنيا صخبًا، سمعتهم مرّات عديدة يتشدّقون عن هذا، يتشدّقون بشجاعتهم وبتخاذل المحقّق أمام فصاحتهم، امتلأت بكراهيّة لنفسها ولوجه المحقّق وجفونه الملبّدة، وأحسّت برغبة بالهروب، فقط الهروب.



لم ترجع إلى الجامعة أبدًا. حزمت معظم أغراضها، وسافرت في اليوم التالي، لتأمن في بيتهم في حماة، لم تتحدّث إلى أحد من أسرتها، لم تلتق مع صديقة، همّ واحد يسيطر، كيف تتخلّص من الإهانة التي لحقت بها. كيف قبلت؟ وبدأت مسيرة حياتها تمرّ أمامها، إهانات عديدة في سنوات عمرها، منذ كانت صغيرة تحبّ الموسيقى ولم تنلها، لأنّها كانت من حقّ أولاد المسؤولين، إلى أن صارت كبيرة وتاهت بين الممنوعات. حين ملأت ذاتها بالنقمة وفكّرت أنّها ستفوز يومًا بطريقة ما.. ارتاحت قليلاً. حاولت أن تعمّم إحساسها بالمهانة فوجدت أنّ أباها نال الجزء الأكبر، وإخوتها منفيّون، أولاد عمّها قُتلوا، ابن خالتها، أخوالها، كانت كيفما تتلفّت حولها تجد الذاكرة تحدّثها حكاية عن الأحداث وما قبل الأحداث وما بعدها، منذ الطفولة وأيّام المدرسة والجامعة.

وظلّت في حماة متجاهلة جامعتها. بحثت طويلاً عن مخطوطة مخلص. كان يؤكّد بما لا يدع مجالاً للشكّ بأنّه تركها في قبو البيت، بحثت في تلك المكتبة الحديديّة الثقيلة التي تبقّت من عفش

الروضة، عبثًا. منذ الأحداث لم تعثر غادة في البيت إلّا على أكياس النايلون التي تحبّ الأمّ الاحتفاظ بها، لا مخطوطات ولا كتب، احتفظ فؤاد بمقعد من «روضة الأمل»، من جمعيّة حماية الطفولة، مقعد دراسي كبير يتّسع لثلاث بنات يكتبن الوظيفة، بدلاً من طاولة واحدة يتصارعن على زواياها. وضع المقعد الخشبي في المستودع الثاني، على سطح البيت. الذي ظلّ مكسوًّا نصف كسوة بانتظار قدوم أيمن، رميت فيه كلّ الأشياء التي لم تعد تلزم، جرائد ومجلّات قديمة، كراس مهترئة، أحذية وملابس وأدوات مطبخ، وجاروشة الفريكة وكراسٍ وأسرّة حديديّة.

شهور عديدة لازمت غادة بيت أبيها، تتابع برامج التلفزيون في المساء، لا أكثر، تشعر بكراهيّة لكلّ مشاهير سوريا، لكلّ من يحقّق أحلامه ورغباته في ظلّ هذا النظام، بل لكلّ من ينعم بحياة طبيعيّة، تحسّ أنّهم جميعًا مسؤولون عن هذا العذاب اليومي الذي يعيشونه، شعور النفور هذا شمل نواحي عديدة، مذيعين ومذيعات، دعايات، مدراء ومسؤولين وأولادهم، ممثّلين، مطربين، مدنًا تنعم بمزايا الأمن والرفاه. يصيب غادة الضيق حتى حين تبثّ صور معالم السياحة، وتستغرب حين تتمتم أمّها أمام مشهد الجبل والسهل: اللهمّ صلِّ على النبيّ. كان كلّ هذا يُحيل غادة إلى وجه المحقّق وصوته ولهجته، ووجوه الناس الذين كانوا يأتون ليفتّشوا البيت وأصواتهم ولهجاتهم.. وكلّ هذه الوجوه وهذه الأماكن وهذه الأصوات، سبّبت ظلمًا، أمر محشوّ في الذاكرة.. كانت غادة ممتلئة حتى الثمالة بهذا الغبن.

كانت ذكرى أخيها، حبيبها ربيع، تنتصب أمامها ليل نهار، حين كان صغيرًا قادمًا من المدرسة، فتحت الباب ورأته يشهق ويزفر، يخرمش رقبته بأصابعه شادًّا رأسه إلى أعلى، عروق رقبته نابقة، وجهه مزرقّ ويداه لا تكفّان تخرمشان رقبته لتشحذ سبيلاً لأخذ الهواء، صاحت، ماذا حدث، لم يستطع أن يجيبها، يشهق بصعوبة شديدة. كادت أن تُجنّ: ماذا حدث؟ بعد ثوان قليلة استطاع أن يتمالك نفسه، ونطق باسم الولد الذي حاول خنقه وكاد أن يقتله.. وركضت بدون غطاء الرأس، ركضت غير آبهة بشيء، بكلّ ما فيها من قوّة، تحاول العثور على الولد. استطاع الولد الفرار، والخروج من الحارة، واختفى.

رجعت إلى البيت، عانقت أخاها طويلاً ثم أدخلته إلى البيت وغسلت له رقبته ووجهه. أخبرت أباها وأمّها وإخوتها، ولكن ورغم تعلّقهم الهائل بالصغير وحزنهم وخوفهم الشديد على الولد والألم الذي عانى منه، إلّا أنّ أحدًا منهم لم يرغب معرفة حتى أسباب خلاف الأولاد، لأنّهم لا يريدون الذهاب إلى المدرسة ومواجهة البعثيّين، من المدير إلى الموجّه إلى غيرهما.

* * *

دخل ربيع إلى البيت، مبلّلاً ببوله، لاهثًا وعروق رقبته نابقة تمامًا، هرول إلى الحمّام، لحقت به غادة ملهوفة، ماذا حدث؟ أجابها بحنق: قتال..

ـ قتال، أنت لا تفعل هذا.

كان ربيع في سيّارته التي اشترتها أمّه له، حين انعطف أمامه صاحب موتوسيكل قاصدًا الاستعراض وإرباك ربيع الذي نال حديثًا شهادة السوق، تجاوزه ربيع بمهارة، ممّا أثار غضب الثاني منه، وشتمه، ردّ عليه ربيع بمثلها.. انحرف الرجل بالموتوسيكل حتى اضطرّ ربيع أن يتوقّف مبهوتًا، نظر في وجه غريمه، وتبيّن أنّ هذه الوقاحة وقاحة عناصر الأمن، وأدرك أنّه أوقع نفسه في ورطة كبيرة. سحبه الرجل من سيّارته وانهال عليه بالضرب والرفس والركل، التمّ الناس وراحوا يتفرّجون على رجل الأمن باللباس المدني وعلى ضحيّته، يأسفون على مصير الشابّ الذي يقود سيّارة بنمرة حمويّة، كان تسجيل السيّارات الحمويّة في دائرة مرور مدينة أخرى أمرًا مطروقًا، والهدف المواربة عن أصل صاحب السيّارة.

لم يحرّك المشاهدون ساكنًا، منهم من غضّ نظره واستعجل يغادر ومنهم من تابع المشهد حتى الأخير.

لم يخبر ربيع أحدًا من أسرته أو معارفه إلّا غادة لأنّها رأته متورّم الوجه، ممزّق الثياب. جلست القرفصاء أمام باب الحمّام تصغي لبكاء أخيها مع صوت الماء المتدفّق، وتبتلع غصّة ورغبة بفعل شيء. كانت تتساءل، لِمَ لم يساعد أحد المشاهدين أخاها؟ ألأنّهم لا يجرؤون؟ أم لأنّهم لا يأبهون بالمظلوم؟ سؤال طال مكوثه في رأسها، هل تنافر الناس بعد الأحداث؟ هل هو جبن؟ أم كره؟ ركنت إلى أنّ الناس وبعد الأحداث صاروا جبناء ويكرهون بعضهم بعضًا أيضًا؟

في الصباح التالي، اقتربت من أخيها، نظرت في وجهه، أشاح عنها، كان مرتديًا ثيابًا حاول أن تكون أنيقة، ألن تفعل شيئًا؟ سألته بصوت خافت. قال بمرارة: نحمد ربّنا أنّه لم يأخذني إلى الفرع وينقعني لحين ما يأتي دوري بالتحقيق. وعلى ماذا؟ سألت غادة عن التهمة، أجاب ببداهة: اسمي وحارتي ومدينتي. يمكنك أن تلحق بإخوتك إلى السعوديّة، قالت. أجابها من أعماق قلبه: لن أفعل. هنا الرفقة وهنا الأهل وهنا البلد، وهذه الرقبة اعتادت على اللطم. حين همّت أن تقول شيئًا، أنّ أهل البلد تخلّوا عن نجدته البارحة، نظر إليها بضيق يريدها أن تسكت. كانت تحسّ أنّ الجيل الجديد فهم واقعه أكثر من الجيل السابق، وأكثر من الجيل القديم جيل أبيها، وُلِد هؤلاء ليروا آباء وإخوة يجترّون المهانات، اقتنعوا أنّ الحياة هي محاولة تجنّب أسباب المهانات وليس دفعها. من

حاول أن يدفعها كان مصيره السجن أو المنفى. ورجع ربيع في المساء نفسه يداعب أمّه فتضحك سعيدة به، ابنها الشابّ الطموح الذكي الذي يفهم ما حوله ويسيطر عليه.

ـ ولكن لماذا تسعى لكسب مزيد من المال؟

تساءلت غادة بحيرة، حين راح يحكي لأمّه عن أحلامه في العمل في المناقصات، وأنّه سيحوز عليها وينجح لأنّه سيتدبّر أمر المسؤولين عنها، قال بافتخار.

أجابها ربيع بعصبيّة:

ـ لكي أعيش في البلد.

ورغم أنّ غادة فهمت أخاها جيّدًا، لكنّها لم تستسلم وظلّت تناقشه بأنّه بهذا لا ينتقم إلّا من نفسه، سيفسد هو أوّلاً، إن اعتاد على تقديم الرشاوى. تركها وغادر الغرفة حانقًا. كان من الواضح أنّ السعي لمزيد من المال رغبة باطنيّة باسترداد قيمة مهدورة، باسترداد كرامة مهدورة، أو استرداد مكانة مسلوبة..

انكفأت غادة تمامًا بعد أن تكرّر رسوبها مرّات عديدة، وغرقت في اكتئاب عميق، أقلق أباها، هذه هي المرّة الأولى التي يتكرّر فيها رسوب أحد الأبناء. ناداها إلى غرفة الضيوف. يعرف الجميع أنّ الأب لا يفعل هذا إلّا حين يتحدّث في أمر جادّ وخطير، يؤدّي إلى أوامر صارمة، وأنّ على مَن يُستدعى، ابنًا أو بنتًا، أن يصغي جيّدًا لكلّ ما يقوله، وعليه أن ينفّذ الأوامر أيضًا وإن كان ذلك بعد نقاش. تماسكت غادة، وادّعت أمام أخواتها

اللواتي كنّ قلقات عليها أنّها غير مكترثة، وأنّ فرع العلوم ليس خيارها، لأنّها كانت تستأهل الطبّ أو الهندسة كما رفيقاتها، ولكنّ أحداث حماة. . . وهكذا كانت ما تزال تبرّر أمام أخواتها من دون أن تذكر السبب الحقيقي. ولكن ما هو السبب الحقيقي؟ هي نفسها لا تعرف، فهي لا تستطيع أن تبوح لأحد من العائلة أنّها تكره شكلها ووجهها، وتحبّ لو كانت شقراء مثل زوجة أخيها وتتزوّج رجلاً ثريًّا، يدلّلها وو. ولا تستطيع أن تقول إنّها تريد أن تكون شيوعيّة قويّة، تُدافع عن الفقير والمظلوم، الأشياء التي يزعمها أهل تلك الشلّة التي تاقت لتكون بينهم، ولا تستطيع أن تقول إنّها تحسّ بحقد على كلّ من يصدر القرارات في هذا البلد ويتحكّم بمصائر الناس، هي نفسها لا تعرف سبب اكتئابها العميق. .

ـ أغلقي الباب جيّدًا.

قال لها أبوها وأشار إلى كرسيّ قريب منه كي تجلس.

ـ ما الذي تنوين فعله بجامعتك؟

ـ أريد أن أغيّر فرع العلوم الطبيعيّة. أريد أن أقلب إلى فرع الأدب الإنكليزي.

ـ هل أنت واثقة من خيارك؟ وهل ستنجحين بكلّ الموادّ؟

ـ نعم.

قال بخشونة:

ـ وإذا تبيّن أنّ وعدك كاذب؟

احمرّ وجهها. من النادر أن يباشر الأب بعدائيّة. لم تجب.

ـ ستكونين كاذبة إن لم تنجحي. ولن نبرّر لك هذا، لا يوجد في هذا البيت من قصّر سنتين متتاليتين. وها أنت في العشرينات وما زلت في أوّل الطريق، مخلص الذي كنّا نعتبره الأكثر كسلاً وتقاعسًا لم يرسب أبدًا، بل جمع سنوات الجامعة مع سنوات العسكريّة، فلسفة وعسكريّة.. وتزوّج واشتغل، وهو ما زال في السادسة والعشرين.

خرجت غادة من الغرفة. كأنّه تمنّى عليها أن تقول إنّها تودّ البقاء في البيت، وتتزوّج عريسًا بسيطًا ممّن يتقدّمون عادة للبنات السمراوات، خصوصًا أنّ هناك معلّمًا ابتدائيًّا أرسل أمّه، وطلبت غادة بالذات، وبدا الأب راغبًا وراضيًا، أن تمضي بنت عن كاهله. طريق البنات الخمس، حيث لم يتقدّم شابّ مناسب حتى الآن، سمر ورغم أنّها الأقصر قامة لكنّها ظلّت تتدلّل وتطلب عريسًا بشهادات عالية: مثل شهادات إخوتي الشباب، تغضب أمّها وتقول لها: العنزة الجربانة لا تشرب إلّا من رأس العين.

لم تقبل غادة بمعلّم المدرسة الابتدائيّة عريسًا، قضت البنات أيّام العطلة في حماة يسخرن ويعلّقن على العريس الذي سيمسك عصا طويلة ويلحق بزوجته إن لم تكتب وظيفتها.. كما قيل إنّه يعمل أحيانًا في العطلة الصيفيّة بأعمال الدهان والإكساء، وإنّ أمّه تقرّبت كثيرًا وهي تأمل أن تقبل إحدى بنات فؤاد بابنها.

صارت غادة سريعة الغضب، تصيح وتقلّل من شأن الجميع، عصبيّة وترفض كلّ ما يعرض عليها. تذهب إلى السوق وتمشي بلا

هدف، وما تشاهده تكرهه، تشتري أشياء رخيصة وتنفر منها في اليوم نفسه وترميها في قبو البيت، وكلّما زادت عصبيّتها مع من حولها، زاد النقص في داخلها، وزاد تشاؤمها، زادت الحالة وتعمّقت حتى أصاب أخواتها الملل منها، وانفضضن من حولها إلى بعضهنّ، يتجنّبنها ويحاولن أن يعقدن جلساتهنّ المشتركة بعيدًا عنها، ممّا عمّق الكآبة بداخلها أكثر. نظرت حولها فلم تجد أحدًا، لا أختًا ولا صديقة، وفوق هذا فشل يلاحقها وأب صارم ينتظر جوابها وقرارها. تدريجيًّا ومع مرور الشهور، تحوّل الأمر إلى اكتئاب تمثّل بقلّة الطعام والنوم، والجلوس شاردة تمامًا عند نافذة غرفة الجلوس والتي تطلّ على شرفة البيت الكبيرة، تنظر في الياسمينة وزهراتها البيضاء، تنصرف عن كلّ ما حولها إلى زهرات الياسمين، كأنّها تودّ أن تقضمها بدلاً عن الطعام الذي تعافه. ورغم انشغال الأمّ بأمور البيت فإنّ حالة غادة أقلقتها، وبدأت تبوح بالهمّ لفؤاد، صار الأمر جادًّا وعليهم أن يتدخّلوا وينقذوا البنت.

اقترب فؤاد من غادة ذات صباح قائلاً بحنان: أعددت قهوة، هل تشربين معي؟ وأحضر فنجانًا صغيرًا لها. لم تعتد البنات هذا من الأب، كان يحضّر قهوته بنفسه، ويفضّل أن يشربها وحيدًا، نظرت باستغراب، ثم قالت: قهوتك حلوة. وأنا أشربها سادة.

- جرّبيها.

هزّت رأسها نفيًا، ورجعت تنظر عبر النافذة. عدم اكتراثها بشعور أبيها أقلق الجميع، واتّصلوا في اليوم نفسه بفداء كي تأتي من حلب وتعالج وضع أختها.

ـ لديها اكتئاب، سوف أحجز موعدًا عند طبيب نفسي في حلب وسوف تسافر معي. قالت فداء مؤكّدة.

بتثاقل شديد قبلت أن تذهب مع بشرى وفداء إلى حلب، أعددن أشياءها ومضين بالتاكسي إلى كراج البولمان. نظرت بشرى بقلق إلى أختها الشاردة، دفعتها إلى جهة النافذة وجلست بجانبها، وعلى الصفّ نفسه جلست فداء، تقرأ في مجلّة.

لم يدقّق الطبيب كثيرًا في حالة غادة، أثنى على طالبته التي شخّصت حالة أختها، ووصف لها مهدّئات من العيار الثقيل، قبلتها غادة منذ اليوم الأوّل وبلا اعتراض، نامت في بيت حلب أكثر من ثلاثة أسابيع، فترة العلاج، تصحو لتشرب كوبًا من الحليب وترجع إلى السرير، تصحو لتذهب إلى التواليت، أو تستحمّ بناء على ضغط من بشرى، وترجع لتنام. كانت فداء منشغلة تمامًا بعملها وصديقاتها، مشفى الكندي وقصص المشفى، ممرّضات وأطبّاء وعاملين وموظّفين وسائقين ومستخدمين ومدير. أكثرت من مناوباتها، تأتي إلى البيت كلّ بضعة أيّام لوقت قصير وترجع، صار عملها بيتها، أمّا بشرى فقد رافقت شلّة جديدة من البنات، لكلّ منهنّ همّان، همّ الثياب والخروج والبقيّة ضحك وتسلية، واندمجت بشرى تمامًا.

وكلّما زاد انشغال أخواتها، زاد اكتئاب غادة تعقيدًا. حين انتهى دوس الحبوب، راحت تستيقظ بالتدريج، أحسّت بالجوع، واشتهت الطعم الحامض، الفول بالطحينة والحمّص مع الخبز الساخن. كان الصباح يعجّ بالناس، عمّالاً وموظّفين وطلّابًا، وكلّ

ماض إلى شأنه، أحسّت أن حلب حين العمل لن تكترث بفتاة تطلّ من باب البناء متردّدة، تختلس النظرة لتتفحّص الطريق إلى السوق القريب، تشتري مشتهياتها بعد جوع طويل.

وقفت في الصفّ المنتظر دوره لشراء الفول، كانت تحسّ بالاضطراب، رأسها فارغ، وأفكارها شاردة، مشاغل الناس حولها، وقعت ثقيلة عليها، دفعت إحساسًا مضاعفًا بالوحدة، أربكها أنّهم يتحدّثون فيما بينهم ويتضاحكون من دون همّ أو غمّ، يفعلون هذا ببساطة، لا يخافون بعضهم بعضًا، هي فقط من يسيطر عليها الارتباك والخوف، لا.. لا تريد أن تأكل الفول، ولا تريد سماع أصوات الناس، تريد أن ترجع إلى سريرها وتنام، ليس لها شأن بأحد، وهي ضعيفة مثل ريشة، كانت هواجسها تصطخب في داخلها، حين جاء دورها، تلعثمت، ونظرت في وجه البائع الذي أوشك أن يفقد صبره، فالازدحام عند الصباح لا يحتمل هذا الشرود، نظر يستحثّها، لم تقل شيئًا، التفت إلى من يليها متجاوزًا إيّاها. تركت البنت نقودها على طاولة البائع، وركضت من دون الفول.

في اليوم نفسه عرفت بشرى بما جرى، شرح لها بائع الفول ما فعلته أختها، أرجع لها النقود وهو يلمّح إلى أنّ حالة البنت غريبة.

* * *

لم يكن حادث انتحار غادة هو الأوّل في الأسرة، فقد فعل ذلك خالها وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين.

انتحار غادة، قصم ظهر الأسرة، انتشر الخبر في المدينة كلّها. شربت غادة الدوس الذي اشترته أختها لشهرين مرّة واحدة. كانت فداء في إحدى مناوباتها، وخرجت بشرى في السابعة صباحًا، ولم ترجع حتى الثامنة ليلاً، ولم تستغرب نوم أختها الباكر. في اليوم الثاني وبينما كانت تستعدّ للخروج، انتبهت أنّها لم تسمع صوت أختها تذهب إلى الحمّام أو تتقلّب في سريرها في غرفتها، وحين أطلّت عليها، ووضعت يدها على نبض الرقبة، صرخت وتهاوت تبكي. في ثوان كان الجيران حولها، ونُقل جثمان غادة إلى حماة، حيث أجري مأتم سريع وكئيب، مختصر وشديد الغمّ. أتمّوا «ختمة» القرآن فوق رأس الصبيّة الميّتة، شرب الناس القهوة المرّة، والماء المقروء عليه.

ورغم الصدمة والحزن الشديد لم ينس أهل البيت في اليوم الثالث إحضار الطعام للضيوف، عشّ البلبل والسمبوسك المحشوّ

باللحم الكثير، قرأ الجميع الفاتحة على روحها. حداد ترافق مع الشعور بالضيق بل بالخوف من كلام الناس على مستقبل البنات. فحادث انتحار الخال، ورغم أنّه حدث في دمشق وحاولت الأمّ التستير عليه بين أقارب زوجها وجيرانها، إلّا أنّ الناس ثرثروا كثيرًا حول هذا، فالانتحار عار يلبس العائلة، فكيف إذا كان الفاعل صبيّة في العشرينات، لا بدّ أنّ في الأمر خطيئة، ربّما أخطأت مع شابّ، ربّما لم تكن عذراء، وخشيت من الفضيحة.. لم تحتمل فداء همّ البيت، ولا دموع أمّها وهي تكرّر بين الفينة والأخرى: الله يرحمها، الله يسامحها. كانت الأكثر تأثّرًا بأقوال الناس سمر، التي تختلط كلّ يوم بأهل حماة في وظيفتها، تأتي في غاية الغضب لتحكي عمّا يتقوّله الناس..

واسى فؤاد بناته وواسى نفسه بهنّ، تقرّب بشجن من ابنته الكبرى وتقرّبت منه محاولة التخفيف من إحساسه بالذنب، ذنب أنّه أهمل ابنته.

ومضت أيّام العزاء.

عانقها وسافرت بعد عشرة أيّام راجعة إلى عملها في مشفى الكندي، لبست الأسرة الأسود أربعين يومًا ثم بدأ الحزن يتلاشى تدريجيًّا، من الأسود إلى الرمادي والبنّي والفضّي ثم إلى الكحلي الأزرق.

صارت واجهة البيت المثقبة بالرصاص وأعمدة الباب الخارجي المشطّب عليها بالأقلام العريضة، فتّش وفتّش.. أكثر كآبة وعتمة، الشجرتان الصغيرتان أمام البيت سقطتا بيد ولد شقي،

ومعظم النباتات التي زرعتها الأمّ حزنًا على سفر الأولاد ذبلت واصفرّت، كثرت الأعطال في البيت ولم يأبه أحد بإصلاحها، قبع صاحب البيت في غرفته يزداد يأسًا وقنوطًا. لم يبق في البيت إلّا سمر الملتهية تمامًا بعملها، وربيع بين عمله وجامعته في حمص وحبّ أمّه وحنانها في حماة. ظلّ منظر أخته الصبيّة مسجّاة في تابوتها يُبكيه ليلاً، شهورًا طويلة، لكنّه ومن خشيته أن ترى أمّه حزنه، يتماسك ويأخذ على نفسه إبهاج البيت، يفكّر بالأمور في أبسط حالاتها، ويتناسى نهارًا كلّ ما يحزنه ويكربه، يتسامح مع الجميع وفي الوقت نفسه يحصل على ما يريد من الجميع، وإن لم يحصل فلا يتشنّج ولا يغضب، هذه المرّة خابت، المرّة القادمة تصيب. اختار فرع التجارة، وبدأ عمله في المناقصات التجاريّة التي تجريها مديريّات الماليّة والخدمات، وسرعان ما فهم سرّ العمل في دهاليز هذه الدوائر. ورغم القهر اليومي والإهانات اليوميّة في هذه المديريّات، اندمج الشابّ تمامًا بين تشجيع الأقارب والجيران.

تخفّف فؤاد قليلاً من حزنه، حين أقنعته فداء على مرّ الأيّام بأنّ الانتحار يحدث بعد الاكتئاب الشديد، وأنّ غادة أصابها الاكتئاب، وهو مرض ككلّ الأمراض، وأنّه لا ذنب لأحد في هذا. كان يصغي إلى تحليلاتها، ويحاول معها فهم ابنته التي ضاعت منه، كان يحسّ بأنّه ظلمها لأنّه أهملها، تقول فداء:

ـ إنّنا جميعًا أهملناها، لكنّها كانت تظهر القوّة والتماسك، من أجل هذا لم ننتبه إلى الاكتئاب الذي تسلّل إليها.

قالت بشرى:

ـ ربّما كانت مُصابة به منذ طفولتها.

وكلّ من في البيت يتذكّر شيئًا عن غادة، يحكيه، فيُثير الحزن أو الضحك الممزوج بالأسى.

وهكذا مضت زيارات البنات إلى حماة، تذكّر مرير وحزن ودفء وسلوى. وتخفّف البيت من ذنب الصبيّة، بالتدريج.. وانتهت الذكرى إلى صورة لها باهتة الألوان، في زاوية الصالون، مرتدية ثوبًا قرميديًّا بقبّة عالية، تبدو بوجه صارم وشفاه مزمومة وفي أعماق العينين توق وضعف.

صارت غيبات البنات في حلب أطول وأطول، لم يثر هذا اعتراض أبويهما، كأنّ الأب فهم بعد سنين من الأحداث بأنّ مدينة حماة لم تعد مكانًا للعيش والعمل والحياة، وما زالت ذكرى شريكه أبو غالب وأصدقائه وأولاد أخيه وكلّ من فقدهم في الأحداث، وبعد هذه السنين، تنخر في الرأس، تؤلمه وتكرّس عزلته، والآن وبعد موت الصبيّة، اقتنع أنّ مستقبل البنات بعيدًا عن الحارة والمدينة، وأنّ عليه أن يترك لهنّ حرّيّة اختيار المكان المناسب.



ظلّت المدينة لسنوات عديدة حارات فارغة، يائسة، مقهورة، يخجل العريس أن يفرح بعروسه، وتخجل الأرملة أن تصرّح بتوقها للرجل، ويخجل الأولاد أن يتدلّلوا على الأمّهات أو يطالبوا برفاه أو ثياب أو ألعاب، فالحزن والوجوم خيّما من السماء. ورغم محاولات الحكومة إهالة الأغطية على ما حدث: إنشاء أبنية جديدة، ترميم المهدّم والمخرّب، إلّا أنّ آثار الأحداث كانت تُشاهَد في الوجوه وعلى الجباه. حموي، ويصمتون، يعني، قهر، خوف، ألم وتذكّر مرير.

كانت الصبايا يطالبن بالمرح ويعيّرن الأهل بالاكتئاب، يستشهدن ببيروت، رغم الحرب الأهليّة التي لم تتوقّف، يخرج الناس ويسهرون ويرقصون، إلّانا. نحن ميّتون وكلّ أمر في حياتنا يبدأ بالأحداث وينتهي عندها..

صارت أسعار البيوت لسنوات بعد الأحداث، بسعر التراب، يُقال، رخيصة كتراب المدينة وأرواح أهلها. يُقال، نحن وترابنا رخيصون. كثيرون تركوا وهاجروا وكثيرون هاجروا ورجعوا، ومع

الهجرة والعودة لم يحدث شيء إلّا المزيد من البؤس واليأس.

تركت أمّ غالب بلدها وهي في الخامسة والستّين، إلى بلد جديد وشعب جديد.

لم تغادر بيتها وحارتها مختارة. لم يعرف أحد سرّ ترك المرأة حارتها وأقاربها، قيل، لم يبق لها أحد في حماة، إلّا أخاها، لكنّ الأمر لم يكن كما ظنّ الناس، السرّ كان في تلك الصفعة التي أخفتها عن الجميع، حتى عن أخيها، بائع اللبن والجبن.

أسدلت أمّ غالب ستائر بيتها، غطّت الأثاث بالشراشف التي لديها، أقفلت الخزائن، والأبواب، رتّبت المؤونة التي ستأخذها إلى ابنها. قال أخوها:

ـ لديك أكثر بكثير من الوزن المسموح به في الطائرة.

أجابت:

ـ لن ينتبهوا إليّ، حرمة مسافرة وحدها.

نظر مراقب الجمارك في جواز سفرها، ثم في الميزان وقال لها إنّ لديك ثلاثين كيلو زيادة وغمز. جاءها زميله ونصحها بإسكاته بمئة دولار كي يسمح لها بإدخال عشرة كيلو زيادة فقط، أمّا البقيّة فعليها أن ترجعها. ركضت تبحث عن أخيها كي تُعيد الأغراض معه، لكنّه كان قد غادر المطار متذمّرًا من ثقل حقائبها، لم تدر ما يمكن فعله، تركت صناديق المؤونة تحت أحد أدراج المطار، وهي تبكي، مكدوس وزيتون وجبنة حمويّة ولبنة.

بكت لأنّها تبكي كثيرًا، أو لأنّها تذكّرت صفعة المحقّق، بكت

على قيمة المأكولات، أو لأنّها لم تتقدّم بها لأحد جائع، انفجرت بالبكاء لأنّها ستغادر البلد وأنّها ماضية إلى مجهول، لا تعرف فيه ولا عنه شيئًا سوى أنّها مشتاقة لتضمّ بكرها غالب الذي غادر هاربًا قبل أحداث حماة، ولم تلتقِ به، منذ ذلك الحين، لأنّها كانت ممنوعة من مغادرة سوريا. وبعد محاولات ورشاوى كثيرة، تمكّنوا من إلغاء منع السفر.

لم تفعل شيئًا في بيتها خلال هذه السنوات، سوى تذكّر الراحل أبو غالب، تغسل عتبة الباب وتسقي الياسمينة والختميّة، تشرب القهوة بالحليب في الصباح ثم تتمشّى إلى البقاليّة القريبة لشراء كيلو خيار وكيلو بندورة ونصف كيلو فاصولياء، وتعود إلى البيت كي تعدّ طبخة يتبقّى معظمها إلى اليوم الثاني فترميها لزبّال الحارة أو للقطط. كانت تحضر جمعيّتين في الشهر، واحدة مع نساء الجيران والثانية مع نساء العيلة.

وافقت ابنها، وفكّرت، أعيش بالقرب من ابني وأتخلّص من زيارات الأمن. وراحت تخطّط وتسجّل ما تنوي تموينه من أجل السفر. خميرة اللبن وقطرميز مكدوس وجبنة ولبنة وزعتر وورق عنب وملوخيّة يابسة وباذنجان مشوي وقهوة عربيّة وغيره.

انتظرت ستّة أشهر حتى انتهى من إعداد أوراقها وهي تعدّ كلّ يوم المؤونة التي ستأخذها. حين أخبرها أنّه سيحجز لها خلال شهر، صبغت شعرها. ارتدت، مزهوّة، طقمًا بلون رمادي كانت ابنتها سماح قد أرسلته لها من السعوديّة، مع بلوزة معرّقة بلون اللفت، تناولت جزدانها الجلدي ومضت لجمعيّة النسوة، حاملة نبأ

سفرها. لم تفكّر كثيرًا بارتجاف جفنها، لأنّ التغيير الذي ستفعله في حياتها يُعيد إليها قيمتها، فكّرت: ابني اشتاق إليّ ويريدني أن أعيش معه. وستضيف متفاخرة: يقول، لا بركة في البيت بدونك.

وهكذا غادرت البلد آسفة فقط على الياسمينة والختميّة وأصيص ورق الأخضر، قلب عبد الوهّاب. وضعتها جميعًا في بيت الجارة وأوصتها بسقايتها.. قالت: يعوّض الله..

في بداية وصولها إلى لندن زاد ارتجاف جفنها ارتباكًا من تلك المدينة الكبيرة، وخوفًا من أن يكون وجودها ثقيلاً على ابنها وزوجته. لم تسرّ كنّتها بقدومها، ثم أولتها عدم اكتراث، تكثر من الخروج إلى عملها أو مع صاحباتها، أمّا غالب ورغم اشتياقه لأمّه ونقمته على من تسبّب بعيشها وحيدة وعلى من حرمه من بلده وأهله، فإنّه يحسّ بحاجز بينه وبينها، كان يحرج أن ينظر في عينها مباشرة، تبادلا معًا أزمة التواصل، ولكلّ منهما تفسيره الخاصّ للحالة، ربّما بسبب الغياب الطويل، ظنّ غالب، وأمّل نفسه بأنّه بعد مدّة من العيش المشترك ترجع علاقة الأمّ بابنها وعلاقة الابن بأمّه. طلب منها راجيًا أن تتصرّف كما لو أنّها في بيتها، وعدته بذلك لكن في كلّ مرّة كانت تخجل، حين يذهبون للتسوّق، تمشي وراءهم أو على جنب لتخفّف قدر الإمكان من ثقل وجودها. دخلوا المجمّع، ناولها ابنها السلّة كي تختار ما تريد، اختارت علبة الحليب التي وجدتها مشابهة لما في بلادها فقط. ناولته إيّاها عند صندوق المحاسبة، تذمّر قائلاً: يا أمّي عليك الانتباه إلى مدّة الصلاحيّة، وأشار بإصبعه، سوف تنتهي قريبًا.. ارتبكت،

خجلت، فضحكت في وجهه راجية واعدة أنّها سوف تنتبه في المرّة القادمة. خرجوا من المجمّع الكبير ليتوجّهوا إلى قطار الأنفاق، مرّر الكرت كالعادة وقال: اعبري. كان المعبر إلى رصيف قطار الأنفاق يحوي قضيبًا حديديًّا يخيفها.. عبرت ممتلئة بالرعب، ممّا سبب لها نظرة امتعاض خاصّة من هؤلاء الإنكليز الذين كانوا، بنظرها، دائمًا على عجلة من أمرهم. وحين اضطرّت إلى الدرج الكهربائي، أمسكت بيد ابنها وباليد الأخرى المقبض المتحرّك.. كانت تحسّ أنّ عمرها سيفرّ منها مع مرور السواد عبر كفّها. وفي إحدى المرّات أرادت أن تثبت لابنها أنّها تستطيع الاعتماد على نفسها، سبقته إلى الدرج النازل، ناداها: أين ذهبت؟ ليس هذا الاتّجاه، كانت قد قطعت جزءًا منه.. ما الذي عليها فعله؟ كانت عربة التسوّق بيدها، حاولت أن تعود فأوشكت أن تتدحرج. صاح ابنها: أكملي..

أكملت ولحق بها ليعيدها إلى الاتّجاه المطلوب. ظلّ قلبها يخفق طوال وقت الرحلة التي تمتدّ طويلاً في قطار الأنفاق. أدارت وجهها إلى النافذة المعتمة تغالب دموعها تارة، وتمازح ابنها تارة أخرى، ومن بين الغصّات تقول وتعيد:

ـ يخرب بيت الجهل.. أمّك جاهلة.

ثم، كي تنسيه جهلها، راحت تشتكي كنّتها، قالت إنّها تعاملها غريبة، وأنّها تريد أن تطبخ لهم وتطعمهم.. لكن ابن بطنها استمع بإهمال، ثم قال لها إنّ زوجته تحبّها وتحترمها، ثم إنّ إعداد طبخة كلّ يوم كما كانت تفعل في حماة، يكلّف الكثير من المال. أشفقت

أمّه، كيف لا تعدّ له طنجرة من الكوسا المحشوّ الطازج؟ أو طنجرة باmiاء خضراء، أو مقلوبة أو «منزّلة الباذنجان». . ! قرأ ابنها ما يدور في رأسها، نصحها أن تتردّد إلى الجامع القريب من منطقتهم لتقرأ القرآن وتلتقي النسوة المسلمات، ارتاحت للفكرة، ورجعت إلى بيت ابنها أقلّ اغترابًا.

جلست أمّ غالب بجانب امرأة من قدّها، تناولت القرآن وفتحته، وأخذت تصغي لما تقوله المرأة والقرآن في حضنها، صار للمرأة سنين طويلة في إنكلترا، لم يكن اسم الشعب الذي يعيشون وسطه الشعب الإنكليزي، كان اسمه الشعب الكافر، مال الكافر مباح، ولا ذنب يقع إن امتدّت أيدي المسلمين عليه. غلبتهم حلال، وعلى المسلمين أن يصونوا البنات والأولاد، حيث يجرّب التربويّون استمالتهم إلى ثقافتهم في المدارس وأماكن النشاطات الأخرى، هكذا راحت المرأة تنبّه وتعظ، كانت تتحدّث بلهجة عربيّة غريبة على أمّ غالب، لم تفهم أمّ غالب كلّ شيء، لكنّها اهتمّت بإحلال مال الكافر. .

والكافر ذلك المحقّق، صفعة المحقّق التي تصفع ذاكرتها. لم تلحق أن تقول كلمة: ما بعرف. حتى جاءتها صفعة هائلة، شعرت معها بخدر عميق عند صدغيها وأذنيها. . وقالت له: شو بدكم؟

- كلّ شي بتعرفي.

عدّدت له أسماء معارف ابنها وأسماء أمّهاتهم. كان يرتشف قهوته وهو يقلب في مصنّف أمامه بأصابعه نفسها التي صفعها بها على وجهها. ورائحة عطره تجعلها ترتعد أكثر.

أبلغوها أن تُراجع فرع الأمن العسكري. لبست معطفها القديم وربطت منديل رأسها، ومضت إلى دكّان أخيها:

- بتروح معي خيّو؟

زفر، كان يفرغ سطل اللبن بكفّ مقطوعة الأصابع، أصابته شظيّة وهو متقوقع فوق أولاده في قبو بيته في «بستان السعادة» أثناء الأحداث ذاتها. وقد رافقها مرّات عديدة إلى فرع الأمن العسكري، وكره هذا.

لم يجب، رمى سطل اللبن بعصبيّة، تناول مفاتيح الدكّان، ودفعها أمامه خارجًا. أغلق الباب إغلاقًا موقّتًا، وهرول أمامها. ركبا الميكرو باص الذاهب إلى طريق حمص، أوقف أخوها الميكرو قبل فرع الأمن بمسافة طويلة كي لا يُثير ارتياب الركّاب أو شفقتهم. مشيا على الأقدام تحت الحرّ الشديد مسافة طويلة، امرأة في الستينيّات من عمرها وأخوها في أواسط الخمسين، يقطر العرق من جسديهما من الخوف والحرّ والمشي السريع البطيء في آن. كانا يهرولان أحدهما جانب الآخر، أخوها بقامته القصيرة وكرشه وكنزته الضيّقة، وأمّ غالب بالمانطو الأسود ذي الأكمام الطويلة التي تغطّي أصابعها، والمنديل السميك الذي يخفي وجهها ورأسها الصغير. رغم وجع الركبة المزمن تحاول جاهدة، راجية، أن تلحق خطوة أخيها السريعة علّها تخفّف من ضيقه وتذمّره.

انتظرها على مبعدة من الفرع، في الخلاء تحت شمس الظهيرة، ودخلت بمفردها.

خرجت إليه بعد ساعات طويلة، ووجدته واقفًا بوجه أصفر

وركبتين متهدّلتين. كان بكنزته القصيرة على بنطال غير مكوي يزيد ذنبها، وخجلها..

ـ سألوكِ؟ قال أخوها وكأنّه يودّ ألّا يسمع شيئًا.

ـ سألوني، أجابت.

سألها ضجرًا ومن دون أن ينظر في وجهها:

ـ سؤال وجواب؟

ـ سؤال وجواب، أجابت.

شدّدت حجابها الأوّل على طرفي وجهها وعنقها، وأرخت منديلها فوقه، وانتهى الحديث. صعدت الميكرو باص بجانب أخيها راجعة إلى البيت. أسندت خدّها الأيمن على زجاج النافذة وراحت تنظر في الطريق الذي ينطّ مع نطّات الميكروباص، تحاول تناسي ألم خدّها، وتواسي نفسها بأنّ كلّ الناس مرّوا بالعذاب نفسه، كان ألم ركبتها يختلط مع ألم خدّها. جاءتها أغنية «أحنّ إلى خبز أمّي» من الراديو، ضاق صدرها، يخرب ديارهم على هالضرب. أنا أمّ، أمّ..؟ شعرت أنّها غريبة على هذه الكلمة. تقهرها أمّ بشير حين تتفاخر وتحكي عن صمودها في التحقيق وكيف أنّهم لم يستطيعوا انتزاع كلمة واحدة منها. تقول إنّها تدعو عليهم في وجوههم: ربّنا قادر على كلّ شيء، وربّنا على الظالم.

قرّرت أمّ غالب ألّا تخبر أحدًا عن الصفعة ولا عن كلّ ما جرى بينها وبين «ابن الحرام». قال لها بعد أن أجابت على السؤال الأوّل: أشلّحك ثيابك إذا لم تتكلّمي. كانت مرتدية لباسًا قطنيًّا

طويلاً وقميصًا إضافيًّا كي تستر ثدييها وبطنها. . هدّدها بخلعها ثيابها. .

عليها نسيان كلّ ما جرى. أشعلت الحمّام وخلعت ثوبها الذي من المحتمل أن يكون قد تنجّس بهوائهم، فكّرت كارهة، لكن، هي الآن ملوّثة بداخلها الجبان والضعيف، ذكرت كلّ الأسماء وما تعرف من أخبار حولهم. ربّما سيأتي يوم يُعيّر ابنها بأمّه الجبانة، ابتلعت ريقها، لكنّ الزمان تغيّر، ولّى حزبهم وجماعتهم وابنها كسلان، وبقناعتها لا يريد أن يعمل ويكسب مالاً. وراحت تسكب الماء ساخنًا جدًّا، ومع تصاعد بخاره من جسدها المنهك، كانت تجهش بصمت، ماسكة بيدها ركبتها التي تخزها ألمًا كسكّين.

والآن ورغم أنّها آمنة في لندن، إلّا أنّها غريبة. . سألت ابنها غالب عن المال السائب، كيف يتركون رزقهم هكذا، بلا رقيب! أجابها مشيرًا إلى حاجز رفيع عند صندوق المحاسبة، قال، يرنّ جرس الإنذار، يخبر أنّ السارق يمرّ من هنا. لم تفهم أنّ مجرّد كيس أو رمز أسود على ورقة يمكن أن يخبر عن السرقة، وجرّبت الاقتحام.

أوّل سرقة كانت حبّة من البرتقال. . نظرت حولها ووضعتها في حقيبتها، مرّت محمرّة الوجه ومضطربة، ونفدت، لم يرنّ جرس الإنذار. ذاقت أمّ غالب لذّة السرقة.

وتسلّطت عليها العادة السوداء.

ربّما كان سببها انشغال ابنها وقسوة كنّتها. أو وحدتها في البلد الجديد واللغة التي لا تفهمها ولن تتعلّمها، أو مواعظ تلك

المرأة في المسجد، أو أحبّت أن توفّر مال ابنها سرًّا، وتوفّر بعض المال لنفسها، وهي ترى أنّ أحوال ابنها الماليّة ليست كافية، وحين تقرّش تُصاب بالوجع، كيف لها أن تشتري باقة البقدونس بمئة وعشرين ليرة أو الباذنجانة بستّين ليرة.. كيلو الباذنجان يصل في الصيف في بلدها إلى عشر ليرات. يعني بهذه الستّين ليرة تشتري أمّ غالب ثماني عشرة باذنجانة في حماة، كذلك الكوسا والبندورة وكلّ ما يلزم لإعداد طبختها لابنها المحروم من طعامها سنين طويلة.

حرام؟ يعني مصير السارق نار جهنّم؟ لا، ليس حرامًا، هذه أموال كفّار! كما لن تستطيع أن تنسى صفعة الضابط التي خبّأتها عن الجميع، وربّما ينتظرونها في المطار، كي يقبضوا عليها لتمتدّ كفّ ضابط آخر وتصفعها، هذا الخدّ اعتاد على اللطم..

حملت سرقتها ومضت إلى بيت ابنها. كان بزيارة كنّتها نساء سوريّات. رحن يتحدّثن بالسياسة، ويتحسّرن على كرامة المواطن. أدهشت الحاضرات، هي المعروف عنها انطواؤها: كرامة وغير كرامة؟ يعني كلّ من حولنا سُجن وتعذّب وطُرد من عمله، يأتي أيّ واحد أو واحدة من أهل البلد ليقول إنّهم لم يعذّبوه، ثم أضافت داعمة كلامها بمثال: أخبرتني جارتنا أمّ سمير بأنّ زوجها حين غاب ثلاثة أيّام كان بالتحقيق وأنّهم شلّحوه بالزلط. قالت والله تقطّع قلبي عليه ليلة رجع، كيف كان يبكي، يعني أبو سمير وهيبته، بعمري لا أنسى، تغيّر من بعدها. وصار يمشي بالطريق برأس واطئ، ولم يعد يكترث بأخبار ابنه الذي كان السبب، ولا بأخبار الجماعة.

نبّهتها إحدى الحاضرات إلى أنّ الله يحبّ عبده الكريم وأنّ الإنسان المؤمن هو الذي يحافظ على كرامته.. قاطعتها أمّ غالب: كلّ الناس يريدون الشغل بالسياسة. لو أنّ الشباب أخذوا شهادة التاسع وفتحوا محلّ كعك، والله يكسبون.. جيراننا يبيعون الكعك، كانوا بعثيّة، لكن أوادم، وساكنو الباب المجاور في الحارة تجّار قطع تبديل وماشي حالهم، يُقال إنّهم يصرّفون عملة، أوادم وبحالهم بذاتهم. ولم يتدخّلوا بالسياسة.

قالت لها إحدى الحاضرات:

ـ يا أمّ غالب تصريف العملة تخريب للاقتصاد.

أصرّت:

ـ أوادم.

مطر في لندن، مطر.. لا يتوقّف لكنّه بلا طعم ولا رائحة. وأمّ غالب مبلّلة وتتذكّر، كانت رائحة التراب المبلول في الحارة تذكّرها بزوجها. حين يستيقظ في الصباح، يصلّي، بينما تعدّ له الفطور: مكدوس وزيتون ولبنة وخبز طازج يرسله الفرّان، تفرده قليلاً، ثم تقطّعه بيديها وتناوله نصفًا، يأخذه قائلاً: تسلم إيدك، بسم الله. فتنظر إلى شفتيه وقد تغبّرتا بطحين الخبز. أخذوه بالأحداث. ليست وحدها، ثلاثة أرباع نساء الحارة أرامل. الآن لا تتذكّر زوجها كثيرًا، مضى زمن طويل، أبو غالب كان آدميًّا وكانوا يقولون، حين يتبرّع بالأذان، إنّ الإفطار على صوت أبو غالب له طعم آخر. حمل ابنه سلاحًا وتشرّد. أمّ بشير ملعونة،

تفكّر أمّ غالب، رغم أنّ ابنها أيضًا فرّ من البلد وتعرّضت لاستدعاءات كثيرة لكنّها تعرف كيف تتصرّف مع عناصر الأمن. توجّه زوجها على كيفها.. روح روح، تعال تعال. أمّا أبو غالب، تتذكّر زوجها: الله يرحمه، لم يكن يسمع لها كلمة، كان يعمل عكس مشورتها دائمًا، لا تبيع الدار، يبيع الدار، اترك لي هالخزانة، يناولها لأوّل عابر يحتاجها، غالية على قلبي شجرة الكرمنتينا. يقطعها في اليوم الثاني بحجّة أنّها تجلب النمل، وحين تعاتبه، يستغرب ويقول: لم أنتبه، نبّهيني يا مرة، ما أغشمك. تسكت راضية بهذا الاعتذار.

تقول أمّ بشير بتعالٍ: ربّينا وتعبنا. يكفي أن تقول هذا ليفهموا إشارتها إلى ابنها بشير. يظهر في التلفزيون ويحكي بركازة. كذلك تفعل سعاد وتفتخر بابنها أيمن، وهي مستقرّة مع زوجها في بيتها، لم تأخذ الأحداث أحدًا من أولادها. أمّا هي فقد أخذت الأحداث زوجها وعماد بيتها، وابنها غالب حمل سلاحًا، وهي بيدها من كانت تُخفي السلاح، كما كانت بيدها تُخفي بذلات الرقص التي كانت بناتها يزيّنّها، كما بيدها تخفي كلّ ما يُطلب منها إخفاؤه، أخفت أيضًا صفعة المحقّق، وأخفت وجهها تحت منديلها طوال العمر. وتخفي الآن مسروقاتها من الطعام. وتدعو أيضًا أن يخفيها الخالق من الوجود.

وتتلفّت حولها، برأسها الصغير المحجّب، وتحدّث نفسها: ما بال هذا الجيل، وهذه الفتيات؟ أستغفر الله! إنكليزيّات، هذه تظهر بطنها وتلك ظهرها وهذه تمسك بركبة صاحبها وتتحرّش به بلا

حياء. ثم تنظر في السماء، مطر لا يتوقّف. كلّ شيء نظيف ومغسول لكن بلا طعم. حين يأتي المطر بربيع حماة توشك الناس أن ترقص: خيرات.. خيرات تعمّ الجميع. تنزل أسعار الخضرة واللبن، وكلّ البضائع، تشرب الناس الحليب وتأكل اللبنة والجبنة وتحمد ربّها ليل نهار، سعر اللحمة يرتفع قليلاً، فتميل الناس لأكل لحم الدجاج، هذا كان في قديم الزمان..

أمضت الفترة الأولى من قدومها، بين التذكّر والتعجّب، وبين محاولاتها التقرّب من كنّتها، عبثًا، يلتقون وقت الفطور، يأكلون بصمت وينطلقون كلّ لمشاغله، كنّتها تعمل في روضة أطفال، وابنها يذهب كلّ يوم إلى مكتب العمل، وأمّ غالب تتمشّى في الطرقات بمعطفها الطويل نفسه ورأسها الصغير المغطّى بالأسود، إلى أن اعتادت البلد الجديد، واقتحمته بطريقتها الخاصّة، كلّ يوم تجرّ عربتها التي اشتراها لها ابنها «الله يرضى عليه» وتذهب إلى المجمّعات. تملأها بكلّ أصناف المأكولات والمشروبات. وتعود من دون أن ينقص ما في جيبها.

يسألها ابنها عن ثمن ما أحضرت فتقول أوّل رقم خطر في بالها. ذلك لأنّها كانت تسرق معظم ما تُحضره. تملأ عربتها بأنواع الخضار والخبز والحلويات وكلّ ما يمكن أن تجده بلا ورق أو غلاف، والشرط أن يكون حلالاً، خاليًا ممّا يمتّ بصلة للخنزير.

صارت تفعل هذا من دون أن تتفقّد ما يحدث حولها، كأنّ ما تفعله حقّ لها. تملأ حقيبتها حتى تغصّ وتمشي إلى البيت ظافرة ومرتاحة..

تنام مبكرة كي تتلذّذ بحلم الغد. خيرات جديدة وسهلة المنال، وذنوبها في السماء لم تزد شعرة، على العكس ربّما قصر حسناتها يعلو ويكبر.

تستحثّ الصباح أن يأتي كي تمضي إلى جولتها اليوميّة وتعود مالئة سلّتها. عزّ، صحيح أنّه عزّ مسروق.. لكن طالما أنّهم لم يباغتوها، فلا وزر عليها، تفكّر. أين كان هذا العالم، حين ضربني كفًّا ابن الحرام؟ تبرّر مرتاحة. لن تزعج حالها بجروح الماضي، لذّة السرقة هي الأهمّ الآن، تتفقّد الأشياء التي أخذتها. وتحسّ بطعم من يعلك قطعة من حلوى «الراحة» الطريّة.. امتلكت أشياء كثيرة وبلا تعب، ويمكن أن تقدّمها الآن لأيّ سائل، وتكسب الثواب الكبير، لكن هنا لا يشحذون، مثل ما يفعلون في البلد: رزّ، سكّر، صابون.. هنا يعزفون الموسيقى ويفتحون حقيبة لوضع الفلوس. وهذا صعب على أمّ غالب الآن، لا تريد أن تعطي شحّاذي لندن، ابنها أحقّ بهذا المال.

أفرغت حقيبتها من الخضراوات والفاكهة والحلويات. رفعت رأسها عن العربة وإذا بكنّتها تراقبها ببرود، سألتها عن الفاتورة، أجابتها بعصبيّة: وهل أفهم أنا بالفاتورة؟

نظرت كنّتها في وجهها، ومشت بدون كلمة. كان العرق يتقطّر من خدّي أمّ غالب وجبينها.. بعد قليل رجعت الكنّة إلى المطبخ وأفرغت الثلّاجة من كلّ ما أحضرته حماتها، وضعته في العربة من جديد، وراحت تعدّ عشاء ممّا تسوّقته بنفسها..

خافت أمّ غالب أن تفضحها كنّتها. نامت مرهقة. ونوت

بإصرار أن توقف هذه العادة، قرّرت أن تجلس في البيت تقرأ القرآن وتصلّي . .

وفي الصباح، لم تجفّف أمّ غالب التواليت جيّدًا بعد استخدامه. زفرت كنّتها.

ـ لم أعتد بعد على التمسيح بالمناديل بعد التبرز.

كانت في بلدها في بيتها تدلق الماء لتتطهّر، بعد الانتهاء من قضاء الحاجة، تملأ «بيت الأدب»، جدرانه الصغيرة وأحيانًا سقفه، ماء، هذه متعتها منذ كانت صغيرة، ثم تخرج لتغسل كفّيها بالماء والصابون الكثيف، وكلّما فارت الرغوة على كفّيها تتنهّد من قلبها.

سرقت إبريقًا يستخدم لسقاية الأصص. يوجد منه الكثير في حدائق البيوت التي تراقبها في طريقها اليومي. مضت مبتهجة به، الإبريق مزوّد بقناة طويلة ورفيعة تمكّن الماء من الانهمار إلى ما بين الساقين فتغسل من الأمام ومن الوراء. ويندلق الماء على «النجاسة» ويشفي غليلها.

توضّأت وصلّت واستغفرت، ولكن وعلى سجّادة الصلاة نفسها، أحسّت بهمّة جديدة وطاقة ورغبة قويّة بالذهاب إلى الساحة وسرقة القميص ذي اللون الشرابي الذي اشتهت أن يلبسه ابنها، لأنّه يليق بلون وجهه وشعره، وسيكون مناسبًا على البنطال البيج. لملمت سجّادة الصلاة، وهيّأت عربتها عند الباب.

ـ لا داعي للخروج الآن، ما زال الوقت مبكرًا.

تحدّث إلى أمّه بشفقة بينما كانت زوجته تنظر إليها باستنكار.

نفرت من نظرتها، قالت لابنها إنّها منقبضة وتريد الخروج. وضعت قدمها في حذائها الرخو، ربطت غطاء رأسها، زرّرت معطفها الرمادي العريض، وفتحت الباب بإصرار وخرجت.

جلست على أوّل مقعد صادفها. ما إن ارتاحت وأخذت حصّتها من الهواء وخفّ لهاثها حتى تراءى لها القميص الشرابي. هبّت واقفة ومضت بأسرع ما يمكن إلى المجمّع الكبير. هربت إلى الطريق ساحبة عربتها معها. لم تعد تستطيع المشي بدونها، صارت كذيل يرافقها، وعصًا تتّكئ عليها، وحقيبة تخفي مناديلها التي تمسح عيونها بها، وصندوقًا لكلّ ذنوبها، سرقاتها. لا تعرف لماذا تبكي الآن؟

«ما نفعي؟ أووف.. والله اشتقت لمخدّتي التي كنت أشاهد منها التلفزيون.. ربّما إذا أخبرت أمّ بشير أنّ بلاد الأجانب حلوة ونظيفة، ستسخر قائلة: بلاد الكفّار».

كلّما حاولت التقرّب من كنّتها، تتجنّبها الأخرى، تردّ على أحاديثها بكلمة واحدة مقتضبة وتمضي إلى هاتفها وتثرثر مع صديقاتها، أو إلى التلفزيون..

صادفتها بالقرب من البيت تتسكّع مع صديقة لها تتضاحكان، صارت حماتها أمامها. وقالت: وين رايحين. أرادت أن ترافقهما، لكنّهما تبادلتا النظر خلسة واخترعتا حجّة للهرب منها.

أسرعت إلى أكبر مجمّع، دخلت مع عربتها، وبدأت تجمع فيها ما ترغب بسرقته، تناولت أفخر نوع من الأفوكادو، الكيوي، وأنواع فاكهة لا تعرف أسماءها، ثم وجدت بطّيخة حمراء كبيرة،

نزعت اللصاقة عنها ووضعتها في عربتها، خفق قلبها حين رأت عربتها مليئة، تلك اللذّة التي تشفي قلبها حين تخرج من المجمّع وتنفد بمسروقاتها، سوف يُشفى غليلها من كلّ ما ينغّص عليها، في ذاكرتها وفي حاضرها.

نفدت من حاجز إنذار السرقة، ارتاحت، وأسرعت تخرج من الباب الرئيسي للمجمّع، حين أحسّت بهيكل كبير يخيّم فوقها:

ـ افتحي عربتك.

أمرها بإنكليزيّة باردة وحازمة. ورغم أنّها لم تفهم ما الذي قاله لها، إلّا أنّ لهجته وإشارته لم تكن تحتاج إلى ترجمة، وعرفت أنّها وقعت. نظرت حولها، تعرّقت، آلمتها ركبتها، ثم التفتت إليه وهو ينتظر ببرود:

ـ الله يخلّيك يا ابني، أنا بعمر ستّك. لا تفضحني.

لحظات قليلة وكان فوق رأسها موظّفة تعرف العربيّة، وراحت تترجم ما يقول لها الحارس.

ـ أتعرفين أنّني يمكن أن أحضر البوليس خلال ثلاث دقائق.

تترجم البنت المحاسبة بوجه بارد وحيادي.

ـ الله يستر عليكِ، شو أعمل؟ قالت أمّ غالب للبنت المترجمة، ظانّة أنّ البنت ستتعاطف معها وتساعدها. لوت البنت شفتها مع هزّة من كتفها، بمعنى لا أدري. أو لا أكترث.

أفرغوا ما في حقيبتها، واستمرّوا في توبيخها باللغتين

الإنكليزيّة والعربيّة، أصبح لون أمّ غالب أصفر، تعرّقت ومالت تتسنّد إلى الجدار، تركت لهم العربة، وهمّت أن تمشي، أمسكها الحارس من ذراعها بحزم واستمرّ بتوبيخها.

استيقظت في المشفى.

ـ يبدو أنّها تعرّضت لإجهاد كبير. قال الطبيب لابنها الذي وقف حائرًا.

أقسمت:

ـ وحقّ الله ورسوله، لأ، أكثرت من الملح عند الفطور.

حاولت النهوض لتذهب مع ابنها، أمسكها الطبيب بضغطة على ذراعها، وهو يكرّر ببرود:

ـ حالتك تحتاج مراقبة في المشفى. الضغط مرتفع جدًّا.

كانت تتذكّر نظرات الرجل الباردة وهو يكرّر اتّهامها والتضييق عليها فتطرق في رأسها، كذلك صفعة المحقّق في حماة، ولم تجد شيئًا تقوله إلّا أنّها ترجو الله أن يعجّل بأجل الأمّهات الخاطئات!

مكثت في المشفى بضعة أيّام، وفي صباح يوم تخريجها، قالت لابنها:

ـ الله يخلّيك، والله يرزقك، أُريد الرجعة إلى بلدي وبيتي.

انصاع غالب لرغبة أمّه، حجز لها في أقرب طائرة على الشركة السوريّة للطيران، كان يكره لافتة الشركة أو يتضايق كلّما مرّ بالقرب منها، يتجنّب النظر إليها، تتناهبه مشاعر متناقضة، كراهيّة

وحنين وحقد وندم وشوق، «من هو المسؤول الأوّل لعيشه في تلك البلاد؟ لم يكن يعثر على جواب، التدريب على حمل السلاح وجماعة الإخوان؟ إسرائيل؟ حافظ الأسد؟ أهل حماة؟ ربّنا؟ من هو المسؤول»؟

تذكّر حين كان يحمل رسائل التهديد التي يسطّرها مسؤوله في جماعة الإخوان ويقوم بتوزيعها ليلاً على بيوت المسؤولين قليلي الشأن، عضو عامل أو نصير في حزب البعث، عضو في نقابة العمّال، موظّف، معلّم، موجّه مدرسة، محلّ ارتياب أنّهم يكتبون التقارير بالشباب الذين يذهبون إلى الجامع. يتسلّل ليلاً متنكّرًا بكلّ الأزياء الممكنة، يرمي الرسالة أمام باب المسؤول هدفهم، ويرجع ليحلم بوجه الرجل خائفًا وهو يقرأ الرسالة بأنّ عليه التوجّه إلى منبر الجامع ليعلن توبته وعودته إلى صراط الإسلام.

أوكلت إليه مهامّ أخرى أصعب وأخطر، أوكل إليه قتل مدير الثانويّة الذي أودى بعدد كبير من الطلّاب المنظّمين في جماعة الإخوان إلى التحقيق ثم إلى الاعتقال، نفذ غالب بجلده وتخفّى، وكانت مهمّة قتل مدير المدرسة هي المهمّة الأكبر التي لا ينساها، لأنّه سافر بعدها، وانتهت مهامّه في البلد، كان يعرف أبناء مدير المدرسة، جيرانهم، إحدى بناته كانت بعينين واسعتين وبدينة، وكانت تعجبه، لكن لم يكن يعجبه أنّها وعمّاتها «متحرّرات»، لم يكن يعني عائلتها أن يرى الناس مائدة غدائهم في عزّ رمضان، جاءه أمر قتل أبيها، مع الخطّة اللازمة لذلك، نفّذها في وقتها ورجع إلى البيت، تحضر الآن في الليل والنهار بكلّ تفاصيلها،

تأتيه ندمًا حينًا، وضيقًا حينًا آخر، وكثيرًا ما يتذكر الأمر ببرود وبأنّه لم يكن بالإمكان إلّا ما كان، هستيريا، كلّ الناس اشتركوا فيها، ذنب مدير المدرسة، وذنب الشباب الصغيري العمر، أراد أن يُجيب أمّه حين أتت باكية من عزاء جيرانها، قالت أمّ غالب لابنها، البنت فطرت قلبي من بكائها على مقتل أبيها، وتقول إنّ من قتله مجرمون، وقالت لكلّ الحاضرات الجالسات بالحجاب: اخرجن من بيتنا، لا نريدكنّ. قالت أمّ غالب لابنها غالب: مسكينة بنت المرحوم، الله يعفي عنها. كان غالب يقف بجانب المغسلة يستمع لأمّه حين عودتها من العزاء، تثرثر عن العزاء، جاهلة تمامًا بأنّ من قام بفعل القتل ابنها الذي يقف أمامها، يغسل وجهه ورأسه.

فتح غالب الحنفيّة على آخرها، وراح يضرب الماء على وجهه عشرات المرّات وهو يطرد إحساس طعن السكّين في رقبة الرجل.

لم يقف مرّة واحدة مع نفسه ليضع أجوبة تريحه، مملوء بشعور واحد أنّ سوريا من حقّهم أوّلاً وليس من حقّ من لا يحمل كلمة الإسلام والعروبة، من حقّهم لأنّ نيّتهم أن يحاربوا إسرائيل، ويحكموا بعدل الإسلام. لكنّ أمّه اليوم سارقة خضار وفاكهة، فليقطع لها تذكرة ولتتآوى في بيتها، وليبق هو في غربته، يجترّ ماضيه، وحاضره وذلّه.

* * *

لم تشغل فداء بالها كثيرًا بشخص رئيس الجمهوريّة وعائلته وكلّ حكومته بوزرائها ومسؤوليها وضبّاطها، لكنّها فوجئت بشدّة حين رأت دموع أمّها تترقرق أمام التلفزيون، كان صوت المذيع يتهدّج بإتقان ينبئ عن حادث باسل الأسد على طريق المطار. كانت السلطة بالنسبة لفداء شيئًا مبهمًا في دمشق، مكانًا ساخطًا، مكانًا لاتّخاذ القرارات الظالمة بحقّ الشعب، ومكانًا لإجراء العقود التجاريّة بحقّ مال البلد وأهل البلد. ولم تفكّر كثيرًا بعد ذلك بأحوال البلد وأحوال أجهزة الجيش والأمن وموظّفيها وضبّاطها وكلّ من يستفيد من الفترة الراهنة، إلى أن سكنت عند جارتهم فتاة من منطقة الساحل، حصلت على الماجستير في ألمانيا، مثل كثيرين وكثيرات، نُدبوا بالواسطة البحتة، ابنة مسؤول سابق وضابط في الجيش. أتت قادمة من دمشق لتعمل في الإيكاردا، شركة تابعة للأمم المتّحدة لديها أبحاث ومشاريع في المناطق الجافّة، وكان العمل في تلك الشركة حلمًا للكثيرين، شروط القبول لمن يتقدّم للوظيفة غير واضحة، لن تفيد المتقدّم لغته الإنكليزيّة ولا تعليمه

العالي ولا تفوّقه وشهاداته في الاستشعار عن بعد، عمل الشركة الأساسي أو الظاهري، ولا أحد يعرف السرّ الذي يجعلهم يقبلون فلانًا عدا فلان. إلّا أنّ البنت أتت وسكنت عند الجارة، موظّفة في الإيكاردا. عرفت فداء لأوّل مرّة كيف يعيش أغلب المسؤولين وأولاد المسؤولين، كيف يتعاملون، كيف يفكّرون بالناس وبالآخرين. كانت فداء تكتفي بالسلام عليها وتمضي، لكنّ البنت تقرّبت منها وحاولت أن تكون رفيقة لها، لم تعترض فداء على هذا، أخذته بفضول. كانت تأتي إليهنّ في البيت بدون موعد سابق، تشرب القهوة وتتحدّث. كان يبدو عليها الزهو، تتحدّث عن نفسها وعن مواهبها واعتنائها بصحّتها وعن الأشياء الغالية الثمن التي تشتريها، عن أبيها ونظافة يده، وأنّه غير كلّ الضباط لم تتلوّث يده، وأنّ رئيس الجمهوريّة كان راضيًا عنه تمامًا أثناء عمله. كانت فداء تكتفي بالإصغاء وهزّ رأسها. وفي إحدى زياراتها، ومن غير سابق إنذار، سألت فداء، عن أحداث حماة.

ورغم أنّ استذكار الأمر بالنسبة لفداء أمر ممضّ وصعب، إلّا أنّها أجابت بجرأة: برأيي قتلوا المدينة بحالها، أهلها وبيوتها. أجابت البنت وهي تأكل الفستق: قال أبي، إنّهم دفعوا تعويضات للناس..

تركت فداء الغرفة والبنت، وظلّت بعدها أيّامًا متوتّرة ومتضايقة.

جاءت مرّة أخرى لزيارتها ويبدو أنّها شربت الكثير من البيرة، وسرحت وراحت تتحدّث عن ابن الرئيس الذي يعدّونه لتسلّم

منصب أبيه، وحلمها بالزواج منه، وقالت: يا قلبي، كم سيكون صعبًا عليه تدبّر أمر الشعب والبلد.

أدركت فداء الاختلاف الهائل بين حياتهم وحياة أولاد المسؤولين، وأدركت أنّ هؤلاء المسؤولين الذين يتولّون السلطة، ويعنون لأهل المدينة رمزًا للشرّ، ينفرون منهم حتى حين تظهر صورهم في التلفزيون، هم ذاتهم أمراء عند هؤلاء وأحلام مشروعة وكبيرة.

كأنّها اكتشفت لأوّل مرّة المعنى الحقيقي لانقسام الناس أولاد الأرض الواحدة.. شغلها هذا، وجرّبت أن تشرحه لأبيها لكنّه لم يفهمها، أو فهمها ولكنّه رفض أن يدرس الأمر بعقلانيّة، أو رفض تحليل ابنته. اعتاد الناس أن يحلّلوا الأمور من خلال خوفهم الشديد أو من خلال بؤسهم وذاكرتهم المُرّة، أمّا فداء فقد تناولته بتساؤل لم يرق لمن حولها.

وناقشت سبب رفض قريبتهم لمحافظ حماة، كان تقدّم لقريبتهم محافظ حماة الذي تسلّم حديثًا، رفض أهل البنت الطلب جملة وتفصيلاً، ولم يكن لديهم مبرّر غير كلمتين: ليسوا منّا. كان تساؤل فداء، إذا كان رفضهم بسبب أنّ الرجل مسؤول، فهو قد تسلّم الآن فقط، ولم يجرّبوا الرجل بعد، وربّما يصبح وزيرًا، يعني بنظر الناس عزًّا وجاهًا، فلِمَ يرفضونه؟ استغرب الأهل تساؤل فداء، فكلّ ما لديهم من جواب هو، ليسوا منّا.. كان سبب تساؤل فداء أنّ البنت التي سكنت عند جارتهم، عرضت عليها أن تقابل أخاها بهدف الزواج. أجابت فداء: لا! من دون أن تعي سبب رفضها السريع، كانت لا تستطيع أن تفصل في ذاكرتها بين وجوه

عناصر الوحدات التي أتت إلى بيوتهم وبين وجوه المسؤولين وأولادهم. كان الرفض تلقائيًا كأنّه فطرتها وغريزتها. وراحت إلى حماة لتستزيد من تفسير لما يعتمل من صراع فيها وحولها. وتحدّثت مطوّلاً مع أبيها، وأخبرت أمّها عن العريس المتقدّم، ابن المسؤول، ولكن ورغم تهافت الأمّ ويأسها، من تزويج البنت الكبرى، شهقت ضاربة على صدرها باستنكار: علوي!

سنوات عديدة، وما زالت عقدة تزويج البنات تهيمن على البيت وتربك فداء وأخواتها، الجميع بانتظار زواجها، لم يهتمّوا كثيرًا بمهارتها في العمل، أو بسهرها في المشفى في مناوبات عديدة تقع على عاتقها لأنها الطبيبة العازبة. لم ترفض تلك المهمّات لأنّها تعينها على نسيان همّ زواجها وهمّ أسرتها وأخواتها.

كانت فداء بطبيعتها تخجل من طرح هذا الأمر مع صديقاتها على أنّه همّ أمّها ومن حولها، كما كانت تصغي لرفيقاتها اللواتي تزوّجن وأنجبن أولادًا وصارت لكلّ منهنّ أسرة، مشغولات ومنشغلات. تهتمّ بعملها، محاولةً تجاهل الأمر أو الهرب منه، عبثًا، ينغّص عليها، كان يخطر ببالها أنّ أمر العثور على شخص مناسب تتزوّجه ليس سهلاً، فالمجتمع طوائف وجماعات، ابن الريف لا يناسب بنت المدينة، العلوي لا يناسب السنّيّة، المسيحي للمسيحيّة، كانت تعي هذا وتناقشه أحيانًا مع نفسها حين تجلس في بلكون غرفتها في المشفى.

في أحد مساءات مناوباتها، كانت ليلة الأربعاء، جلست في بلكون غرفتها الصغير، تأكل تفّاحة، وترجو فقط ألّا تأتي أيّ حالة

إسعاف، هي متعبة ولا تريد أن ترى جروحًا وتأوّهات. كانت تفكّر بحزن أمّها وهمّها على مستقبل بناتها، وتفكّر يائسة من إمكان التقاء رجل مناسب تتزوّجه لتُريح أمّها وتسدّ حلوق النسوة اللواتي يتساءلن عن أسباب تأخّر البنت وأخواتها في الزواج. غادة التي فرّت على غفلة، تخطر في البال وتجعلها تتحسّر، لو أنّها فقط أسعفتها، ربّما كان عليها أن تساعدها وتهتمّ بها أكثر، ربّما أنّها أهملتها. راحت تمسح دموعها، كئيب هذا الليل وموحش. راحت تتأمّل في قدميها المستندتين إلى قضيب الشرفة، ثم في ساقيها، لمست رحمها، مؤكّد أنّ همّ أمها أنّ بكريّتها[1] لم تتزوّج ولم تنجب طفلاً وأنّ البنت الكبرى والتي عليها فتح الباب لأخواتها لم تفعل، سدّت باب زواجها وباب زواجهنّ. زفرت.. همّت أن تقوم لتتفقّد أحوال مرضاها، حين توقّفت سيّارة أمام باب المشفى ونزل منها مدير المشفى برفقة شخص تراه لأوّل مرّة، رفع رأسه إلى شرفتها وحيّاها مثلما فعل المدير، ردّت التحيّة بهزّة من رأسها، لكنّها أحسّت بضيق غير واضح الأسباب، برّرت لنفسها، يحدث لها هذا كلّما شاهدت مسؤولاً يعمل تحت ظلّ النظام.

لملمت أشياءها، وذهبت إلى جولتها الليليّة بين غرف المرضى، وهناك ومن خلال ثرثرات الممرّضات أُخبرت أنّ طبيبًا جديدًا التحق بالعمل معهم في المشفى يُدعى محمد.

* * *

---

(١) البنت البكر.

مع بداية الربيع، أتت فداء إلى حماة على عجل، تحدّث أباها عن زميل طبيب، يريد أن يتزوّجها.

غمرت فؤاد راحة هائلة، وكادت عينا سعاد تنطّان من الفرحة، وانهالت على البنت بألف سؤال، ثم قالت: ارتوى قلبي. ستفتح ابنتها الكبرى الباب أخيرًا لأخواتها، بعد أن كاد الجميع، بمن فيهم الأمّ والأب، يصابون باليأس من تزويجهنّ، خصوصًا أنّ موقف زوجة الأخ الكبير في السعوديّة، كان بعد حادثة غادة لومًا على قلّة الدين التي تفعل هذا بالفتيات. كانت الكنّتان، ورغم أنّهما على الأغلب في حال خلاف، إلّا أنّ حادث انتحار الصبيّة، جعلهما في حديث يومي يمتدّ طويلاً..

يجب أن تتزوّج البنات، والكبيرة أوّلاً، طبيب وزميلها بالتأكيد الأمر مناسب تمامًا، قالت سعاد. أصرّ فؤاد أن يسأل عن الرجل، قالت فداء: إنّ الموظّفين والأطبّاء يلتمّون حوله، ويغارون من نشاطه، لديه صديقان حميمان له، وهما من دفعتي في الكلّيّة، أمّا محمّد نفسه فإنّي لا أعرف عنه الكثير.

منذ الصباح بدأ استفساراته عبر معارفه في حلب ورجع مساء: أبو العريس إنسان بسيط، أحوالهم ضعيفة وضيعتهم صغيرة، والولد لم ينشأ عند أبيه وأمّه، كان يعيش معظم وقته عند عمّه الذي لم ينجب أولادًا. لم يجدوا في سمعته أيّ أمر صادم يجعلهم يتردّدون أمام قبول العريس.

لم تكن فداء سعيدة بالخطبة بقدر ما كانت تسعى لتُرجع الابتسامة للبيت، كانت تفكّر بأنّه ربّما إذا خطبت تفتح الباب لأخواتها.

حين التقى فؤاد محمّد لأوّل مرّة، أعجبه شكله، كثير الحيويّة، أعجبه مرحه وقهقهاته العالية، حيث لم تسمع قهقهة في البيت منذ سفر أيمن، كما أحبّ أنّه اجتماعي ويريد أن ينشئ صحبة مع الجميع، وحماته أيضًا، ومنذ الزيارة الأولى، طلب من لينا أن تحضر المسجّلة، أخرج كاسيت من حقيبته، وضعها في المسجّلة وصدح صوت صباح فخري. ارتبكت البنات، منذ زمن طويل لم تسمع البنات موسيقى أو أغنية طرب. اقترب محمّد من لينا وشدّها ليراقصها، نظرت البنت في الوجوه متسائلة، لكنّه لم يمهلها تفكّر، راقصها باليدين، والخصر، حملها وأعادها، اندمجت لينا وكادت أن تطير من الفرح والطرب، احمرّ وجه سعاد، واحتار فؤاد، إنّها المرّة الأولى التي يرى فيها بنتًا من بناته ترقص، وهذا الشابّ شديد الحيويّة، أربكهم، شعرت فداء بارتباك أهلها، لكنّها ابتسمت في داخلها، وفكّرت أنّ البيت يحتاج تمامًا لهذا الصهر.

يأتي الخطيب كلّ خميس مع خطيبته، يقضي الخميس

والجمعة ويسافر يوم السبت صباحًا معها إلى عملهما في المشفى. كانت البنات والأمّ ينتظرن قدوم الصهر باشتياق، تؤجّل الطبخة الدسمة والحلويات ليوم الخميس والجمعة، يهيّأ البيت ليكون جاهزًا لاستقبال الصهر، أصاب الأمّ والبنات حماس هائل له ولمشاريعه، كلّ ما يقوم به ويقترحه قابل للتنفيذ وإن كان جديدًا جدًّا عليهنّ. يستخدم ألفاظًا مبتذلة في حديثه، فتخجل البنات والأمّ، ويقطّب الأب قليلاً، يبتسم محمّد ويلتذّ باختراق حياء الأسرة الشديدة المحافظة، يقهقه، فيبتسمون.

تدبّر الأب شقّة في حلب، لتسكن فيها ابنته وزوجها. كان الأخ الكبير يرسل ما يستطيع من المال لأبيه لكي يريح أسرته.

لاحظ فؤاد أنّ ابنته فداء تنسحب، كلّما زاد اقتحام محمّد للعيلة، ولاحظ أنّ البنات والأمّ يقبلن ليسلّمن على محمّد بكلّ شوق، لاحظ أنّ البنت تبدو غير مكترثة لزواجها، كانت مشغولة بانشغال أهلها ومشغولة بتفاصيل الجهاز والبيت وأخواتها دون أن تكترث كثيرًا بأنّها ستكون زوجة لهذا الشخص، والذي يبدو بحيويّته لا يتناسب مع رزانتها وجدّيّتها.

في إحدى الليالي شاهد فؤاد ابنته مع خطيبها في الشرفة، صامتة مطرقة بينما محمّد يوبّخها بوجه غاضب. صعق فؤاد لاستكانة ابنته، لم يعتد هذا منها، كانت على الدوام تناقش وتضع عينها بعين محدّثها. خطرت برأسه توقّعات كثيرة ومتناقضة، لم ينم قلقًا، وفي الصباح وقبل سفرهما، طلب منها أن تأتي في المرّة القادمة قبل خطيبها بيوم، استغربت فداء طلب أبيها، منذ عدّة

أسابيع يأتيان معًا ويسافران معًا، ولم يستطع أن ينفرد بابنته ليسألها إن كانت مرتاحة ومطمئنّة. كأنّ شرخًا ما وقع بينهما منذ أحداث حماة، وزاده انتحار غادة. قتل ابنته لنفسها يداهمه، كلّ يوم خطيئة في رقبته، وبعد هذه السنين ونقّ سعاد أنّ البنات أصبحن عوانس، يخشى الآن أن يتدخّل بمستقبلهنّ ويخشى أكثر أن يترك لهنّ الخيار في مجتمع يراه جاحدًا وظالمًا للبنت.

وصلت فداء بناء على طلب أبيها مبكرة يومًا عن خطيبها، ظلّت طوال طريق السفر تركّز تفكيرها بما يمكن أن يحدّثها أبوها عنه، كانت هناك عشرات الأشياء التي تدور في واقع حياتها الجديدة، خطبة وزواج، تفاصيل الجهاز والفرش والإجازة من عملها، أهل خطيبها، وأمور كثيرة أحدثتها الخطبة السريعة والانقلاب الغريب. كانت دائمًا تشعر بأنّ كلّ المهن لمحمّد مناسبة، إلّا أن يكون طبيبًا. حدث بينهما العديد من الخلافات، ولكنّه يحسم الأمور دائمًا بثوان، ويجعلها بدون تركيز تلحق به، لا يرغب بالنقاش، أو التحليل، الأمور التي اعتادتها في البيت مع أبيها وإخوتها.

قبّلها أبوها من جبينها كعادته، وجلست بجانبه، تشدّ تنّورة ضيّقة، نظر أبوها مبتسمًا، برّرت الأمّ التي تعرف أنّ هذا ليس مستحبًّا عند الأب: البنت عروس..

ـ مرتاحة؟

سألها بحنان.

ـ أحدث محمّد مرحًا وجوًّا خاصًّا كان بيتنا يفتقده، أليس كذلك؟

في الواقع لم يفتقده البيت، فكّر فؤاد، إنّما لم يعشه البيت على الإطلاق. لم يكن للأب شعور سيّئ تجاه صهره، لكنّه قلق أمام هذا الانقلاب الذي أحدثه الشابّ في البيت، تخفّف عنه سعاد بقولها، طبيب وضحوكي، فلماذا تعكّرون فرحنا! لم تعد سعاد تكترث لزيارة أحد أو استقبال أحد، يبدأ الأسبوع بمجيء محمّد، وبقيّة أيّام الأسبوع انتظار لعودته. لم يستطع فؤاد ولا ابنته صاحبة العلاقة تحديد سبب الحيرة التي يعيشانها، كانا يتقاسمان إحساسًا واحدًا.

سألها بتأنّ: رأيته يتحدّث معك غاضبًا. حاولت أن تتذكّر، لكنّها لم تتذكّر، ممّا فاجأ أباها، معنى هذا أنّ البنت تتعرّض يوميًّا لهذه المواقف! هجس فؤاد، تدخّلت الأمّ مقاطعة: بينها وبين خطيبها، ليست صغيرة، بالطبع يحدث خلافات، وهما يتدبّرانها. أومأت فداء موافقة، كانت قد وضعت نصب عينيها أن تتزوّج سريعًا وتتدبّر أخواتها بعدها، سمر وبشرى ولينا.

لم يتكلّف العريس إلّا ثمن خاتمي الزواج، والبقيّة تدبّرتها فداء بمساعدة أبيها، نصحت الأمّ: يجب أن نطلب من العريس وأهله مهرًا، حتى لا يسترخصوا البنت. اعترض فؤاد: لا أفعل هذا أبدًا، لا أفعله كي لا يسترخصوا البنت، ثم قال بحرقة: بناتي لا يقدّرن بالمال والحليّ والمهور، بناتي بجدّيّتهنّ واستقامتهنّ.. لوت سعاد شفتيها، ومضت تعدّ طبختها.

نال محمّد أحسن ما يمكن أن يناله عريس، استطاع أن يكرّس كلّ هذا لمصلحته. كانت فداء تستعرض أمام زملائها في المشفى اهتمام أهلها بخطيبها، علّها تشجّع طبيبين آخرين أن يتقدّما لأخواتها.

سافر العريس مع عروسه إلى ميريديان اللاذقيّة، أمضيا أسبوعًا ورجعا، ووجدت فداء أخواتها في انتظارها، مشتاقات لرؤيتها وسماع أخبارها، عانقنها واندمجن بحديث طويل عمّا تردّد بين الناس عن زواجها، وثرثرات كثيرة بعثت على طمأنينة فؤاد، أصبحت ابنته زوجة ولديها بيتها، ولا تبدو أنّها مهمومة، وربّما تصبح أمًّا بعد شهور. داعبته الفكرة وأحبّها، وراح يحلم بها، سيكون أولادها الأقرب إلى قلبه.

بعد أيّام قليلة من عودة فداء، ذهب أبوها إلى بيتها في حلب، وناولها هديّة زواجها، مبلغًا يكفي كي تحضر أدوات الكهرباء التي تحتاجها، وحملت أمّها لها عقدًا من الذهب الثقيل، اشترته من مال وفّرته، كان أيمن كلّ فترة يخصّها به وحدها، لم تستسغ فداء العقد لكنّها فكّرت أنّه مؤونة لأيّام الشدّة، يمكن أن يُباع بسعر جيّد. أحضرت أخواتها لها هدايا البنات، حقيبة ومكياج وحذاء ولوحات وأشياء تزيّن بها بيتها. وجلسن يتفرّجن على صور العرس وأسبوع العسل.

كانت هدايا أهل زوجها وأقاربه الكثر، ممّا هبّ ودبّ، دزّينات من الأشياء. يحبّون الدزّينات، تعلّق لينا ضاحكة، اثنا عشر فنجان قهوة، اثنتا عشرة كأسًا من الشاي، ملاعق وصحون،

سجّادات صلاة. . أمّا من كان جيبه عامرًا بالمال فقد أحضر أواني كبيرة ومزخرفة مع عدد هائل من الورد الاصطناعي، ثريّا كبيرة بلمبات كثيرة وملوّنة، كانت مريعة لدرجة استحالة تعليقها في سقف الغرفة، وضعت في سقيفة البيت مغلّفة، وظلّت كالتهمة تضايق فداء وزوجها على السواء. ورد وأشقف زريعة، سكاكر وشوكولا. كان بيتها زاخرًا باحتفالات الزواج. تراقب فداء الأمر وكأنّه لا يعنيها، حتى صور الزواج، لم تعنها بشيء. لمحت بشرى صورة لأختها بين الصور حاولت فداء إخفاءها. ويبدو أنّ محمّد التقطها لها متفاخرًا، تنفخ فداء على صدرها الذي يبدو أنّ العريس جرحه ليلة زواجه. نظرت بشرى في وجه أختها، لمحت إرهاقًا، كان من المخجل التحدّث بأمور الجنس بين البنات، وبين البنات وأمّهنّ. فالأمّ أيضًا تخجل من هذا، ولم يسأل أحد كيف كانت ليلتها الأولى، وكيف اكتشفت الجنس.

لم تمض أيّام عديدة على أوّل خلاف وقع على مرأى البنات بين فداء وزوجها، لم يكن خلافًا بين اثنين، كان يبدو توبيخًا شديدًا من زوج لزوجته، وبدا كأنّه يؤنّب بنتًا صغيرة، أقلّ شأنًا. فوجئن، ورجعن إلى البيت، بكت لينا، قالت لا أصدّق أنّ أختي الكبيرة التي لم يكن هناك من يراجعها بكلامها، أختنا سيّدة البيت، على الجميع حتى على أبيها، تُعامل هكذا من زوجها؟ وأضافت: لقد تحدّث إليها كأيّ متخلّف ينهر زوجته. إنّه يأمرها أمرًا بكلّ شيء، كأنّها خادمة لديه.

خشيت فداء على أخواتها من أن يكتشفن حقيقة علاقتها مع

زوجها، كانت تفكّر أنّهنّ قليلات تجربة ولا يعرفن أنّ الزواج شيء آخر وأنّ الزوج ليس أبًا يدلّلنا. ولم يعرف أحد من أين جاءت فداء بهذه الحكمة. بعد أيّام قليلة عرفت أنها حامل.

وكانت في شهرها الثاني حين ضربها محمّد بعنف ونزلت إلى حماة ببطن ناتئ وبعين زرقاء.

أن ترجع ابنته غاليته مهانة هكذا؟ وفوق المهانة حمل وجنين، كان إحساس الأب بقلّة الحيلة إحساسه ذاته حين سردت عليه فداء تلك الليلة التي رجعت فيها عناصر الأمن بعد أن اقتادت مخلص، بحجّة تفتيش البيت.

نظر في وجه ابنته الأزرق، ثم في بطنها، أغمض عينيه ومضى صامتًا، دخلت فداء غرفتها وأغلقت الباب. لم تشعر بالشفقة على أبيها، ولم ترغب أن تخفي عارها هذه المرّة. كانت تفكّر إذا كان كلّ الناس يبتلعون عارهم يوميًا، أنا لا أستطيع.

انصرفت الأمّ مهمومة تمامًا على مصير بقيّة البنات، ودخل الأب إلى غرفته. في الثانية ليلاً، أمسك صدره، وكانت الجلطة الثانية، ونقل إلى العناية المشدّدة في المشفى.

راحت فداء تمسّد يديه وتردّد: آسفة، آسفة كثيرًا. تردّد عبارات الاعتذار وهي لا تعرف عمّا تعتذر، كانت التنّورة التي ارتدتها على عجل تحزّ على بطنها فتنبّهها إلى ذاك الجنين وإلى رجل لم يربطها به أيّ حبّ، غاضبة من نفسها وعلى نفسها، حزينة على أبيها، ناقمة على العادات والمجتمع، خائفة على مصير أخواتها، كارهة هذا الرجل الذي تجرّأ عليها وأهانها..

قضى فؤاد أسبوعًا في غرفة العناية المشدّدة، محاطًا باهتمام خاصّ، من معارفه وما تبقّى من أقاربه، هواتف أولاده من السعوديّة، وجيرانه، وسعاد رفيقة عمره، ابنه ربيع بمرحه ومزاحه، بناته. . وهكذا ومع عناية الأطبّاء والممرّضات، تحسّنت حالته. عرف أنّه الآن أضعف، وأنّ الجلطة الثالثة قادمة يومًا، وأنّه لم يعد يقوى حتى على الخروج كثيرًا، لكنّه تعلّم أن يحمد ربّه ويصابر.

لم يصمد الجنين في بطن أمّه، أسقطت فداء حملها ببساطة شديدة، كأنّه كان دورة شهريّة مستعصية، لا غير. ورغم حزنها الشديد على جنينها وعلى نفسها، لم تفرد للأمر وقتًا طويلاً في بيت الأهل في حماة، أخذت إجازة من عملها في المشفى وجلست لا تفعل شيئًا، ترمق أمّها التي كانت مستسلمة وصامتة أمام مرض زوجها من جهة، وبؤس بناتها من جهة ثانية.

اعتنت فداء بصحّة أبيها كأنّها لم تحمل ولم تفقد الجنين، واعتذرت عن استقبال أهل زوجها الذين حاولوا مصالحتها مع زوجها.



بعد عدّة أسابيع صار بإمكان الأب الخروج من غرفته، والجلوس مع أولاده، وسنحت الفرصة لكي يجلس مع ابنته كما كان يفعل سابقًا.

في عصر يوم، تركتهما الأمّ لزيارة أقاربها. أعدّ فؤاد لنفسه كأسًا من الزهورات، وحملها بيد، وفي اليد الأخرى أحضر لابنته برتقالة. كانت متّكئة على مسند كبير ترتدي قميصًا قطنيًّا وتبدو كطفلة مدلّلة، قال وهو ينظر باشًّا: هل تقشّرينها بنفسك؟

أخذتها من يده، حاولت أن تصرف الحديث إلى صحّة أبيها والجلطة التي أصابته، تشرحها له بشكل مبسّط، وتنصح بأهمّيّة مسيّلات الدم.. قاطعها أبوها:

ـ ما الذي حدث بينك وبين محمّد حتى آذاك هذا الأذى..

أجابت متسرّعة كمن يريد أن يرمي عن كاهله حملاً:

ـ هذه ليست المرّة الأولى، ولكنّها كانت الأعنف.

ـ وكيف تسمحين له بهذا؟ هل أخطأت في تربيتكنّ؟

أشفقت عليه.

ـ لم أتأقلم معه ولم يتأقلم معي.

قالت ثم صمتت مفكّرة، عرفت بهذا منذ أيّام الخطبة الأولى، ولكنّها لم تفسخ الخطبة لأنّ وراءها ثلاث أخوات. ثم إنّ حادثة غادة لن تجعل عريسًا حمويًّا يتقدّم لهنّ، فكّرت كارهة، يجب أن تكون كبش الفداء، وتتحمّل، وظنّت أنّ الزواج سلسلة من الخلافات..

ـ هل رأيتني مرّة أضرب أمّك؟

تذكّرت بأنّه فعل هذا مع مخلص، يوم رجع محمولاً على الأكتاف، قالت:

ـ اكتشفت يا بابا بأنّك باهتمامك المثالي بنا لم تسد لنا خدمة، وأنا قلقة على أخواتي، لأنّهنّ سيطلبن من العريس عناية مثل عنايتك.

ولأوّل مرّة تحدّثت فداء عن زوجها بكلّ تاريخه بدون تغطية أو تزيين.

أُرسل محمّد ولدًا إلى بيت عمّه، كان عمره سنتين، ولدت أمّه أخاه الأصغر وانصرفت إلى مولودها الجديد وأولادها الآخرين بعد ذلك، وتُرك محمّد عند عمّه وزوجة عمّه اللذين لا ينجبان أولادًا. ثم وبعد أن مات عمّه، رجع إلى بيت أبيه، لكنّه رجع غريبًا، لقمته ثقيلة على أبيه، اشتغل وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره،

انتسب للشبيبة في المدرسة الإعداديّة وبرز كناشط، استطاع الحصول على بعثة صيفيّة إلى أوروبا الشرقيّة وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. اجتهد أيضًا بكلّ الموادّ. لكنّه ومع اجتهاده ودراسته الطبّ، وبروزه في ضيعته وتصفيق العديدين له، فإنّ في داخله كتلة إسمنيّة ظهرت ببخله الشديد، فهو يكره بشدّة أن يدفع قرشًا، أدرك العديد من المحيطين به هذا وتجنّبوا استثارته، اعتاد الأخذ من الجميع حتى لو كان العاطي أخاه الذي لا يتجاوز العاشرة من عمره. حين التقى فداء في المشفى، فداء التي اعتادت أن تُعطي الأطفال المرضى هديّة بعد الفحص، واعتادت أن تدعو زملاءها إلى كافيتريا المشفى، تمدّ يدها إلى حقيبتها وتسحب الخمسمئة ليرة تناول المحاسب وتلتفت لتكمل سيرة أو تصغي لحديث من دون أن تكترث أو تتابع رجعة بقيّة فلوسها، أحبّ كرمها وأعجبه تعفّفها، عرف بموهبته أنّها كنز له. كان ما يقلقه بأمر الزواج هو أنّه سيتحمّل مسؤوليّة بيت، وهو لا يطيق حتى دفع كلفة طعامه، ما زال إخوته يقومون بهذا، طعامه وثيابه، هدايا تأتيه من إخوته وأقاربه الفخورين به طبيبًا برز بضيعتهم وإن لم يقبل أن يعالج أحدًا مجّانًا، لكنّهم ببساطة الفلّاحين قبلوا هذا. كان ابن ضيعته يأتي إلى عيادته مع هديّته، يدفع كلفة المعاينة مثل كلّ المرضى المنتظرين ويجلس ينتظر، وحين يأتي دوره يدخل إلى طبيبه، يقدّم هديّته، ما تيسّر له من بيته، جبنة، زيت، فاكهة.. يشتكي للطبيب وجعه، فيفحصه محمّد بمرح متعال، ثم يوصيه أنّ عليهم أن يغيّروا عاداتهم بالطعام والشراب، يترك المسكين هديّته ممتنًّا أنّ الطبيب تواضع وقبلها.

اكتشفت فداء هذه الخصلة منذ اللقاء الأوّل، وسمعت بها من زملائها في المشفى، لكنّها لم تدرك معنى الزواج من رجل بخيل، ظنّت أنّها لن تحتاجه بشيء، فهي لديها دخلها.. ولكن وبعد أن اشترى أبوها البيت واشترت كلّ الفرش بالتقسيط على اسمها، وصارت مسؤوليّتها شراء الطعام وتسديد كلّ ما يلزم للبيت، صُدِمت، استمرّت بدورها الذي قبلت بممارسته ولكنّها صارت كثيرة الانفعال، ضاق وضعها المادّي، خلاف صغير بينها وبينه يجعلها تتذكّر حجم الظلم الذي أوقعت نفسها فيه. في ذلك اليوم الذي وقع فيه الخلاف الأعنف، رأت ممرّضة تسوّي مريولها خارجة من زاوية المدخّنين في المشفى، وحين التقت بفداء قادمة، هرولت باضطراب، أكملت فداء لتجد محمّد واقفًا بمفرده يدخّن وقد بدا كما لو أنّه بوغت بزوجته، فنهرها: ماذا تفعلين هنا؟ لم تجب، ذهبت إلى البيت كارهة، وحين أتى محمّد، انفجرت في وجهه: ألا تخجل؟ ألا تحسب حسابًا لصورتنا في المشفى. نهرها سائلاً عمّا تلمّح له، فقالت إنّها تشكّ أنّه كان وتلك الممرّضة في وضع.. وقبل أن تكمل حديثها، قال لها ببرود: أنت تغارين حتى من تلك الممرّضة لأنّك لا تمتلكين مقوّمات المرأة، الأنوثة، الطاعة، اللطف.. تذكّرت فداء أنّ حبّها الصامت والمديد لزميلها في الكلّيّة لم يلفت انتباه الزميل وأنّها قد تبدو هي حقًّا بذلك المظهر غير الجذّاب وغير الأنثوي وأنّه ربّما تلك الممرّضة وإن كانت بشرة وجهها مليئة بالكلف ويداها خشنتين، قد تكون أكثر جاذبيّة منها. صاحت من ألمها تعيّره ببخله وأنّها مسؤولة عن كلّ شيء في البيت وأنّه وأنّه..

انتظرها تكمل ثورة غضبها ثم انهال بصفعة هائلة على وجهها، ثم ثانية على رأسها ثم على عينها. حملت حقيبة يدها وركضت، تقيّأت على درج البيت. ركبت سيّارة أجرة إلى كراج البولمان وأخذت أوّل رحلة إلى حماة، كانت منهكة من التعب والدوار، تفكّر قلقة بالجنين، وتلهث من حرقة وتلبّد بجانب وجهها، تناولت مرآة من حقيبتها، وعرفت أنّ هذا الخطّ الأحمر سيتحوّل إلى كدمة زرقاء بعد قليل. فكّرت بأبيها وأخواتها، بأمّها وأهل الحارة، وانهمرت دموعها، لأنّها أحسّت لأوّل مرّة أنّها لم تعد تقوى على حبّهم أكثر.

كانت صدمة الأب بعد الحكاية أكبر من صدمة ابنته، بصهره، وزوج ابنته الكبرى المفضّلة والمدلّلة!

صمت تمامًا، لم يستطع أن يلوم ابنته على خيارها، فهي لم تختره، طلبت من أبيها أن يسأل عنه، وفعل وسأل عن أهله.. ولكن من يدري بطبيعة البخل الشديد؟ فكّر وسألها، هل كنت تعرفين بأنّه كان سابقًا من جماعة حزب البعث؟ قالت، نعم، ولكنّ هناك بعض البعثيّين في جامعتنا ممّن كانوا طيّبين، أجابت وأدارت وجهها.

مضى إلى غرفته، تتناهبه مشاعر مختلفة، غضب من هذا الرجل الذي تجرّأ على ابنته، غضب من ابنته، غضب من نفسه بأنّ بناته لم يختلطن بالمجتمع كما يجب وبقين قليلات تجربة: أتراني أخطأت في تربية بناتي؟ كلمة سعاد التي تردّدها، لا يشغل البنات أمر إلّا الدراسة.

أمام حزن الأب، وانزوائه، وأمام رأي الأمّ، بأنّ النسوان جميعهنّ يتعرّضن للقمع والقهر، خصوصًا في أوّل الزواج، وتضيف، تبثّ الاطمئنان، ثم يتفاهمن مع الزوج. . وأمام نظرات الأخوات الراجيات بألّا ترجع أوّل أخت مطلّقة، قرّرت فداء أن تحزم حقائبها وترجع إلى بيت زوجها.

وتغيّرت البنت الكبرى كثيرًا، وتغيّرها بدأ منذ الثمانينيّات وازداد إلى أن أصبح انقلابًا بعد الزواج، كلّ تصرّفاتها نابعة من الواقع المرّ، القبول وتمرير الحال كيفما كان، صار القبول فلسفتها بعد تلك الصدمات المتوالية. استسلمت وقبلت العيش. البنت الكبرى كبش الفداء، وتلك التضحية نفعت، ففي العام ذاته تقدّم لخطبة سمر شابّ مهندس، كانت أخته رفيقة لها في المدرسة، وتعمل مثلها موظّفة في بنك آخر. عريس سمر هو العريس النموذجي في عيون أهل الحارة، معروف الجدّ والجدّة.

وبعد أسابيع قليلة، أرسلت قريبة سعاد تقول إنّ ابنها رجع من سِنِي مهجره مهندسًا ويريد أن يزورهم، فهمت سعاد القصد، أخبرت زوجها فرحة، لكنّ فؤاد الذي بدأ يسترجع قليلاً من عافيته بعد خطبة سمر، قال: أريد لبشرى عريسًا معتدلاً مثل عريس سمر، هذا الرجل قضى في أوروبا الشرقيّة سنوات طويلة لا نعرف كيف عاش فيها. .

أخبرت سعاد قريبتها رفض الأب. لكنّ العريس الطموح لم يستسلم، سافر إلى حلب، ووقف معترضًا بشرى عند باب المشفى الذي تعمل فيه، قال مبتسمًا: أنا قريبكم الذي رفضني أبوك.

رجعت بشرى يومها طائرة من الفرحة، كانت قصّتها كقصص الأفلام، أقلّ تراجيديّةً، صنعت حكاية حبّ في خيالها في يوم وليلة، وسرعان ما سافرت إلى حماة وأخبرت أباها بأنّها تريده وخُطبت له سريعًا، وانصرفت كلّيًّا لتجميل نفسها، شراء الثياب الداخليّة عشقها وهوايتها، تهذيب أظافر القدمين، نزع الشعر الزائد.. وحين كانت أختها تسألها عن عملها كطبيبة، تضحك وتقول: ليس وقته الآن. رغم شهادة أقاربها بأنّها ماهرة في تشخيص المرض، إلّا أنّها حريصة على الاعتدال إلّا في تجميل نفسها.

نالت لينا، وبعد أن تزوّجت كلّ أخواتها، ولم يبق إلّاها وربيع آخر العنقود، نالت الدلال والرفاه وكأنّها وحيدة أمّها وأبيها.

قلّ اهتمام سعاد بالدين والحجاب، صارت تصغي لطلبات لينا، ابنتها الحلوة، ترجو منها أن تضع الإيشارب الفاتح اللون بدل المنديل الأسود وأن ترتدي المانطو القصير، ويكفي أن يغطّي الركبتين، وأن تحمل الجزدان المناسب للحذاء. وكانت الأمّ تستجيب لها وتتذكّر شبابها مرتاحة، وتمضيان مترافقتين في زيارات كثيرة. لم تكن لينا تكترث لجامعتها في الأدب الفرنسي، كانت تدرس في البيت وتذهب فقط في مواعيد الامتحان، ودائمًا تلحق نفسها في دورات الرئيس[1]، آخر فرصة كي لا تطرد من الجامعة، ترتدي أحلى ثيابها وتأخذ السيّارة من أخيها وتقودها من حماة حتى باب الجامعة في حلب، تبتسم بتعالٍ للبوّاب فيتركها

(١) دورات الامتحان التي تعني فرصة أخيرة للطلّاب الذين يرسبون سنين عديدة.

تدخل حرم الجامعة، تصفّ السيّارة في مكان تتعمّد أن يكون جانبيًّا، محاولة أن تتصرّف باعتياد، ممّا يلفت انتباه الطلّاب أكثر ويجعلها حديث الكلّيّة، الأمر الذي يسعدها وتنقله لأمّها فقط، وليس لأبيها، أبوها لا يروق له هذا الفخر. أسعده أن تقدّم الكثيرون لخطبتها، ولم يكترث لأنّها رفضت الكثيرين، نعمت بإعجاب أبيها وأمّها وبقيّة إخوتها، إلى أن تقدّم شابّ انطبقت عليه معظم أحلام البنت، فقبلت به واشترطت حفلاً كبيرًا في فندق أفاميا الشام، وكان لها ما أرادت، مثّلت فيه دور العروس كما في الحكايات، وكما حلمت به كلّ عمرها، طيّرت الحمامة البيضاء وتمايلت بكتفيها وخصرها وسط الزينة البيضاء التي تنهال فوقها وفوق عريسها، فرحت فأفرحت الجميع معها. لم يكن يعنيها كثيرًا تفكير الشابّ وقناعاته، حبّه لها أو إعجابه بها، كان يشغلها أمر واحد وهو كيف تعرض جمالها وسعادتها ونجاحها، وتجعل الآخرين يؤمنون بهذا الثالوث المقدّس لديها. دمع أبوها حين رأى آخر بنت تخرج من البيت. ورغم مظاهر الفرح ورغم رضاه، إلّا أنّ صورة ابنته التي نامت ولم تستيقظ تملأ جدران البيت وزواياه.

حضر حفل العرس أُناس كثيرون، وقدمت زوجتا أيمن ومخلص من السعوديّة، أتت سها مع أمّها أمّ بشير إلى الحفل، وحين نظرت لينا في مدعوّيها، أحسّت بالانتصار الذي بحثت أخواتها عنه طويلاً، الفوز على شقرة الشّعر. أمّا أمّ غالب فقد كانت مستسلمة تمامًا ومرتبكة، هنّأت سعاد ودعت الله أن يرجع الغائبين بينما دموعها تنهال لأيّ سبب. لم يفهم أحد سبب بكائها

هكذا كلّ الوقت. كانت أمّ غالب آخر من غادر حفلة العرس، هنّأت صديقتها أمّ أيمن وعانقتها بحرارة، وقالت لها باكية أيضًا: سيطعمني ربّي أن ألتقي بابني غالب مرّة ثانية، مسحت عينيها ووضعت منديلها في حقيبتها، بدّلت حذاء السهرة بحذاء الطريق وخرجت، أرملة ضئيلة ومستسلمة.



تدبّر محمّد سفرًا إلى ستوكهولم ولحقت به فداء بعد أن اكتشفت أنّها حامل مرّة ثانية.

وبسرعة البرق فهم محمّد خريطة البلد، وسياسة البلد الداخليّة والخارجيّة، وتاريخ البلد واقتصاده وأهمّ مقوّمات تطوّره، عادات الناس وطريقة معيشتهم. . صارت نصف ممرّضات المشفى الذي يتدرّب فيه من صديقاته. وأضاف إلى عناده، عناده في تطوير لغته، قال له السوريّون الذين التقاهم، باستكانة أغضبته: لا تقلق عفّس باللغة على كيفك. سيفهمك الأوروبي ويقدّر صعوبة اللغة. أجاب برزانة:

- تقصدون أنّ الأوروبي سيتعاطف معنا؟ لكنّ هذا الأوروبي لا يقبل لنفسه بأقلّ من لغتين أو ثلاث مهما بلغت ضحالة ثقافته.

زادهم جوابه إعجابًا وتقديرًا وتقرّبًا. فهو بإمكانيّاته وذهنه وطموحه سيغزو أوروبا ويثأر لمكانتهم المتأخّرة، بل سيعدّل من صورتهم ويجمّل منها. واقع حالهم أنّ معظم المهاجرين لم يثبتوا

لأنفسهم مكانة تُذكر، ما رآه محمّد حوله أنّه ليس لأحدهم صوت يُسمع أو رأي يُذكر، كان همّهم جمع المال، وبأيّ وسيلة، يبدأ باستغلال قوانين الضمان الاجتماعي وينتهي بالأعمال السهلة التي لا تتطلّب لغة ولا اجتهادًا، كافيتريات، مطاعم، أعمال في مساعدة الكبار، أكشاك بيع سجائر وسندويتش، سائقون. أمّا النساء فكانت ملاحظته أنّهنّ، ورغم طموحهنّ، لم يتجاوزن أعمال مساعدات ممرّضات ومساعدات في الروضات أو أعمال الحلاقة والزينة، وإن كانت إحداهنّ طموحة جدًّا فإنّها وبعد سنوات ستحاول أن تخترق أعمال الترجمة الفوريّة، ولأنّ أكثر المترجمين قليلو خبرة فإنّهنّ استطعن الوصول إلى هذا بإجراء دورة لشهور قليلة.

لاحظ أنّ قليلين جدًّا أكملوا الدراسة، ونالوا أعمالاً هامّة، تمكّنهم من إبداء الرأي والمشاركة في سياسة البلد، وهؤلاء اندمجوا بالبلد الجديد ولم يعد يعنيهم بلدهم الأصلي بشيء. لمحمّد طموح آخر، بُهِر بالحرّيّة وبتلك المجالات الكثيرة التي يمكن للمرء أن يثبت وجوده عبرها، الأمر يحتاج اجتهادًا وموهبة اجتماعيّة، الأمر الأوّل يتدبّره والثاني ملك فيه. كان من أسهل الطرق للاجتياح هو التجمّعات والنقابات التي تعتني وتتابع حقوق الإنسان وانتهاكاتها في العالم. وقرّر خطواته الأولى عبرها.

لم يكن يدع اتّصالاً هاتفيًّا مع صديق يمرّ من دون فائدة، معلومة، خبر، يخربشها على ورقة جانبيّة، ليستثمرها في حينها، ترقب فداء هذا وتعجب بقدرته على تسيير الأمور وتيسيرها لصالحه ولكنّها في الوقت نفسه تصفه صامتة بأنّه شخص انتهازي، تشعر

بالضيق والغبن، لأنّه ورغم كلّ ما حاز عليه من نجاح لم يمنحه القدرة على تقاسم الفرح معها. حاولت فهمه في أوقات أو تبرير تخلّيه عن مشاركتها ليكونا عائلة كما عاشت، لكنّه كان بعيدًا جدًّا عن طموحها، حين تفكّر بطفولته وتاريخه الذي حدّثها عنه، تجد له المبرّرات..

ذات يوم أمسك أبوه أغلظ عصا وانهال عليه، فوق ظهره، فوق صدره، على أطرافه على وجهه، يضربه ويلهث. احمرّ وجه أبيه وكفّاه، وما زال محمّد يصرّ على أسنانه كي لا يبكي، يريد أن يثبت لأمّه أنّه رجل. وينتزع رضاها وإعجابها وحبّها. عمل في سقاية الليل لأنّها تجلب مالاً أكثر وصيتًا أكبر، هذا ما فُطر للسعي وراءه. كانوا يشيرون نحوه في الضيعة وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة: ها هو المثقّف والفلّاح الشجاع، استطاع كسب الناس، وبدون أن يبذل جهدًا، وجدهم يتقرّبون إليه. تقول أمّه إنّها هي من دعت ربّها أن يحبّب الناس فيه.

في لحظة ما من سنة ما، رمى نفسه في البحر، يقول، كان أبوه ضربه، نظر يومها في وجه أبيه وقال: جبان. كانت أمّه أخبرته أنّها تعرّضت في شبابها للتحرّش من الإقطاعي الذي كانت تعمل في أرضه وأنّها أبلغت زوجها، أباه، لكنّه لم يحمها، كره محمّد يومها أباه. ولم ينس حكاية أمّه. جرّب محمّد أن ينتقم لها من ذكرى ذلك الإقطاعي فاستدرج صبيّة من العائلة نفسها وجعلها تخلع ثيابها، ثم أمرها أن ترتديها من جديد وتعود إلى بيتها.

تحدّث عن سهولة مهمّته في دفعها إلى خلع ثيابها، عن جمال

ساقيها وخصرها المشدود وصدرها الصامد كصدر الدمية، ثم كيف أمرها أن ترتدي ثيابها مرّة ثانية، بعد أن أخبرها وهي شبه عارية، بماضي جدّها، وبأنّها بجمالها وحسبها ونسبها لا تعنيه بشيء، لكن كان عليه أن ينتقم لأمّه الفقيرة الضعيفة. لم تفهم الصبيّة المدلّلة لماذا يفعل هذا، وما الذي حدث، جاءت إليه منبهرة بثقافته وابتسامته الغامضة التي لا تشبه أبدًا ابتسامة شباب الحيّ الذي تسكن. ركضت إلى بيت أبيها. وقتها أخبر محمّد أمّه فقط، قائلاً:

- انتقمت لك يا أمّي.

ابتسمت الأمّ راضية ومع ذلك ردّدت ظاهريًّا مثل ابن بطنها:

- حرام البنت.

- لا تخبري أحدًا بالقصّة.

لكنّها أخبرت جارتها وجارتها أخبرت جارتها.. ممّا تسبّب بفضيحة للبنت، مع أنّ كثيرًا من الناس لم يصدّقوا، لكنّ البنت آثرت أن تتزوّج زواجًا سريعًا بقريب لها وسافرت.

أخبر القصّة إلى أصدقائه في سهرة مفاخرًا، صمتوا. أثقل في الشرب وأحسّ بنظرات فداء المعاتبة توقظه. فداء التي لم تتدرّب على هذه الأدبيّات، لا تفهم أنّه لا وقت عند زوجها لأشعار نزار قبّاني وأغاني نجاة الصغيرة. ما تفتأ تحاول أن تلتصق به وترغب بإنجاح زواجها، عبثًا، وتتجنّب الشكوى حين تتحدّث مع أسرتها، كي لا تتسبّب بألم لأحدهم.

كان محمّد يخطّط ويفكّر ويقرأ في كتاب تعلّم اللغة، فيما فداء

تقاوم الغثيان والقلق من الغد ومن مستقبل علاقتهما، ابنها وما ينتظره، أبوها الذي تركته ضعيفًا ومريضًا ومعرّضًا في كلّ لحظة لجلطة جديدة. كانا منطلقين بقطار الأنفاق إلى حفلة ضمّت ناشطين سياسيّين أوروبيّين وسوريّين.

أتى الكثيرون يرحّبون بمحمّد وبزوجته، كانت فداء تشعر أنّهم يرحّبون بها من أجله، غير راضية عن نفسها ولا عن واقعها، بحثت بين المدعوّين، فعثرت على أسرة بملامح قريبة من أهل حارتها، وقفت بجانبهم وراحت تُجيب على أسئلة المرأة في الطبّ، كانت الأسرة من حلب، ولها ميول إسلاميّة، ممّا داعب ذاكرتها، أحسّت وكأنّها مع إحدى جارات أمّها، لم تهتمّ سابقًا بتصنيف الناس، لأنّها كانت مقتنعة بأمر واحد بأنّ كلّ من عاش على أرض سوريّة تعرّض للمهانة، وليس مهمًّا بعد ذلك، إن كان إسلاميًّا أم شيوعيًّا، أم شيئًا ثالثًا، لكنّ العادات التي نشأت عليها بأمان وسعادة بين أحضان أبيها وأمّها تداعب أعماقها وتريحها، أرادت التواصل معهم، أعطت الرجل بريدها الإلكتروني، وتحدّثت بحرّيّة عن آلام حماة وأنّه بعد أيّام يأتي شباط ويذكّرها بكلّ ما مرّوا به وما مرّ به أهل المدينة.

أمّا محمّد فإنّه بنظرة سريعة وشاملة وجد هدفه! امرأة مختلفة، أثارته بشفتيها الكبيرتين اللتين امتدّتا حتى كادتا أن تصلا إلى الأذنين، حين تحكي، تتحرّك عضلات الوجه وفقًا لما تفعله حركات الشفتين. أُعجب بها، هذا عدا أنّها مرشّحة لتشغل منصبًا هامًّا في إحدى الملاحق الثقافيّة العربيّة. اقترب منها مصدرًا

ابتسامة خاصّة. قال: أنا محمّد.. قبل أن يكمل كنيته. ندهت: آه.. ثم بعربيّة مجعلكة أكملت: سمعت عنك هنا في ستوكهولم... تمنّيت أن ألقاك. انتشى وابتسم، ثم التفت بضيق باتّجاه فداء. فأشاحت فداء بوجهها، وتناءت. اقترب من سيلڤانا، هل يمكن أن آخذ هاتفك الخاصّ؟ لديك عربيّة جميلة، أتعرفين؟ تخرج العربيّة من فم الغربي حين ينطقها أجمل بكثير منها من فم العربي الذي تربّى عليها، هذا يعود للذهنيّة التي تتحكّم به. فالعربيّة التي تلقّيناها عبر أفكار ومبادئ لم تعد صالحة للعصر، وما زال البعض منّا يفكّر بهذه اللغة ويتحدّث بها، يعني لساننا يلهج بصوت أفكارنا، أليس كذلك؟ ردّت:

ـ لكنّي أحبّ لغة القرآن الصعبة وأتمتّع حين أتمعّن في إعراب كلمة صعبة.

أجاب سريعًا كي لا يختلف معها:

ـ للقرآن جماليّات تحتاج دراسات متأنّية لم يأخذ حقّه منها. ثم راح يسرد بعض الآيات ويشرح طريقة تجويدها ثم قراءتها.

قالت بإعجاب:

ـ يبدو أنّك متبحّر في كثير من المجالات، حتى الأمور الدينيّة.

قال:

ـ إذا أردت أن أحدّثك عن القرآن وكيف كنّا في الضيعة نذهب للشيخ كي يحفّظنا إيّاه فيمكن أن نتواعد في وقت لهذا.

قالت:

ـ طبعًا أنا أتمنّى ذلك. ثم أشارت باتّجاه فداء: هل تلك هي زوجتك؟

ـ نعم.

ـ يمكن أن تزوراني في بيتي؟

قال:

ـ أخشى أنّ فداء لا تستطيع. يمكن أن آتي بمفردي.

ـ أنتظرك.

ولم يهدر محمّد وقته في السهرة نفسها، حكى لها عن حياته السابقة مع خلطة من تخيّلاته، وحياته الحاضرة مع خلطة أخرى، تلك الخلطة التي يعرف أنّها تجذب الأوروبي.. قرأ لها من الشعر العربي الذي يحرص على حفظه. ولم تنته السهرة إلّا وكانا انعزلا في زاوية، غازلها وغازلته، وسريعًا تبادلا القبل.

* * *

تمضي الأيّام في السويد، يزيد محمّد من غروره وتقنينه في مصروف البيت وتذمّره الدائم. اتّكأت فداء على حملها وهمّها وعلى إطعام زوجها لها. كانت تحاول في أوقات أن تجعله يشاركها حلمها بالولد، هيهات، كان منغمسًا تمامًا بتثبيت وجوده في ستوكهولم، إمّا عن طريق عمله في مجال العناية الطبّيّة، أو عن طريق نشاطه السياسي الذي مارسه فجأة، وأثبت موهبة خاصّة.

تتجوّل فداء في شوارع ستوكهولم، تحلم بالولد القادم، تنوي أنّه عليها فور ولادتها التفكير جيّدًا بالبحث عن فرصة عمل ولو كان مساعدة طبيب، تعرف أنّ الأمر ليس سهلاً، ولكن ها هو محمّد ببراعته استطاع تحقيق ذلك. تشتاق لأبيها، لِمَ كان لكبار السنّ في أوروبا هذا الدلال وأبي لا.. تحسّ بالتعب والحموضة الهائلة في معدتها، فترجع إلى البيت مجبرة، لتجد محمّد يلاعب فأرته التي أهدتها له زميلته في المشفى، ممرّضة شقراء.. تغلي فداء بغيرتها، وهي تنظر إلى الفأرة البيضاء وهي تتدلّل وتهرب من أصابعه عبر القفص. تترك البيت وتخرج مرة ثانية، لتجلس على مقعد في

حديقة، وحيدة. لِمَ لم تستطع صنع صداقة حقيقيّة في ستوكهولم؟ تفكّر، محمّد بارع في هذا، السياسة التي ادّعاها هي التي ساعدته، فداء لم تكن يومًا في حزب، ربّما أبوها وصداقته لها هي التي خلقت هذه الحماية.

شهور الحمل كانت على هذا المنوال من الغثيان والدوار والجوع الشديد والغيرة الشديدة. يندفع اللعاب في حلقها، مشتهية لقمة من الخبز السميك مغمّسة كلّيًّا بالزيت والزعتر. تقطّب جبينها وتؤنّب نفسها لتلك الغريزة التي تهيمن عليها فتحاول أن تتأمّل في البيوت ووجوه الناس، ينبعث اللعاب في حلقها وتشتهي من دون سابق إنذار قطعة من البيتزا الساخنة ذات الجبنة السائحة وقطع الخضار والفطر الكثيفة، وتبكي لأنّها لا تستطيع أن تجد مشتهياتها، محمّد هو الذي يقبض الراتب وهو من يقرّر ما الذي تحتاجه لتأكل، بيضة مسلوقة، ملعقة من اللبن، خبز، حبّة من الخضار أو حبّة من الفاكهة وليس الاثنتين معًا، ويمكنها أن تأكل بعض المعلّبات الرخيصة، فهو ليس لديه إيمان بالوحام وعذاب الاشتهاء.

تعاني من الكوابيس وتخشى أن يأتي الولد مشوّهًا، كيف تطلب من زوجها مراجعة الطبيب الأخصّائي، سوف يقطّب ويجيب من رؤوس شفاهه بكلمة واحدة: ربّما، أو سنرى، أو سيسخر من شهادة الطبّ التي تحمل. فهي لم تحصل بعد على الضمان الصحّي، وعليه أن يسدّد ثمن مراجعة الطبيب الأخصّائي من جيبه. لم تعد أحوال أهلها تسمح بطلب مساعدة لتصرف على نفسها في أوروبا.

يداهمها القلق، منذ شهر ونصف لم تشعر بنبض الجنين.

فرقة موسيقيّة تعزف، وإحدى الفتيات تصعد إلى حجر أعدّته البلديّة ربّما لهذا، وترقص أمام وجه حبيبها الذي يحضن خصرها ويقبّله ثم يحملها وينزلها ويمضيان.

رجعت فداء إلى البيت، متعبة وضجرة، لم يكن محمّد هناك، سوف تستغلّ فرصة غيابه وتجلس إلى الكمبيوتر فهو لا يمكّنها من هذا حين يكون في البيت.

فتّشت في بريدها، فارغ إلّا من رسالة واحدة، عنوانها ذكرى مجازر حماة، غصّت كعادتها حين تأتي هذه الذكرى، يقول مرسلها إنّه يقترح تحويل هذه الرسالة إلى سوريا وكلّ عناوين الأصدقاء من أجل تذكير الناس بتلك المأساة، علّ هذا يدفع عند من شهدوا الأحداث بعض الشجاعة والشهامة فيخبرون العالم عنها، وينصفون حقّ قتلاهم من الأطفال والشباب والشيوخ والنساء، وينصفون بيوتهم ومدينتهم وذاكرتهم.

من دون طول تفكير، ومن دون حسابات ومن دون أيّ بطولة.. بكبسة بسيطة واحدة لا غير على أمر التحويل، قامت فداء بتحويل الرسالة إلى كلّ العناوين الموجودة في جهات الاتّصال، فعلت ذلك من دون أن تفكّر للحظة واحدة أنّها بهذا التحويل قد حوّلت مجرى حياتها، من قدوم موقّت إلى ستوكهولم إلى إقامة جبريّة ولجوء سياسي.

* * *

حاولت سماح خلال فترة تواجدهم في السعوديّة، وحين صارت أمّها عند أخيها في لندن، أن تقنع مخلص بالهجرة إلى إنكلترا، تأخّرا كثيرًا في إنجاب الأولاد، سنوات زواج طويلة، حتى كادا أن يفقدا الأمل، وكانت تفكّر، ربّما في إنكلترا يجدان علاجًا لذلك. لم يقبل مخلص أيّ نقاش في هذا، قال لا أريد أن أعيش في بلد لا ينطق بلغتنا، ثم إنّ أسوأ علامة كنت أحصل عليها هي علامة اللغة الإنكليزيّة.

ثم فجأة وبلا سابق إنذار ومع تراجع أحوالهم المادّيّة حملت سماح وأنجبت أوّل ولد، وبعد أقلّ من عام أنجبت أخًا له. ورغم تحقّق أمنيتها بالأولاد، كانت متوجّسة من أنّ أحوال السوريّين في السعوديّة تتراجع وأنّ على المرء التفكير بتروٍّ. ولم تمض على نصيحتها ومشورتها سنوات قليلة، حتى انهارت أحوال المحلّ تمامًا. افتُتح معمل في المنطقة ينتج الإكسسوارات نفسها، ويعرضها بأسعار متهاودة جدًّا، أغلقت المحلّات الصغيرة

بالتدريج، ومعها أغلق مخلص محلّه. ولم يكن هناك منفذ آخر إلّا الهجرة إلى لندن.

تدبّروا بيع فرش بيتهم وسيّارتهم وحزموا أمتعتهم وسافروا جميعًا، ثم ومنذ اليوم الثالث لوصولهم، تقدّموا بطلب اللجوء، بنصيحة من معارفهم، بألّا يضيّعوا الوقت.

حين دخلوا أوّل مرّة دائرة الهجرة من أجل التقدّم بطلب اللجوء، كان ولداهما يحدثان صخبًا، تُحيط بهم وجوه بيضاء بأشعار شقراء، منهم من يتذمّر ومنهم من يكتفي بالتجاهل، ومنهم من يرمقهم من وراء الزجاج بريبة. كان مخلص في أكثر حالاته ضيقًا وحزنًا مع إحساس بالمهانة، شحّاذ، كان يردّد أمام زوجته التي ما فتئت ترصّ حجابها وتطعم أولادها ما في حقيبتها من مأكولات، وتبتسم للموظّفين ابتسامات الاعتذار والخجل. كانت الأسرة بالأم والأب والولدين مملوءة بشعور الذنب وقلّة الشأن، يتهدّل حجاب سماح على جبينها فيزيد وجهها نحولاً، ويخفض مخلص رأسه أكثر كلّما سمع كلمة إنكليزيّة. كان بصحبتهم غالب الذي كان حائرًا في نصيحته لهم، فهو وبعد سنين عديدة ما زال يتنقّل من عمل إلى آخر، وعلى الأغلب يعيش من المساعدات الاجتماعيّة التي تُعطى للعاطلين عن العمل، أو من منح يتقدّم بطلبها من هنا وهناك. ودّع أمّه في المطار وهو يكفكف دموع الذلّ والقهر، والآن جاءت أخته وزوجها يطلبان اللجوء، رافقهم في دائرة الهجرة يشرح لهما بحذر ما هما مقدمان عليه، كان حائرًا فهو يعرف أنّ زوج أخته لا يستطيع الرجوع إلى سوريا منذ أحداث

الثمانينيّات، ولكنّه يعرف أيضًا قسوة انتظار جواب الهجرة، شهور طويلة وربّما سنوات. تنهي السعوديّة إقامات الكثيرين، وليس من سبيل آخر، آثر مساعدة أسرة أخته، كغريب، يترجم فقط ما يُقال لهم.

وقّعوا الأوراق اللازمة، بصموا في ذيل الورقات بالأصابع العشرة وعلى رأس الورقات صورة كلّ منهم، التقطت لهم سريعًا، بكاميرا معلّقة بكمبيوتر، صور باهتة بوجوه شاحبة وجفون متهدّلة.

رجعوا إلى بيت غالب، توجّهوا إلى الغرفة التي خُصّصت لهما مع أولادهما، متران بثلاثة أمتار، يجب أن تتّسع لحقائبهم ولأجسادهم الأربعة. نظرت سماح حولها، أحسّت بالاختناق، جلس الصبيّان على السرير وراحت تفرغ الحقائب، ثياب كثيرة وأشياء عديدة ويبدو أنّها كلّها لن تلزمهم. علق بيدها شال طريّ اعتادت ربطه على خصرها حين ترقص، ضحكت بمرارة، قالت لمخلص مازحة، مع السلامة، يا دنيا حبّي، وحبّي وحبّي.. لم يجبها، كان ينهى الولدين عن التشاجر. كان الولدان يتناقشان أنّه لا يحقّ لهما العيش في لندن، كما أنّه لا يحق لهما العودة إلى السعوديّة. فوجئ مخلص بالولد الكبير ينبّه أخاه إلى أنّهما مشرّدان.. راح الصغير يصيح باكيًا أنّ هذا كذب، فما كان من مخلص إلّا أن تناول ورقتين من بين أوراق في حقيبته وأعطى كلًّا من الولدين ورقة قائلاً: هذه إقامتك أنت وتلك إقامتك أنت، والآن لديكما إقامة في بريطانية. وأخفى دموعه عن عيون الولدين وأمّهما.

تناولت سماح أوّل ثوب وجدته أمامها وارتدته، وما إن خرجوا من الغرفة، حتى قال غالب وزوجته بصوت واحد: لن تسألوا عن جواب الهجرة قبل مضيّ عام. غاص قلب مخلص، ونظرت سماح إلى وجهه متسائلة، هل يستطيع الانتظار سنة؟ ما كان في رأس سماح ليس قضيّة اللجوء، وإنما كيف ستتقاسم مع زوجة أخيها البيت وكيف يستمرّون بحجز الغرفة سنة أخرى، ولم تمض على رجعة أمّها إلى سوريا أشهر قليلة!

كلّ يوم يمرّ كجبل ثقيل، يرزح فوق الصدور.

في إحدى الليالي، أحسّت سماح أنّ هناك شيئًا غريبًا حلّ بزوجها، قال لها فجأة: لا تظنّي أنّي لم أعرف بمخطّطك، وصمت، كانت قلقة عليه وعلى نفسها وعلى ولديها، ولكن لم يكن أمامها خيار آخر، لا يمكنها العودة إلى السعوديّة، فقد أُنهيت إقامتهم، استحالة عودة زوجها إلى سوريا، ولا تجرؤ حتى على اقتراح ذلك.

تغيّرت سماح، لم تعد تهتمّ بسهر الليل وأغاني أمّ كلثوم، التي كانت تتمتّع بالرقص عليها. انغمست بالاهتمام بالولدين، إطعامهما وتدليلهما والبحث بين محلّات الأشياء المستعملة، عن ألعاب رخيصة وثياب رخيصة، تبحث عن ألعاب الأولاد المرميّة في الحدائق، تلملمها وتحضرها إلى البيت فتتذمّر زوجة أخيها، أنّ هذه زبالة. فكانت سماح تخجل وتغضب، وتذكّر زوجة أخيها بالعزّ الذي عاشته في السعوديّة وبأنّ الشغّالة كانت فقط منذ عدّة شهور، في بيتها تخدمها وتخدم أولادها، فتُجيبها زوجة أخيها: هنا

لا يوجد خادمات، الجميع خدم وملوك في آن. تدريجيًّا فهمت سماح ما يدور حولها، وبالتدريج وصلت لقناعة أنّه لا مكان لها في لندن، كانت قد التقت الكثيرات من الأمّهات اللواتي يلهثن بين البيت والعمل من دون أن يكترثن بمظهرهنّ، أيديهنّ خشنة ووجوههنّ لا حياة فيها، وكنّ دائمًا يردّدن متفاخرات بأنّهنّ يرتقين بعملهنّ، وماذا يعملن؟ تنظيف، مساعدات ممرّضات، خادمات، وكانت سماح تفكّر بالذي ستفعله بشهادة التاسع من سوريا في بلد مثل لندن، سيكون مصيرها خادمة لكبار السنّ أو في أعمال التنظيف، كأنّها سبرت طريقها قبل أن تمشيه. قضت الليل كلّه تفكّر، وتتأمّل في حيطان الغرفة الضيّقة، ولماذا هذا العذاب؟ فكّرت، بيتهم في حماة سيّاح، حديقة كبيرة، أقاربهم وضيوفهم وصديقاتها، أمّها، تسلّيها وتتسلّى معها، يلعب الأولاد مع أقاربهم ويتسلّون، لِمَ تكافح هذا الكفاح هنا؟ ما الذي ستجنيه، بعد أن خسرت الرفاه في السعوديّة؟ استيقظ مخلص صباحًا ليجدها قد حزمت حقائبها وقرّرت ترك قضيّة اللجوء يعالجها بمفرده، والسفر إلى سوريا مع أولادها، قالت: خذ الإقامة أنت، ونحن نرجع إليك.

نظر في وجه ابنيه، لا ذنب لهما، نظر في وجه زوجته لا ذنب لها، ذنب من إذن؟ كانت مرآة كبيرة في المطار تعكس وجهه متعبًا، لا ذنب له أيضًا، لم يكترث أن يخفي دموعه أو يمسحها، مشى يجهش وعاد إلى غرفتهم التي كانت ضيّقة عليهم، وصارت واسعة خالية بعد رحيل زوجته والأولاد.

كان جالسًا على طرف السرير، يحسب الأيّام والشهور، حين دخل عليه غالب، وبعد تمهيد طويل، اقترح عليه أن يعمل في محلّ شواء، يحمل سيخ الشاورما الشديد الثقل وينظّف طاولات الزبائن.

لم يقض مخلص فترة من حياته بضيق مادّي حقيقي، كما لم يضطرّ عدا تلك الليلة أيّام الشباب أن يعمل عند فرّان في لبنان. ابتسم بمرارة لاقتراح غالب وقال له: هكذا أمرت، مثل ما تأمر، هكذا الأمر، وظلّ يردّد: كذا الأمر، حتى ظنّوا أنّه جنّ. في اليوم الثاني اتّجه إلى دائرة الهجرة وتقدّم بطلب أن يسكن في كامب، وكان له ذلك في اليوم نفسه، ركب الباص المخصّص لنقل المهاجرين الجدد، وبين الشباب الشديدي البؤس جلس واضعًا على ركبته حقيبة صغيرة فيها كلسونان وقميصان وبعض الجوارب وبنطال واحد وكنزة صوفيّة سميكة. تذكّر ساعة اقتادوه من بين أخواته وزوجته إلى فرع الأمن أيّام الأحداث.

لم يودّع أحدًا، أخبر غالب بالهاتف انتقاله للسكن في كامب ناء، حجّته أنّه يريد أن يكتب ويتعلّم اللغة.

ولكن هيهات، لم يذهب إلى المدرسة التي كانت مهيّأة بسهولة لمن يسكن في الكامب، ولم يكتب في كتابه. كان يبدأ الشرب منذ الصباح، ولا يأكل إلّا القليل، يفكّر كثيرًا ويكره التفكير، لا يستطيع منع نفسه عنه.. ماذا ينتظره في الغد؟

في البداية اتّصلت به زوجته واتّصل بها ولكن بعد ذلك تباعدت الاتّصالات حتى كادت أن تنعدم. رغم فقدانه لأولاده

ورغم فقدانه لعائلته وأصدقائه إلّا أنّ توحّده ووساوسه لم تستدع واقعًا جديدًا، كانت تستدعي صورًا قديمة. كانت ما تفتأ تنتصب أمامه، سقف غرفة التعذيب، وجه المخبر الذي أنقذه من الموت، وجه أخته فداء تنظر إليه قبل مغادرته، وأحيانًا طفلاه اللذان غادرا راكضين في المطار، لم يلتفتا إلى الوراء لكي يلوّحا لأبيهما.

يضرب كفًّا بكفّ، علامة الفقدان: خالي الوفاض. يقول هذا ويكتبه عشرات المرّات. صارت الجملة مرافقة لكأسه اليوميّة، يمشي في الطريق يردّدها، في وسائل المواصلات وأثناء تناول الطعام. نصحه رفيقه في الغرفة، رجل قادم من أفريقيا، حاول التقرّب منه من دون فائدة، نصحه أن يتواصل مع الشخص المسؤول عن قضيّة لجوئه علّهم يسرعون بالتحقيق والجواب، نصحه أن يذهب إلى الطبيب، أن يذهب إلى مدرسة اللغة، لكنّه لم يكن يقبل شيئًا، اكتفى بتلك الفلوس التي تأتي إلى حسابه من دائرة الهجرة، وصار يحرص عليها مثل روحه، لا لشيء إنّما خوفًا من ألّا يتمكّن من شراء كحوله ودخانه. وتلك الشجرة التي تقابل غرفة معيشته، هي أنثاه التي يشتهي، جذعها ينفلق إلى جذعين ثخينين، كساقي امرأة مقلوبتين مهيّأتين لعادته السرّيّة ودموع شهوته وحيدًا.

* * *

فرغ البيت الكبير من الأولاد، وبقي فؤاد وسعاد وحدهما، كأنّهما للتوّ تعارفا، كأنّهما وبعد هذه العشرة الطويلة، لم يمتلكا الوقت الكافي لمعرفة بعضهما بعضًا تمامًا، كان الاثنان يشعران بالضجر والفراغ، كأنّ ضجيج الأولاد وصخبهم ومشاكلهم وهمومهم هي التي صنعت العلاقة الشجرة وأسّستها. وحين غادر الأولاد ساد البيت صمت وعتمة، زادهما صلوات سعاد وتوجّس فؤاد من الجلطة الثالثة، لا شاغل له إلّا ترتيب صيدليّته، ودرج جواربه، صحن اللبن بالملح والزيت، ومشاحناته مع سعاد على خزانة الزبالة وخزانة الطناجر وفرن الغاز وشراء نوع صابون غار جيّد، ومشاحنات سعاد معه لأنّه يحضر الخضرة من الدكّان القريب حيث تكون غير طازجة وثمنها عال، وأنّه يبدّل ثيابه كلّ يوم ويكوّم الغسيل. لم يخطر ببالهما يومًا أن يجلسا ليستعرضا حياتهما، تلك السنين الطويلة التي عاشاها معًا، كان الاثنان ينطقان الجملة نفسها وبوقت واحد، العمر ماض والأيّام تركض ركضًا. تلتهي سعاد بكشّ الطيور عن كرمة البيت، قائلة: الله يهمّدكم. وفؤاد يلتهي

بغسل وتجفيف أوراق الملّيسة والبابونج بأحسن ما يمكن لحفظها إلى الشتاء.

في بداية زواجهما، شغلت سعاد موقع الكنّة في البيت، وشغل فؤاد موقع رجل البيت حينًا وابن البيت حينًا آخر، الكلمة الأولى والأخيرة كانت لأمّ فؤاد إلى أن ماتت.

كان فؤاد يحبّ أنوثة زوجته وطيبتها وهي تحبّه رجلها الذي تتّكئ عليه وتطمئنّ أنّه يحمل معها همّ الأولاد الثمانية، لكن، حين فرغ البيت عليهما، انشغل كلٌّ منهما عن الآخر بالآخر، يستمدّان من تفاصيل يوميّة بسيطة سببًا للعيش وكسر الضجر والتوق للأولاد. وكانت سعاد لا تفتأ، وكلّما سنحت الفرصة، تذكّر زوجها بأنّه حين لم يكن يصغي لرأيها كان مخطئًا، وكان الموضوع الذي يُثيره هو حين تبدأ بلومه على عناده بتدليل البنات وإصراره على ضرورة تعليمهنّ، كانت وحسب اليوم والفصل والموسم تذكّره وتلومه، تشتري الملوخيّة وتذكّره كيف كان يشجّع البنات على إهمال أعمال البيت، إلى الكتاب، كان حين يجد بنتًا من بناته تجلس على الأرض وتنتف عود الملوخيّة يقطّب، أمّا حين يجدهنّ الخمس ظهيرة الصيف في حضن كلّ منهنّ كتاب، يبتسم بفخر، مطمئنًّا إلى مستقبلهنّ. تلومه وتلومه، فينفجر فيها قائلاً، ألا تذكرين كم كنت تعيّرينني بأنّ البنات لم يأتين شقراوات لك ولعائلتك وأنّهنّ جميعًا أتين لي ولأمّي؟ وبدل أن تصمت وتعترف، تُعيد الأمر نفسه وتقول: اشتهيت بنت تطلع لأخوالها، كلّهنّ سمراوات. فيمتعض فؤاد ويذكّرها بأنّ لينا ليست سمراء، فتقول: طلعت بنت عليها

لحسة بياض. لا يدري فؤاد كيف يجيبها، فهو يرى ابنته فداء أحلى بنت في العالم، ويناقش سعاد بهذا، فتعترف أنّها جذّابة ولكن ليست طلب أهل حماة. ليست شقراء. فيرتبك فؤاد ولا يعرف كيف يسكتها. يتذكّر نقطة ضعفها، الطبخ، يقول: كان وجه طنجرة المحشي اليوم كلّه كوسايات مفزورات. فتتأهّب، وتبرّر: قلّلت ماء البندورة حتى لا تؤذي الصحّة، كبرنا ولازم ننتبه على الصحّة.. وهكذا تستمرّ النقاشات إلى أن يأتيهما ضيف، أو يرنّ الهاتف.

يتّصل فؤاد بفداء، لتأخذ العين والقلب، يسألها عن أحوالها بلهفة عارمة تشوبها أحيانًا لهجة سخط، تفهمها فداء وتعرف أنّه اشتاق إليها وأنّه قلق عليها، فتحاول أن تطمئنه، كانت خائفة أن تفقده قبل أن ترجع، صارت هواتفها تخصّصها لسؤاله عن الدواء وماذا يفيد كلّ دواء والحمية، ثم تحكي له على البلد الجديد، وتوصيه بأن يأخذ هواء نظيفًا وينام جيّدًا. في آخر هاتف بينهما، كانت فداء في الشهر الأخير وعلى وشك الولادة، قالت لأبيها: ماذا تقترح اسمًا للولد؟ قال: أعرف أنّ محمّد سيختار اسمه. ديري بالك على صحّتك، مع السلامة.

فردت سعاد سجّادة الصلاة واتّجه فؤاد وقت العصر إلى الفرن الذي يبيع خبزًا طازجًا، ارتدى الطقم العربي، جلّابيّة وسترة، وضع جزدانه في جيبه وأغلق الباب الحديدي. مشى على مهل، عادته أن يتأمّل في واجهات البنايات وشكل الأرصفة. في طريقه إلى الفرّان، صادف أحد أقاربهم، حاول تجنّبه، لا يحبّ حتى السلام أو التواصل معه، يعمل الرجل تاجر قطع تبديل، معروف

عنه علاقاته مع رجال الأمن، يدعوهم كلّ حين إلى مائدة عامرة في مطعم على طريق «كفر بهم»، وأقاربه يكرهون هذا ويتجنّبونه، وكان فؤاد مثلهم، إلّا أنّ الرجل ورغم يقينه من سوء سمعته ورفض الناس لسلوكه، كان يحرص على مساعدتهم. من كان لديه سؤال عن وضع أمني، أو اسم أو خبر، أو يحتاج واسطة لتلبية أمر ملحّ، كان يهمّ بكلّ إمكاناته. حاول فؤاد تبديل طريقه كي لا يضطرّ لملاقاته، إلّا أنّ الرجل لحق به، وناداه: يا أبو أيمن، أريد أن أكلّمك بأمر هامّ. تمهّل فؤاد لسماع ما لدى الرجل.

ـ السلام عليكم!

ـ وعليكم السلام!

ـ كيف صحّتك أبو أيمن!

ـ الحمد لله. كيف عيلتك؟

قال مباشرة ومن دون تمهيد:

ـ الدكتورة برّا.. وسكت.

توقّف الهواء في حلق فؤاد.

ـ الدكتورة مطلوبة الآن، حوّلت رسالة خطيرة إلى أُناس في سوريا، ثم استأنف: وما شأنها؟ ما شأنها بالسياسة؟ هي طبيبة، الكلّ يعرفها ويحترمها، كرّر منبّهًا، رجعتها للبلد مخاطرة.

مضى فؤاد دون أن يقول لقريبه، مع السلامة، وقف في دور شراء الخبز. «أيمن، مخلص، وكان يحتمل بعدهما، أمّا فداء..».

بدأ يشعر بالتعرّق وأحسّ بالتعب والدوار، برّر أنّه ربّما الحرّ، أو أنّه لم يشرب ماء كافيًا كما أوصته فداء، ما إن جاء دوره حتى كان الإعياء قد تملّكه تمامًا، أوقف سيّارة أجرة، رمى ربطات الخبز على المقعد بجانبه، وأعطى العنوان للسائق، كانت مناظر واجهات البيوت تركض عبر النافذة وتركض معها دقّات قلبه. توقّف السائق قبل البيت بقليل بحجّة توقّف سيّارات أخرى، مدّ السائق يده، وتناول الأجرة من دون أن ينظر في وجه الرجل، ترجّل فؤاد من السيّارة، وجلس على أوّل درجة صادفها، كانت درجات بيت جاره وصديق عمره. أسند رأسه إلى الجدار، ربطتا الخبز تتدلّيان، يضيق الصدر، وتعتم الدنيا حوله إلّا من صورة وجوه بناته صغيرات يتحلّقن حول المائدة فرحات بالحليّ الجديدة وصوت فداء يأتيه تُداري حزنها..

خرج رفيقه من بيته على نداء الأولاد، أسنده لكي يدخل ويرتاح، لكنّه رصّ على يده يرجوه أن يتركه مكانه وسأل: أتراني ظلمت البنات؟

* * *

ـ عمّي أعطاك عمره!

اتّصلت سماح تخبر مخلص.

أرجع الهاتف إلى جيبه من دون كلمة، وجلس على طرف سريره في غرفته الضيّقة. أيقظه نبأ موت أبيه من توحّده، أخذه إلى بيتهم، شرفة بيتهم، الواجهة المثقّبة، والنوافذ والباب الحديدي الثقيل، درج البيت وخزانة الأحذية التي كان يحلو له أحيانًا إخفاء المحظورات فيها، عند دخوله يخبّئها وعند خروجه يأخذها.

أبو أيمن مات، وماذا حلّ بسطح البيت وواجهته؟ الدرجات الثقيلة المغبرّة، الحارة، وجارتهم مديحة التي كانت تكثر من الغمزات.

أبوه أعطاه عمره، وأخذه إلى البيت وأخواته صغيرات ببيجاماتهنّ الملوّنة، وأمّه بقميصها الأزرق الرقيق، تلاعب ربيع، كأنّ فؤاد الآن بالطقم العربي حاملاً فنجان قهوته الصغير بيد والراديو باليد الأخرى، متّجهًا إلى ركنه. فؤاد أعطاه عمره وأخذه

إلى غداء أمّه، الذي كانت تخصّصه له كما كان يحبّ، أن يأكل بمفرده في غرفته ويدخّن سيجارته وينفضها في صحن طعامه، على زفر يقول. هل أحسّ بالحزن؟ هل أحسّ بالألم؟ هل هو إحساس بالحنين؟ كان من الصعب سبر أعماقه، كانت لديه رغبة واحدة هي أن يصرخ بأعلى صوته: آآآآآه. لكنّه بدلاً من تلك الاستغاثة، ابتلع ما تبقّى في قنّينة الفودكا دفعة واحدة وخرج سريعًا ليشتري غيرها، مشى باتّجاه المخزن بخطوات سريعة.

يعرف ويحفظ موضعها، إلّا أنّه استغرق وقتًا طويلاً يبحث عن الرفّ المخصّص، تناول مقصده وتوجّه إلى الصندوق أيضًا بأطول الطرق وبالخطوات المتسارعة والمتمايلة نفسها، تائه وذاهل، وهذه المرّة، وعلى غير عادته، قال للشابّ الذي يجلس عند الصندوق بكلمات مجعلكة: أنا من سوريا، مات أبي اليوم، وأنا صرت خالي الوفاض.

ربّما قالها بالإنكليزيّة أو بالعربيّة، ولكنّ المحاسب الذي لا يُريد أن يخرج عن نطاق صندوقه ويريد أن ينهي وقت عمله سريعًا، ناوله الفاتورة وكأنّه لم يسمع شيئًا، وأخذ الزبون الذي يليه.

حمل مخلص قنّينته ملفوفة بكيس قماشي، موجود في جيب معطفه دائمًا وأبدًا.

بالخطوات المتسارعة والمتمايلة ذهب إلى مجمّع سكنه. يرجو دائمًا ألّا يلتقي الموظّف المسؤول عند باب الكامب، علّه مشغول بأمر فلا يلتفت إليه. يعرفونه، لكنّهم يتناوبون، وفي كلّ وجه جديد يأتي، يشعر بعبء نظراتهم وفضولهم. موظّفو الأمن ذاتهم شرقًا

وغربًا، ولكنّ الشعوب تتغيّر، ابتسم بمرارة: حين تقوى الشعوب يضعف رجل الأمن. لاحقه موظّف الأمن بتحيّته، تحيّة قويّة، يتعاطف معه، ولكنّ مخلص يمتعض من تعاطفهم، يفضّل أن يتركوه بسلام، خصوصًا وأنّه خالي الوفاض، كان يبتسم لتلك الجملة، «لو أنّهم أذكياء اكتشفوا أنّه ليس لديّ ما يُخيف، ولا حتى في المشاعر، خالي الوفاض، هههههه». دفع باب غرفته واتّجه إلى الرفّ المخصّص لقنّينة الفودكا، وضعها في الزاوية اليمنى، طوى كيس القماش وأعاده إلى جيب معطفه، وجلس على طرف السرير يحدّق في الحائط الحائل الدهان.

كثرة الناس حول أيمن جعلته ينشغل أثناء وجودهم عن حزنه بفقده لأبيه، العديد من السوريّين في جدّة أتوا لتعزيته في بيته، وتحوّل العزاء أوّلاً إلى حزن جماعي لكلّ من فقد قريبًا وهو في منفاه، ثم تحوّل إلى نقاشات سياسيّة طويلة، أُناس كثيرون لم يلتق بهم منذ زمن طويل جاؤوا معزّين ومشاركين، وانشغلت زوجته أيضًا في تفاصيل العزاء واستقبال النساء. ومرّ موت الأب مرورًا خاصًّا، لم يكن مفجعًا بقدر ما كان سببًا لاجتماع السوريّين وتبادلهم هموم غربتهم وذكرياتهم عن البلد، حسراتهم ويأسهم، وكذلك خلافاتهم التي تقلع العين، عين المراقب وعين المتورّط بينهم. تحوّل العزاء إلى جدال طويل يتخلّله، رغم محاولتهم احترام المناسبة وجعله هادئًا، التوتّر والعداء. ينوء كلّ منهم تحت عبء الفقد والحرمان من البلد والذي لا يتجلّى إلّا بالخلاف الحادّ والمضني لكلّ الأطراف.

تحدّث أيمن عن خيبته من سياسة الإخوان قيادة وأعضاء، سابقًا وحاضرًا، وعن خيبته من عدم اهتمامهم بضرورة مواكبة مسيرة العالم وسرعته، قال إنّ العمل بطريقتكم البائدة الآن لا يعني شيئًا، واستخدم كلمة «بعبصة» بحالكم وببعضكم وأنّ الناس خائبون ومخذولون بكم وبحكّامهم ومن أجل هذا الجماعة مسؤولة عن يأس الناس أيضًا..

انتهى العزاء، ودّع الناس يشكرهم على تعزيتهم التي لم تخفّف غضبه، ودّعهم وهو في أوج تعبه.

كان ضيقه أنّ من دفن أباه بعض أقاربهم وجيرانهم وأخوه ربيع المنغمس بتدبير أعماله وتيسير معاملاته، ولم ينل الرجل بظنّ ابنه البكر القيمة الحقيقيّة له، أو كما يتمنّى، رغم تأكيد أهله له أنّ جنازته كانت مهيبة وخرج الكثيرون معه، وأنّ الجامع كان ممتلئًا بالمصلّين عليه. لكنّه كان منفعلاً وناقمًا على بعده واستبعاده.

انصرفوا من بيته مقدّرين حزنه على أبيه، لمدّة يومين انشغلوا بالحديث عن العزاء وآراء أيمن بالتنظيم، ثم مضى كلّ منهم إلى أمور يومه، أسرته وعمله، ورجع أيمن أيضًا إلى عمله، مع مزيد من الحنين وكثير من القنوط، لكنّ الأمر لم يقلّل من عزمه أو عزيمته، كان يبدو عليه التماسك والثبات، المظاهر التي يحرص عليها، قناعته أنّها الأكثر فائدة ليحيا المرء بين الناس.

ولكن هذا التماسك وهذه المصابرة لم يستمرّا طويلاً، ففي يوم ذكرى الأربعين، وقبل أن يحين موعد قدوم الضيوف، كان مع سها يعدّان البيت لاستقبال المدعوّين، صاعدًا هابطًا درج البيت

الداخلي، حين شعر بضيق تنفّس شديد وبأنّه لا يستطيع الصعود، جلس على الدرج، ثم اتّكأ برأسه على الدرابزين، ولم يصح إلّا على صوت ابنته بجانبه في المشفى، تقول: بابا أنا أحبّك.

وعرف أنّه أيضًا أُصيب بالجلطة وأنّه ربّما لا يرى بلده مرّة ثانية.

بكت لينا أباها كثيرًا، ولكنّها كانت كالمثل القائل، حزين وواع، شاركت أمّها وأخواتها الحزن في البيت أسبوعًا ثم افتتحت بنفسها عزاء خاصًّا في مزرعة زوجها، أخبرت جميع صاحباتها أنّها تستقبل المعزّيات يومي الإثنين والثلاثاء. كانت لديها شغّالة أندونيسيّة، ولكنّها من أجل المناسبة أحضرت شغّالة أندونيسيّة أخرى، واستبقتها بعد ذلك لديها، خادمة في المزرعة وأخرى في البيت.

كلّ ما سعت إليه وتمنّته، حقّقنه، ولكنّها لا تفهم سبب هذا الضيق الذي يمنعها من النوم أحيانًا، كان زوجها يسألها: ماذا ينقصك؟ لِمَ لا تنامين؟ كانت تبكي من دون سبب، وتفسّر الأمر لنفسها بأنّ إخوتها مشرّدون هنا وهناك وأنّها ورغم عدد معارفها الذي يبلغ كلّ أهل المدينة، تشعر بالوحدة وبالحزن، مات أبوها وحيدًا في الطريق، من أجلهم، مات.

الحزن، بمفهوم بشرى وسمر على أبيهما، أن تلازما أمّهما، وفعلتا ذلك، مساعدة فعليّة لكي تؤدّي عدّتها أربعة شهور وعشرة أيّام بأقلّ ما يمكن من الحزن والغمّ، كانتا تحضران لها ما ترغب

وتستقبلان النساء جاراتها ومعارفها، تعدّان الضيافة اللازمة، راضيتين عن نفسيهما وأسرتيهما.

كان ما يثير أمّهما أحيانًا أنّهما تثرثران على زوجة أخيهما سماح وأمّها أمّ غالب التي أكثرت من زيارة سعاد فترة عدّتها، تحكي عن البلد الغريب وتذكر أسماء المدن مقلوبة، فتتضاحك بشرى وسمر. كان ما يزعجهما أنّ سماح تتحدّث بوضوح عن إفلاس زوجها، أخيهما، واضطرارها للهجرة معه، فتهبّان في وجهها برأي واضح ولئيم، بأنّ على الزوجة أن تكون بجانب زوجها في الحلوة والمرّة. فتدمع سماح قائلة، سوف نرجع إليه حين ينال اللجوء، إنّه يشرب كلّ يوم والغرفة ضيّقة علينا، فتغضبهما، زوجة أخيهما تعيّر بمشروب مخلص، تتركان الغرفة وتذهبان إلى الغرفة البعيدة كي تثرثرا بما حدث بصوت هامس على الكنّة وأمّ الكنّة، وبعض من الثرثرة على الأقارب، في تسلية يوميّة لا تنتهي.

كانت فداء تمشي ببطن كبير، بجانبها محمّد، قادمين من زيارة لأحد السوريّين، قالت لا يوجد لدينا حليب، وحموضة المعدة تندفع بالحلق بكثافة، صرخ فيها، لا وقت لديّ، فليمرّ اليوم من دون حليب، قالها كعادته ببخل واستهتار بمعاناتها، ألحّت، إنّ الحموضة في معدتها أنهكتها، وإنّه لا يشتري لها دواء الحموضة الذي تحتاجه، وإنّ الحليب يساعدها قليلاً إذا شربته باردًا، لكنّه كرّر ببرود بأنّ كلّ النسوان تحمل وتلد وتتحمّل. في تلك اللحظة أحسّت بهبوط هائل في بطنها، ضاق تنفّسها حتى شهقت، نظر إليها

بضيق، ورأى أنّ وجهها متعرّق وشفتيها بيضاوان، سألها بخشونة: ما بك؟ استغاثت: ساعدني، لا أستطيع أن أتنفّس. أجاب: نصل إلى البيت قريبًا.

حين وصلا، كانت بحال ضعف وتعب شديدين، رنّ الهاتف، اتّجه محمّد ليُجيب، بينما استراحت فداء على أوّل كنبة صادفتها، تنظر في وجه زوجها يتحدّث، كان من الواضح لها أنّه أُخبر خبرًا ثقيلاً. أغلق السمّاعة والتفت إليها: عمّي أعطاك عمره.

اتّجه إليها، قبّل جبينها وهي مبهوتة.

خبّأت وجهها في وسادة بجانبها، وتحوّلت ببطنها ووسادتها إلى كتلة تهتزّ بدون توقّف، فيما محمّد ينظر إليها مستلبًا أو عاجزًا عن تعزيتها، ثم وبعد عدّة دقائق قال: سأذهب لأشتري لك الحليب!

انتقل ربيع إلى العيش في حلب، وانشغل كلّيًا بعمله وطموحاته، كان رأيه أنّ دوائر حماة بمسؤوليها غير الحمويّين أنهكته بإرباكاتها للمتعهّد الحموي. كان يشتاق لدلال أمّه وعنايتها وحنانها، إلّا أنّ نمط الحياة التي اختارها لا يفسح وقتًا للقاء الأمّهات. يتّصل بها بين حين وآخر من هاتفه الجوّال، وغالبًا ما يكون هذا حين يركب سيّارته، عند إشارة مرور طويلة ومملّة، أو في طريقه إلى العمل، أو حين يرافق زوجته إلى مشوار. كان أكثر ما يحزن سعاد أنّها لا تسمع صوت حبيبها جيّدًا، هدير المحرّك وزمامير السيّارات المحيطة، تشتكي أنّها لا تسمعه لأنّ صوت المسجّلة أيضًا يغلب على صوته، يطلب من زوجته بجانبه أن

تخفض الصوت فتتذمّر لأنّها تحبّ سماع الأغاني حين تركب السيّارة. ترجوه أمّه أن يتّصل بها حين يكون في البيت، فيتضاحك، أكون في البيت حين تصلّين الفجر فهل أتصل بك في ذلك الوقت؟ ترجوه أن يكفّ عن السهر وينام جيّدًا ويعتني بصحّته ويخفّف دخانه وأن يقود بتأنٍّ وأن وأن.. يأخذ حصّته المعتادة من توصيات الأمّ، يتضاحك وتتلاشى نصائحها مع إغلاق الهاتف.

اتّخذ ربيع نمط حياة وعمل حديثًا وسريعًا، وتزوّج فتاة كسولة وقليلة الطموح إلّا للمال، كانت ترغب دائمًا بمزيد من المال لكي تلبّي حاجاتها، من الثياب الجديدة دائمًا إلى السيّارة الحديثة دائمًا وإلى الهاتف الجوّال الذي لم يستخدم طرازه أحد قبلها. لا يشغلها شيء في يومها إلّا أن تثرثر مع رفيقاتها. اشترينا ورحنا وجئنا، فتح مطعم جديد نريد تجريبه، وأخبار الناس ممّن تزوّج أو تطلّق أو بدّل بيته أو زاد من ثروته. وكانت مع كسلها، تحبّ السهر وتحبّ أن تقضي وقت الجنس جيّدًا مع زوجها، وكأنّها اكتشفت مفتاح الرجل فتملّكته، هذه المرأة التي لا تعرف أن تعيش إلّا هكذا، تجعل زوجها أيضًا يعيش نمط الحياة هذا، المرأة تحتاج مالاً وعليه أن يزيد ماله كي يلبّي رغباتها، وإلّا فالحياة ستمضي مع النقّ والضيق والمشاكل.

فهم ربيع الواقع وتغلّب عليه بلغة الواقع نفسه، يتذكّر أسئلة أخته غادة ويتألّم لأجلها، ولأجلها فقط سلك هذا الطريق، طريق التجارة والعمل الكثير من أجل كسب المال وصرف المال أيضًا. وهو رغم انشغاله الكثير بعمله وتيسير معاملاته المرتبكة دائمًا في

دوائر الدولة، والتي تكلّفه الكثير من الرشاوى، إلّا أنّه يحرص بشدّة على متابعة الأخبار السياسيّة والاقتصاديّة، ويفهم ما يحدث ويحلّله مع معارفهم وأصدقائهم الكثر. اتّفق ربيع مع لينا على نمط الحياة ونمط الأصدقاء فكان الانسجام بينهما على أحسنه، يدعمان بعضهما بعضًا باتفاق ضمني، وفي الأعياد وأوقات اللقاءات الطويلة، كانت لينا تشتكي لأخيها خيبتها من أسرتها، ويبادلها التشكّي: لِمَ اختار أخونا الكبير طريق السياسة؟ ولِمَ اختارت أختنا الكبيرة هذا الرجل ابن بيئة لا تناسبنا؟ ولِمَ لم تكن الأمّ محنّكة في علاقاتها كي تؤمّن أزواجًا وزوجات مناسبين للأولاد؟ وتختصر لينا حديثها، بأنّ الحظّ قليل. ثم تنادي خادمتها: «ماسودا» اشتهينا صحن بوظة، ومن بعدها قهوة. تذهب الخادمة لتحضر طلباتها، فتضحك مبرّرة كسلها: هذه «الماسودا»، أهمّ فرد في العيلة. يتفهّم ربيع أخته باسمًا ويؤيّدها.



فتحت فداء خزانتها، تريد أن تبدّل ثيابها، كانت شاردة تمامًا عن صغيرها المستلقي بساقين عاريتين، مقشعّر الجسد من البرد، انتبهت فقط حين بدأ يسعل، ألبسته سريعًا، ولفلفته وحملته وخرجت. تواعدت مع محمّد أن تلتقيه ليذهبا معًا للقاء صديقته الإنكليزيّة كاثي التي تعمل في مجال حقوق الإنسان، قدمت من لندن مع رفيقتها لتدعم قضيّتهما في اللجوء السياسي في السويد، سوف تمكثان يومين في ستوكهولم.

كان يوم جمعة والجمعة في أوروبا ليست كالجمعة هناك في حلب وحماه و.. ضغطت فداء على زرّ إشارة المرور لتعبر الشارع مع عربة ابنها، وبجانبها محمّد. نظرت في وجه ابنها، صغير وغضّ ووردي! تذكّرت ولادته، كانت مضنية، استدارت إلى محمّد وابتسمت تحثّه أن يبتسم للولد.

تحاول أن تبثّه ثقتها، متحاملة على نفسها، محاولة تجاهل الشكّ الهائل الذي يأكلها. أيكون قضى مع تلك المرأة التي سيلتقونها الآن ليالي سفرته الأخيرة؟ حين كانت فداء تعاني آلام

النفاس وحيدة في ليالي ستوكهولم الشديدة الطول، ترضع الطفل صمغًا أصفر وتتسنّد على الحيطان، كي تصل إلى الحمّام فاشخة ساقيها عن جرح الولادة، تتخفّف من ألم الجرح الذي التهب وتقيّح بأن تدلق الماء من دون توقّف!

حين ولدت الولد، لم يكن لديهم الضمان الصحّي، حقّ كلّ إنسان في أوروبا، كلّ المصاريف تكفّلت بها تبرّعًا جمعيّة من جمعيّات حقوق الإنسان، وكان طلب محمّد أن يتقشّفا قدر الإمكان، كي يوفّرا بعض المال أيضًا لسوريا، كانت النيّة العودة فورًا. وكان له ما أراد، تقشّفت كما أراد، منذ أن وصلت إلى ستوكهولم وهي تتقشّف، حتى حين أحسّت بالآلام الشديدة تقشّفت في إظهارها، أنكرتها حتى على نفسها، ابتلعتها. ذهبا إلى المشفى في الصباح، فحصتها القابلة وقالت بضيق: لم تفتح الرحم، علينا الانتظار، وانتظرت فداء، تشدّ حبلاً معلّقًا فوق سريرها، وتبتلع وجعها، يقولون الطلق، تفهم هذه الآلام ومعناها، آلام تحدث عن عمليّة طبيعيّة وعلى الأمّ احتمالها تاريخيًّا، ولكنّها عند المحكّ، شنيعة وتفقد الفهم تمامًا. كان محمّد برفقتها، جلس على سرير مجاور يقلّب في أوراق، التفتت إليه، لم يمسك يدها أو يقل لها كلمة واحدة، إنّه يحسّ بألمها، أيّ كلمة تشجعها، علّ الوقت يقصر! راح يتضاحك مع الممرّضة حين مازحته بأنّه زوج وطبيب وعليه أن يساعد، أجابها إلّا بهذا، على الأمّ أن تفعلها بنفسها وأنّ واجبه أدّاه منذ تسعة شهور، وضحكا، وحين غابت الممرّضة أدار ظهره ونام، لم يستغن عن قيلولته حتى في هذا النهار، زوجته فداء شجاعة بما يكفي، وتكبت آلامها كما يلزمه أن تفعل، ظنّ أنّها لا

تتألّم كثيرًا، فالنساء حين يلدن يتأوّهن أو يصرخن.

قرّرت الطبيبة تحريض الرحم كي تفتح بالقدر الكافي، وزادت الآلام، وتزايدت، وزادت أكثر، حتى شعرت فداء أنّها ستموت، ولم تُسمع لها صرخة واحدة، غاب صوتها منذ الصباح، وحين أرخت رأسها على الوسادة، تراكضت الطبيبة وأنعشتها، وشجّعتها، فتحت الرحم قليلاً، تشجّعي واضغطي وتنفّسي، اضغطي وتنفّسي، قيلت لها عشرات المرّات، وكانت تخطئ أن تضغط أو تتنفّس في الوقت المناسب، فيندفع الوجع موجة تحسّها تقلع رأسها من رقبتها، حين نادت: بابا، أريد أن أخرج من هنا. اقترب محمّد منها ولأوّل مرّة رأت دموعه. قالت له الطبيبة، شجّعها.

ولدت الولد في المساء بعد تعقيدات طويلة وآلام مريرة. لفلفته الممرّضة وناولتها إيّاه، وضعته على صدرها، شكرًا، قالت فداء كشحّاذ. نظر الولد الجنين في عيني أمّه، فالتفتت فداء من دهشتها إلى الطبيبة تشهدها، وحين وجدتها مشغولة، صاحت مثل بنت صغيرة: إنّه ينظر إليّ.

رجعت إلى البيت، نامت مع صغيرها في السرير وحيدة، تتناوله ليلاً كي تعطيه ماء السكّر، وتغيّر له حفاضه وتغفو من تعبها وآلامها. سافر محمّد في اليوم الثاني بدعوة من جمعيّة تهتمّ بحقوق الإنسان. وقضت الأيّام الأولى تعالج نفسها بنفسها، كان أمامها رقم النجدة الثلاثي، سوف تتّصل بالنجدة، فقط إذا أحسّت أنّها ستموت أو الولد سيموت، هكذا قالت لها الممرّضة.

اتّصلت أمّها، وباركت لها باكية: لو أبوك عايش كان عقله

طار من الفرحة، الحمد لله على سلامتك. وبكت، لأنّ ابنتها وحيدة في غربتها. تحاملت فداء على أوجاعها ووحدتها وراحت تضحك وتطمئن أمّها: ابنتك طبيبة وتعرف كيف تعتني بنفسها. قالت لها: ديري بالك على صحّتك وعلى ابنك ولا تتقاتلي مع زوجك.

نظرت كاثي إلى فداء بتمعّن.

ارتدت فداء بلوزة بلون برتقالي فوق تنّورة من الجينز، محاولة أن تهيل كلّ الأغطية اللازمة على خوفها، ارتيابها، سمومها، كرهها، نقمتها.

شربت كاثي وصديقتها الشاي والقهوة. طلبوا الغداء، ثم البيرة والبيرة والماء والقهوة ثم النبيذ والفستق. كانت فداء تراقب كثرة الطلبات وتخشى أن تكون الفاتورة على محمّد، متوجّسة من غضبه الذي لن ينفجر إلّا في وجهها. تراقب صغيرها ترضعه، تغيّر له، تمسح وجهه وترمق وجه محمّد ووجهي المرأتين من طرفها.. أحسّت أنّها تكرههم، ومع ذلك راحت تلاطفهم، تلتزم الصمت في وقت، وتتحدّث بإنكليزيّة تحاول أن تكون سليمة حين يسألونها عن أمر، وغالبًا ما يكون حول الطفل. وحين أبدت رأيًا عن وضع المرأة في كلّ طائفة من طوائف الدين في سوريا، كانت الفكرة التي انطلقت منها، مفهوم الحيض وتأثيره على مسار حياة البنت والمرأة ووضعها في الأسرة. نظرت كاثي إليها بدهشة ثم قالت هل من الممكن أن تكتبي هذا الذي قلته وترسليه إليّ؟ هذا هو إيميلي، ما قلته مفيد لنا في عملنا.. ابتسم محمّد راضيًا

وفخورًا، زوجته طبيبة وليست زوجة وأمًّا لابنه فقط.

وجاءت كاثي في اليوم الثاني، لتقضي الليلة عندهم، ترتدي تنّورة قصيرة تضيق عند الوركين وتنفلش عند الفخذين. الركبتان والفخذان تلمع بلون البرونز. في قدميها كلاش بكعب عال وأظافرها مطليّة. حين خلعت الكلاش ورفعت قدميها على الكنبة ظهر الاسوداد في أسفلهما.

«لم تكترث أبدًا أن تتفقّد أسفل قدميها قبل أن تستريح في جلستها».

فكّرت فداء، كان عليهم في الطفولة أن يغسلوا أقدامهم قبل النوم، حتى وإن كانوا خارجين للتوّ من الحمّام. ما تفسير نومهم بأقدام شديدة النظافة؟ كانت حين تستيقظ تحسّ أنّ الأرض تزقزق بقدميها الحافيتين. وما زالت فداء تحرص على هذه العادة، تتفقّد أسفل قدميها قبل النوم.

وجدت نفسها تعرض على كاثي تجهيز الحمّام.

ـ حمّامي عادة عندما أستيقظ في الصباح.

أجابت كاثي وهي تفرك جلد رقبتها. يتدلّى شعرها أشقر بخصلات رفيعة، ملامح وجهها واهية ونحيلة وعيناها محمرّتان. تناولت من حقيبتها قنّينة من الويسكي، أمسكتها من عنقها، ثم فردت كفّها أسفلها وقدّمتها مع تسبيل بالعينين.

تناولها محمّد كما يجب أن يفعل بتقدير وشكر بروتوكولي، وراحا يتحدّثان عن القنّينة وتاريخها وماركة صنعها..

جلس محمّد على كنبة قريبة من كاثي حتى صار الاثنان في جهة مقابلة لفداء التي آثرت البقاء على كرسي حرّ تتمكّن من خدمة الضيفة وخدمة صغيرها الذي يركن في كرسيّه الخاصّ. كانت غير راضية عن علاقة زوجها بهذه المرأة، لكن عليها أن تصمت وإلّا سيكون الثمن غاليًا. هل يمكن أن تنسى يوم صفعها بقفا كفّه على وجهها لأنّها اتّهمته بعلاقة مع ممرّضة، وبعد أن ضربها صاح بأعلى صوته: كندرتي وكندرة أبي فوق رأس أبيك.

تمدّدت كاثي الآن. دفعت بقدمها مسند الكنبة، وأخذت بيدها المخدّة الصغيرة واستلقت على جنبها فنبق لحم الثديين من بلوزتها القرميديّة وحمّالة الصدر السوداء. تحدّثت عن عملها في حقوق الإنسان، بدت مطّلعة بشكل كبير على ما يجري في سوريا. كانت تسرد الأخبار والتاريخ بذاكرة مرتّبة، إن أخطأت قليلاً في بعض التفاصيل فأخطاؤها لا تحتاج إلّا لتمتمة من محمّد تعدّل اسم مدينة أو اسم مسؤول أو مكان.

كانت كلماته تضيع أمام فصاحة المرأة الإنكليزيّة. أصغت كاثي لتصحيحاته دون أن تتوقّف عندها، كمن يسجّلها في ذهنه. لم تقطع استرسالها أو تركيزها في ما تطرحه من آراء. بدا محمّد متردّدًا أمامها، تراجعت لغته واكتفى بسرد تفصيلات الظلم الذي يقع في السجون وأنهى حديثه بجملة عامّة، مثل: هناك المئات ممّن تعرّضوا وما زالوا يتعرّضون لهذا التعذيب. راح يتحدّث عن السياط، عدّد أنواع وسائل التعذيب، بالكهرباء، بالكرسي الألماني. هذا غير الصفعات وإطفاء السجائر على الجسد وسكب

الماء البارد وتغطيس الوجه بالماء حدّ الاختناق.. كانت فداء تنظر في زوجها مستغربة كيف يستطيع أن يكرّس كلّ الأمور والظروف في سورية لصالحه، كيف تحوّل إلى معارض في أوروربا، لم تفهم!

كانت مشغولة بمراقبة كاثي، لم تلق بالاً لحديثه، لن يضيّع حديثه عليها، فقد حفظته، والجديد منه ستسمعه في وقت آخر. لم تستسغ فداء اهتمام كاثي بأخبار سوريا، كما لم تحترم سلوك زوجها، كلّ حدث في سوريا يحاول استثماره لصالحه. تمنّت أن يكفّ الاثنان عن الثرثرة، أن يكفّ الاثنان عن وصايتهما الخاصّة على البلد، ولكن، صارحت نفسها، هل حقًّا أصابتها النخوة على البلد، أم أصابتها الغيرة من تلك الإنكليزيّة المتحرّرة؟ ما هذا الذي يتناهبها دائمًا، ولا تستطيع أن تجد مرفأ تثق به، إلّا مرفأ أبيها أو بيت أبيها، وتلك الأيّام التي كانت فيها الآمال تملأ رأسها، زفرت مهزومة.

ذهبت فداء مع زوجها إلى تلك الاجتماعات التي تحدث بين السوريّين، التقت بنساء يتحدّثن بالسياسة وهموم الوطن، يمضين في طرح أفكارهنّ التي تشبه عناوين الفقرات التي كانت تقرأها في كتب الوطنيّة أيّام المدرسة، آراؤهنّ متماثلة عادة وإن تنافرت ظاهريًّا، أو هكذا كانت تراها، يستخدمن كلمات كثيرة ومترادفة والهدف هو الوطن المسكين.. نفرت فداء، علا صوت كاثي تقول شيئًا عن تجربة نلسون مانديلّا.. تغار فداء منها الآن ولا تغار على الوطن.

رنّ الهاتف. وقطع شرودها وتساؤلاتها وغيرتها، كانت سمر تطمئنّ عليها، ثم اتّصلت لينا، بعدها أمّها، توصيها أن تهتمّ بابنها وأن تتّصل بأخيها مخلص. تذكّرت فداء كيف ودّعت رفيقاتها وأخواتها في المطار، خمس نساء يضحكن ضحكات متشابهة ويثرثرن بصوت واحد. لم يدعنها تحمل شيئًا من متاعها، حتى جزدانها الصغير: الأهمّ ما تحملينه أنت في بطنك.

لم تكن قلقة من مجهول. ستعيش في قلب أوروبا، تتعرّف على نمط حياتهم عن قرب، تلد ابنها وتتجوّل في أسواق ستوكهولم. وسوف تبذل كلّ جهدها بعد ذلك كي تكمل اختصاصها، الطبّ النفسي عند الأطفال. بَكَيْنَ حين ودّعنها، كانت تجرّ عربة حقائبها، وتمشي وتلتفت كلّ حين تنظر إلى أخواتها ورفيقاتها وتلوّح بثقة، لم تقبل أن يأتي أبوها إلى المطار أو أمّها، فضّلت أن تمضي من مطار حلب بسهولة ويسر وكأنّها تسافر إلى مدينة قريبة وترجع في الأيّام المقبلة. مضت على بقائها شهور عديدة من دون أن تحقّق شيئًا إلّا ولادة الولد!

نظرت كاثي إلى فداء بحسد وهي تتحدّث وتضحك: من المؤكّد أنّها لو غضبت منك، تجد أحضانًا كثيرة، أمّها وأخواتها، قالت موجّهة حديثها لمحمّد.

لملمت فداء فناجين القهوة. وضعت مناديل الورق أمام كاثي وقالت لمحمّد بصوت هامس: هل أبدأ بإعداد الغداء؟

استدار نحو كاثي وقال ملاطفًا: كاثي.. هل نتغدّى؟

تقلّبت في مكانها وقالت بصوت مدلّل: أشعر بألم في معدتي.

ابتلعت فداء غيظها وسألتها راغبة بتغيير مجرى الحديث عن معدتها: هل تصدّقون كلّ التقارير التي تُرسل إليكم عن الأوضاع الداخليّة في البلاد؟ وتعملون على أساسها؟

أجابتها كاثي، بعد قليل من التفكير: هل تقصدين أنّه يوجد من يرسل تقارير غير صحيحة؟

ـ أقصد ربّما يرسلون تقارير غير دقيقة، يعني معلومات غير مؤكّدة..

أجابت كاثي بصوت رخيم: نحن نتأكّد بوسائلنا.

راحت فداء تغسل الفناجين بعصبيّة. كانت تظنّ أنّ شهادتها في الطبّ ستجعلها تدخل أوروبا من أوسع أبوابها. كم تخجل من أمّيّتها الآن..

ما زالت كاثي تتحدّث وتتحدّث. كان حرف الباء باء والألف ألفًا والتاء مشدّدة تكاد تلفظ سينًا، أمّا باء pen فتخرج بيسر مع نفخة هواء.. قال محمّد مشيرًا بأصابعه إلى شفتيه: كاثي، أنت تخرجين الحروف بطريقة رائعة.

أجابت بابتسامة تواضع: هذا لأنّي خضعت لدورة تدريب مسرحي تعلّمت فيه النطق وأصول الإلقاء.

انصرفت فداء لترتيب المائدة: «يبدو على محمّد الإعجاب الشديد بها، لم أره مرّة مبهورًا بامرأة هكذا. تُرى ما الذي يكنّه لي أنا» كرّرت في داخلها.

نفضت يديها من الماء غاضبة، هجمت ذكرى طارق وماضيها

وحبّها الصامت. استدارت ونظرت في كاثي، جرأتها وثقتها، بينما راحت الأخيرة تقلّب أوراقًا.

نظر محمّد باتّجاه فداء باستغراب، ثم عاود التدقيق في ورقات كاثي. قال: هل يمكن أن تتركيها كي أقرأها على مهل؟

ـ طبعًا. لديّ نسخة منها.

قام محمّد من مكانه وفتح الباب ثم النافذة. ألقى نظرة إلى الطفل الذي يقبع بهدوء في كرسيّه. ابتسم له فابتسم الطفل. أشعل سيجارة وجلس بجانب كاثي يدخّنان. أخذ ينظر إليها مطوّلاً. لديها سحر خاصّ. وقحة كعاهرة ورصينة كمدرّسة في الجامعة، ومثيرة كمراهقة مشاغبة. فداء ليست كذلك.. فداء أمّ حنونة، لكنّ جاذبيّتها واحدة، لا تنوّع فيها. كما أنّ خجلها في الجنس يضجر، حين وصل إلى تلك النتيجة ابتسم وقال لزوجته بالعربيّة: حبيبتي، ابدئي بإعداد الغداء.

«يناديني حبيبتي لأنّي حفظت دروسه جيّدًا وتعلّمت كيف ألاطف صديقاته، علّهما يختنقان معًا بدخانهما الذي يلوّث هواء ابني». تمتمت فداء وهي تتّجه إلى الثلّاجة وعيونها على الطفل الغافي في كرسيّه. أحسّت بالحليب يندفع من ثدييها ويبلّل قميصها. نظرت إلى محمّد تستنجد به كي يساعدها في تحضير الطعام ريثما تغيّر ثيابها فوجدته منهمكًا في حديث عن السجون. يقول: كاثي.. حين يضعون قطعة الحلوى للسجين بعد جولة التعذيب الشديد تكون كالجنّة بعد النار..

نادته فداء: محمّد هل تحمّص الجوز ريثما أُغيّر ثيابي؟

أشارت للبلل على صدرها. فقال بإهمال: غير مهمّ..

أكملت عملها وهي تبعد، كلّ حين، التصاقات البلوز عن جسمها.

كانت قد خطّطت أن تعدّ طعامًا سوريًا، فتّة بالفراريج ومقبّلات شاميّة. سلقت الفرّوج منذ الليلة الماضية حتى لا تملأ البيت برائحة الطبخ. بقي عليها أن تطبخ الرزّ وتعدّ خلطة اللبن بالطحينة والثوم والكزبرة.. وتفرم البقدونس وتقلي القلوبات للزينة.

ـ محمّد اسأل كاثي ما الذي ترغب تناوله قبل الغداء.

ـ كاثي.. ويسكي؟

ـ يس.

راحت كاثي تراقب ظهر فداء: إنّ لدى زوجتك جسدًا قويًّا رغم أنّها وَلدت حديثًا، كم عمرها؟ ثم قالت وهي تتأوّه: أنا مريضة لا أستطيع أن أساعد في شيء.

تمدّدت على الكنبة. أنزلت شيّال قميصها، وراحت تنظر باتّجاه محمّد. كان يراقبها بطرف عينه، ابتسمت بإيحاء وهي تتلوّى بكتف عارية، سحبت سيجارة من علبتها. وقالت بصوت منخفض: أُريد أن أكتب عن المرأة وكيف يحسّ بها السجين في السجن؟

كانت كاثي في الثالثة عشرة عندما بدأت تجرّب الحياة، قالت ذلك بعد الكأس الثالثة.

تركت فداء مكانها، أفرغت نفّاضات السجائر.

ـ تذكّرا . . أصبح سيّئة جدًّا حين أسكر . أنت لا تشربين لأنّ دينك يمنعك، أليس كذلك؟ سألت موجّهة حديثها إلى فداء .

صادر محمّد على فداء الجواب: ليس لأنّ دينها يمنعها لكن لأنّها ترضع الصغير .

نظرت كاثي إلى فداء منتظرة جوابها .

عوى كلب الجيران، فقالت فداء متجاهلة حديث المشروب: أتى بوب .

شرح محمّد لكاثي خوف فداء من الكلاب وأضاف خجلاً: هناك يلقّنون كراهية الكلاب منذ الصغر وفداء تخافهم .

هبّت كاثي حافية، متمايلة باتّجاه باب الشقّة، فتحته . كان الكلب كعادته يشمّ العتبة . ركعت تقبّله وتضمّه وتتمرّغ فيه، راح الكلب يتمنّع ويبعدها عنه، كان محمّد يقف خلفها مبتسمًا لخلفيّتها التي انكشفت كاملة إلّا من شريط سروالها الداخلي . قال مداعبًا: هذا البوب الغبي . . لماذا يقاوم قبلاتك؟

قالت وهي تستمرّ في مداعبة الكلب: هذا النوع من الكلاب لطيف جدًّا ووديع .

مازحت صاحب الكلب، ثم دخلت، أغلقت باب الشقّة . ارتمت على الكنبة، وقالت وهي تلامس كأسها بأظافرها مبدية حزنًا: كنت في الثالثة عشرة عندما بدأتُ أجرّب .

جرّبت في صيف في رحلة تخييم دامت ثلاثة أسابيع، جرّبت الجنس .

كان يحدث هذا كلّ يوم في وقت القيلولة تحت شجرة في الغابة القريبة وبجانبها كتابها نفسه، قالت وهي تتذكّر منتشية أو حزينة، في كلّ يوم تغيّر الشجرة وكأنّ فداء سمعتها تقول، تغيّر رفيق التجربة، تستلقي مشمّرة تنّورتها عن ساقين لامعتين تترك لهما الشمس ولوجهها الظلّ. تغمض عينيها وبجانبها الكتاب مفتوحًا على الصفحة الأولى، وحين تسمع صوت أقدام تقترب تفتح جفنيها بتكاسل، فإن أعجبها الولد القادم تبعد الكتاب لتفسح مكانًا بجانبها وتدعوه برموشها. يقترب الولد بلا تردّد مسحورًا بالظلّ والجسد، وحين الأورجازم، تأخذ كتابها وتمضي إلى خيمتها من دون أن تسأله عن اسمه. قبل انتهاء التخييم بيوم، كان القادم أحد المشرفين، اقترب كي يعظها بعد أن عرف بسلوكها. جلس القرفصاء، وقبل أن يبدأ الكلام، رفعت ساقها وأخذت تلتقط بأصابع قدمها شعيرات صدره.

ـ جاء بغاية وعظي وانتهى لاهثًا فوقي، تذكّرت ضاحكة.

في نهاية الرحلة امتلأت كاثي بالتجربة، قالت وأضافت، لكنّ الكتاب ظلّ جديدًا لم أقرأ منه غير العنوان.

كانت تريد أن ترمي عنها مشاكل أمّها وأبيها وأختها التي تدمن على المخدرات. وقالت إنّها تمنّت لو استطاعت أن تأخذ كلّ أشيائها، تحمل سريرها وتمضي إلى أبعد ما يمكن.

سكبت لنفسها كأسًا جديدة، وتابعت..

أحسّت فداء أنّ المرأة تستقوي بحرّيّتها. لكنّها أصغت لها باهتمام. قالت كاثي إنّها درست المسرح والأدب، وتنقّلت كثيرًا

بين مدن إنجلترا لغايات الدراسة أو الحبّ، والهروب من عائلتها. حرصت أمّها بشدّة أن تتزوّج شابًّا إنجليزيًّا وتنجب أطفالاً. لكنّها ظلّت كارهة لكلّ رغبات أهلها. كانت تحاول أن تستفزّهم برفض نصائحهم: لا تتأخّري بالسهر، فتسهر في البار وتأتي سكرانة. اختارت كلّ ما لا يعجبهم. صاحبت الشباب الأجانب.

أتت بشابّ أسود قادم من أفريقيا للدراسة. التقطته من البار وجاءت به إلى غرفتها المزوّدة بباب خارجي. استيقظت أمّها على صوت موائه ومموائها. هرولت بعد أن ظنّت أنّ ابنتها تتعرّض لأذى فوجدت أقدامهما تطلّان من تحت السرير ورأساهما في الطرف الآخر. انسحبت تبكي. وأيقظت زوجها تشتكي ابنتها الطائشة.

في الصباح قالت لها إنّها لا توافق أن تحضر هؤلاء الغرباء إلى بيتها. فأجابتها كاثي وهي تتمطّى: من الغد أبحث لنفسي عن غرفة. أنت تغارين لأنّك لا تعرفين كيف تتمتّعين بالجنس.

تركت أمّها تبكي وعادت ليلاً بصحبة شابّ جديد، أسمر من أصول سودانيّة، استمعت لقصّة الاضطهاد الذي يقع على شعوب تلك المناطق، نامت معه، وفي الصباح قرّرت أنّها ستعمل في مجال حقوق الإنسان، ساعدها على حزم أغراضها ونقلها إلى غرفة استأجرتها في مكان بعيد عن أمّها. ومنذ ذلك اليوم لم ترجع إلى البيت إلّا لزيارتهم، وفي الأعياد فقط.

كانت فخورة باختيارها هذا العمل. في البداية اشتغلت تطوّعًا، ثم تحمّست. كانت تسعد بشدّة حين تساعد لاجئًا على أخذ اللجوء. تشرب ليلة احتفاله بحصوله على الإقامة، تسكر

وترقص، وفي الصباح تودّعه مزهوّة بالخير الذي تقدّمه لشعوب المناطق المقهورة، إنّه واجبها، قالت.

كانت فداء تصغي لسيرة حكاية تلك المرأة، وتتساءل صامتة: أيّ تقارير تعدّها تلك المرأة التي تشرب بهذه الكمّيّة وتمارس الجنس بهذه الحرّيّة! لم تعد تكترث فداء كثيرًا بأنّ المرأة وهي تحكي حكايتها كانت تقوم بحركات استعراض جنسيّة منها ما هو مقصود ومنها ما هو عفو السكر.

في آخر الليل وحين فرغت قنّينة الويسكي، تركت كاثي مكانها، واستلقت على الأرض وسط الصالة وراحت تشرح لهما عن تمارين اليوغا التي تعلّمتها. فتحت ساقيها على آخرهما حتى ظهر شعر عانتها عبر الكيلوت الشريطي الأسود، راحت تحدّق في عيني محمّد الذي بدا أنّه التهب بالسكر أيضًا.

فاض بفداء، تركت الغرفة وذهبت إلى غرفة الولد. أخذت استراحة من سموم الضيق والغيرة، ورجعت، وفي الممرّ وحين نظرت في وجه محمّد بغضب عارم، قال لها ببرود: كوني إنكليزيّة وافعلي مثلها.

في الصباح استيقظوا ليجدوا مائدة الإفطار كما هو مطلوب، أكلت كاثي وشربت الشاي وهي تحاول أن تُضفي على نفسها هيئة جادّة. ولكن هيهات، ذلك اليوم الذي باحت به كاثي، كان عونًا لفداء على اتّخاذ قرارها. أخذت ابنها وتركت البيت لهما وخرجت تمشي في الحدائق تراقب كبار السنّ. دمعت لأنّها لم تقل لأبيها إنّه الشخص الوحيد الذي تحترمه في هذا العالم، وإنّها الآن تشتاق

إليه كثيرًا. وضعت مناديل إضافيّة لتجفّف اندفاق الحليب عن صدرها. ومضت في طريقها غير المحدّد.

حين التقيا في المساء، كان الطفل يتوجّع من بطنه ويبكي بحرقة، لو أنّ أمّها معها، لقالت: لأنّك ترضعينه حليب القهر، أو ترضعينه وأنت غير راضية. راحت تعدّ له بعض الأعشاب المهدّئة، حين سكب محمّد كأسًا من الفودكا ومضى إلى كرسيّه، يقلّب صفحات الإنترنيت، طلبت منه أن يحمل الصغير ريثما تبرّد الشراب، لكنّه أجاب بشفاه باردة، مشغول! ثم أضاف من دون أن يلتفت: عليك أن تكوني مهذّبة مع الضيوف، وعليك أن تقدّري مكانة الناس.

«يبدو أنّ صديقته لم تكن راضية رغم محاولاتي» فكّرت فداء ثم أجابته علنًا: عليك ألّا تحضر هذه النماذج إلى البيت.

نظر إليها مبهورًا وانهال يصرخ بغضب عارم، قال إنّ كلّ النساء أكثر جمالاً منها، وإنّها خالية أنوثة، ومضجرة. شرب الكثير من الفودكا ولم يتوقّف عن الصراخ، اختلط صراخه بصراخ الولد. حاولت فداء الهروب من وجهه حاملة الصغير كي تجنّبه غضب أبيه، لكنّه لحق بها وتابع صراخه وهو يدفعها بقبضته. بكاء الطفل فطر قلبها، وزادتها نخزات أبيه في ظهرها إحساسًا بالمهانة والذلّ، التفتت إليه تطلب أن يكفّ عن الصراخ: الطفل لا ذنب له. لكنّه استمرّ يصرخ بعنف وينخزها بقبضته، حركة تحقير حفرت عميقًا.. تراءت لفداء سنواتها معه، سفرها معه، لم تعثر على نقطة مضيئة في علاقتها، لم تعنه بشيء ولم يعنها يومًا، لم تشعر يومًا بأنّ لهما

هدفًا واحدًا أو بيتًا واحدًا، وعلى الأغلب كانت الأيّام تمضي ترضية له ولمشاريعه، حملها وجوعها، ولادتها ووحدتها، ورأت أنّ ابنها يدفع الآن أيضًا ثمن اختيارها أباه. كانت السنوات وبدقائق قليلة تكرّ كريهة ثقيلة أمام عينيها، وهو يستمرّ في صراخه ونخزه لها بين كتفيها، وابنها يستفزّها أكثر ببكائه. التفتت فجأة ونظرت في وجه محمّد مشيرة للطفل بين يديها، ينتفض وجعًا وبكاء، ولكنّ الأب لم ير وجه الرضيع، سألته: ألهذه الدرجة أنت منفعل على خاطر صديقتك الإنكليزيّة؟ دفعها بعنف أمامه، وجدت نفسها ومن نقمتها، تمسك هاتفها وتتّصل بالبوليس، حين أجاب الطرف الآخر، قالت بهستيريا وقبل أن تعلن عن اسمها: زوجي يصرخ بشدّة لأنّه شرب الكثير وأنا أخشى على صغيري. أعطت اسمها وعنوان بيتهم وقالت إنّها تنتظر قدومهم.

وهكذا انتقمت.

صمت محمّد مرّة واحدة، وهرب إلى النافذة ينتظر، أخذت الصغير إلى غرفة النوم، أغلقت الباب وأقفلته، هدأ الصغير وراح يتناول شرابه آمنًا بين يدي أمّه المرتعدتين: «ما هذا الذي فعلتُه»؟

أغمض الصغير عينيه. وضعته في سريره، فتحت الباب وخرجت، كان محمّد ينتظر عند النافذة، نظرت إلى رأسه من الخلف، غامت الدنيا أمامها، مات أبوها، لكن، كم كان سيغضب لو عرف باتّصالها بالبوليس، المشكلات لا تُحلّ هكذا. في لحظات الانتظار هذه، وليلة كاثي تلك، استيقظت فداء على مستقبلها ومستقبل ابنها، واتّخذت قرارها النهائي.

وقفت عند نافذة الباب الخارجي، وحين رأت عناصر البوليس تترجّل من السيّارة مدجّجة الخصور، لا بدّ للذاكرة أن تعمل، «سيّارات عسكريّة وعناصر مسلّحة أتت كثيرًا إلى بيتهم في حماة». ركضت، فتحت الباب الخارجي وسارعت تمنعهم من الدخول أو مقابلة أبي ابنها: أعتذر، وظلّت تردّدها مرّات عديدة. سألها أحدهم بلطف: هل آذاك زوجك؟ هل آذى ابنك؟ كانت تجيب بكلمة واحدة هي: أعتذر منكم كثيرًا، لم يؤذني، أنا متعبة، وابني مريض ولم أحتمل، كان مجرّد نقاش حادّ بيننا، لم يستدع الأمر الاتّصال بكم، أنا آسفة أنّي تسرّعت. كانت ترجو فقط أن يمشوا سريعًا، أن يمضوا سريعًا ويتلاشوا، حاول أحدهم تهدئتها، وقال وهو يضع كفّه على كتفها: نحن نعمل من أجل راحة الناس، وأنت استدعيتنا لأنّك كنت خائفة على ابنك، وأنت الآن بحال أفضل، وسوف نمضي. أكّد أنّهم سوف يمضون، كانت تهزّ برأسها إشارة نعم، امضوا. ما إن غابت السيّارة حتى دخلت، وأغلقت الباب. أغمضت عينيها غير مصدّقة ما حدث، وانهال محمّد بسخرية واستعراض:

ـ صرفتهم خوفًا من أن يسجّلوا عليك بلاغًا كاذبًا، زوجي يشرب!

راح يعلّق باستهزاء. ورغم أنّ هذه عادته وتعرفه، لكنّها لأوّل مرّة أحسّت بأنّه يتحدّث معها بعنجهيّة أقلّ أو لأوّل مرّة يتعامل معها ندًّا له. نامت فداء ليلتها كاملة، واستيقظت لتجد ابنها يضحك ويثرثر بأحرف عديدة.

أدارت المسجّلة بجانبها وأتاها صوت فيروز: وعشنا أنا وإيّاك يا قمر.

شربت قهوتها، واتّصلت بمسؤولة الشؤون الاجتماعيّة لقضيّة اللجوء، طلبت موعدًا ثم أخذت الولد وخرجت. وصارت كلّ يوم تخرج في الصباح ولا ترجع إلّا في المساء، منهكة ومتعبة من الجلوس في الحدائق والمكتبات، تأكل من حقيبتها، خبزًا وبسكويتًا وتشرب ماءً وترضع الولد ما تيسّر من حليبها.

وحين جاء موعدها مع المسؤولة الاجتماعيّة، سجّلت على ورقة صغيرة ما تودّ طرحه معها: أريد أن أعيش بمفردي مع ابني..

هل ضربك زوجك؟ هل آذاك؟ هل آذى ابنك؟ كانت فداء تكتفي بتحريك رأسها علامة النفي، والمسؤولة تحرّضها على البوح، لتجربتها مع الزوجات القادمات من تلك البلاد، هل يصرخ كثيرًا؟ هل يهينك؟ يشتمك؟ يمنع عنك مصروف البيت؟ كانت فداء تشير بعلامة النفي، وهي تستعرض زواجها معه، وجدت أنّه فعل كلّ هذا معها، ولكنّها استمرّت في النفي، فما كان من المسؤولة إلّا أن قالت بتوتّر، ولكن إن لم يفعل هذا معك، لا أستطيع أن أساعدك لكي تسكني في بيت النساء المعنّفات، ينصّ القانون أنّ الحماية تكون للنساء اللواتي يتعرّضن للتعنيف والإرهاب من أزواجهنّ. هناك الكثيرات ينتظرن في الدور.

أنهت جملتها فجأة ووقفت، مدّت يدها تسلّم على فداء بتهذيب، وتشير إلى أنّ مدّة الزيارة انتهت.

* * *

أبلغت محمّد قرارها النهائي بالانفصال، صُدِم، إذ يرى فداء واضحة وصارمة، يعرفها تبحث عن الاستقرار الأسري، ويعتقد أنّ أهلها متشدّدون بشأن الطلاق، ويعتقد أنّها لا تجرؤ عليه، لكنّه أيضًا يعرف أنّها تزوّجته لأنّه الفرصة التي وجدت في ذلك الحين، ولم تحبّه. كان بسرعته وتسرّعه يجعل الوقت يمضي ويؤجّل حلّ الخلافات. وحين قدم إلى أوروبا تغيّرت طبيعته وتحوّل من كواليس المشفيات إلى كواليس السياسة، اتّصالات ونشاطات، هستيريا لم تفهم فداء رأسًا لها من قدم، لكنّه كان بارعًا بتمرير ما يهمّه وتأجيل ما يعيق هدفه، لم يعد يهتمّ بأن يخضعها، عادته في سوريا، كان يمضي إلى أموره بتجاهل تامّ لوجودها، كأنّهما مقيمان إقامة إجباريّة، أصبحت العلاقة عدائيّة ساكنة ومشحونة كديناميت. يتبادلان مشاعر الضيق والضجر والكراهية في أحيان. قلقت فداء بشأن الولد، لا تريد له أن يرصد هذا بين أبويه، لا يمكنها الاستمرار هكذا كلّ العمر، فكّرت.

أبلغته قرار الانفصال، وذهبت إلى غرفة النوم تقرأ في كتاب

عن الطبّ النفسي عند الأطفال. ترغب الآن بالاستقلال بسكنها، غرفة صغيرة مع ابنها أينما كان.. كيف؟ وهي تعرف أزمة السكن في ستوكهولم. جرّبت، تناولت هاتفها واتّصلت بأحد السوريّين من معارفهم، سألته عن إمكانيّة تأمين سكن لها ولابنها، أخبرته أنّها ومحمّد سينفصلان، وأنّها تحتاج مساعدته لاستئجار غرفة صغيرة. كأنّها نطقت كفرًا، فوجئت بردّ الرجل، ردّ ساخرًا: وهل تظنّين أنّ العثور على سكن أمر سهل؟ وهل تظنّين أنّ أحدنا لديه الوقت لهذا؟ أغلقت السماعة وقد كادت أن تبكي. اتّصلت بزوجة أحد معارف محمّد أيضًا، كانوا يلتقون بهم كلّ نهاية أسبوع، يعرفون البلد جيّدًا، إقامتهم فيها تجاوزت العشرين عامًا، لديهم أقارب كثر وأملت فداء أن تجد استجابة عندهم، لكن ردّ الزوجة أيضًا كان يشبه ردّ الأوّل، بالإضافة إلى فضول لئيم لمعرفة سبب خلاف الأزواج.

أغلقت الهاتف وقد عزمت بشدّة أن تشقّ طريقها بمفردها.

أسابيع طويلة، تفتّش عبر صفحات الإنترنيت عن فرصة استئجار غرفة لها ولابنها، عبثًا، سمعت عن أزمة السكن في ستوكهولم، ولكن لم تتخيّل أن تكون بهذا التعقيد، تدخل إلى صفحة متخصّصة في عرض وطلب شقق للإيجار، وتقرأ رجاءات الناس لاستئجار غرفة، يكتب أحدهم: أبحث عن غرفة واحدة، لا أدخّن، لا أشرب وليس لديّ حيوان بيتي، اجتماعي ولكن لا أستقبل الأصدقاء في البيت، كانت تحسّ أنّ صاحب الطلب سيضيف بعد قليل أنّه لا يبوّل ولا يتبرّز..

حاولت أن تصيغ الطلب بعبارات مختصرة ومفيدة وبكلمات تعبّر بطريقة أهل البلد، ولكن لم ينفع.

مضت شهور، نالا اللجوء السياسي والإقامة، وفداء لا همّ لها، والولد بين يديها، إلّا الاتّصال هنا وهناك وكتابة الرسائل والطلبات من أجل ترتيب إقامتها في سكن مستقلّ. كان محمّد يراقبها تهيّئ انتقالها وترتّب أوضاعها بغضّ النظر عن وجوده، لم يصدّق، افترض أنّها حركات نسوان واحتجاجات نسوان.. إلى أن قرأ الرسالة التي هبطت عبر شقّ الباب إلى العتبة والتي تتضمّن إبلاغ فداء أخيرًا فرصتها بالحصول على سكن مستقلّ، صُدم، لا يمكنه منعها، إنّهما في أوروبا، وهي حرّة تمامًا باختيار طريقها.

راحت تلملم أشياءها، وهو يجلس مراقبًا لها، قال حين أوشكت على الانتهاء: عليك أن تفكّري مليًّا بما تفعلينه، لا رجعة لك إن خرجت.

نظرت في عينيه، كم كرهته!

لم يرحها أن تسكن في ما يُسمّى بالبيت الأوتيل، تلك المساكن التي تعطيها بلديّات المناطق للعائلات التي لديها أطفال وليس لديها مأوى، ما يطلق عليه باللغة العامّيّة، بيت المشرّدين، لكنّها رضيت على نفسها الوقوف في صفّ المشرّدين. تنوي بقوّة أن تبدأ دراستها وتبدأ حياتها وتنهي زواجًا مذلًّا.

سريعًا سريعًا رتّبت أشياءها. غرفة صغيرة لها ولابنها. طلبت المساعدة الاجتماعيّة الشهريّة، حصلت عليها لأنّها أصبحت مستقلّة عن زوجها، مساعدة تُمنح لمن يبتدئ حياة جديدة ويدرس اللغة إلى

أن يعثر على عمل. كانت تتناولها وهي تغمض عينيها، ضيقًا وخجلاً، وتنوي كسر كلّ ما يعترضها أمام اللغة والبحث عن عمل.

تفكّر قبل النوم بالنهار الذي مضى. وتنوي بكلّ طاقتها أن تبذل جهدها لمواجهة البلد الجديد والحياة الجديدة، تنام حين ينام الطفل، تستلقي بجانبه تتأمّل ملامح وجهه، وتتذكّر أباها وبيتهم بحزن، ثم.. تزفر في وجه حزنها والحنين، يجب أن تدرس وتتعلّم، يجب أن تنفّذ وتستقلّ سريعًا. كانت عجرفة كاثي في تلك الليلة، تملؤها غضبًا، رقيّ البلد وجدّيّة ورفاه الناس أيضًا يغضبانها، والغضب غامض الأسباب. اشتاقت أن تحدّث أباها عن هذا، هيهات، إنّه تحت التراب، والفصل شتاء. لم تخبر أحدًا من أهلها بقرار انفصالها، لا أخاها أيمن وزوجته، ولا أخواتها وأزواجهنّ، ولا أمّها، ولا أخاها مخلص، كلّهم، فكّرت ليس مهمًّا إخبارهم بعد الآن.

نظرت إلى شجرة تطلّ عبر نافذة الغرفة، ربّما تعثر على الأصدقاء، أصدقائها هي وليس أصدقاء زواجها، ألغت من هاتفها كلّ الأرقام التي كانت تعرفها مع زوجها، وألغت من رأسها أيضًا عناوينهم وأسماءهم، لم تشعر بانتماء إليهم، ولم تشعر بأنّها وهم أهل بلد واحد. هي الآن تنتمي لنفسها وواقعها. اشترت مفكّرة ثخينة، حرصت على انتقائها لترتّب عليها برنامجها، لليوم التالي، للأسبوع، للشهر، وللفصل، وللعام كاملاً، لن تضيّع وقتًا.

* * *

همّة فداء، ونشاطها وعزيمتها بألّا تضيّع وقتًا لم تفدها كثيرًا في البلد البيروقراطي. شهور عديدة وطويلة قضتها تعتني بابنها وتنتظر الدور في كلّ أمر، روضة الولد، مدرسة اللغة، وغيرها. صارت الجملة التي يستخدمها المسؤولون: من فضلك انتظر.. تصيبها بالقهر والغيظ، تكرهها، تمقتها، تستفزّها، ما هو هذا العدل الذي يبطئ الحياة هكذا ويجعل الوقت قاتلاً هكذا؟

يمضي الوقت سريعًا وبطيئًا في آن، يستيقظ الولد باكرًا، تطعمه وتخرج معه ليلعب في حديقة قريبة، تتسوّق ما تحتاجه ليومها وترجع إلى البيت، كانت المساعدة الاجتماعيّة وتعويض الأمومة يكفي ويزيد، لا تحتاج الكثير، فلا تصرف الكثير، ليس مهمًّا أن تشتري الثياب الجديدة أو تفرش بيتها فرشًا جديدًا، كانت تهتمّ بأن تشرب كلّ يوم العصير وتأكل الخضار بكثرة، تعدّ جاطًا من السلطة أو التبّولة. تعصر الليمون على البرغل الناعم مع البقدونس الكثيف وتدلق زيت الزيتون وتملأ ملعقتها، وتلتذّ بتلك اللحظة التي يركن الحامض والملح مع الزيت في زاوية الحنك، طعم ورائحة تأخذها

إلى هناك، تلك الزاوية، أخواتها يشاغبن ليلة امتحانها. . تشهق من شوقها والحنين. كالخروف تأكل كلّ يوم الكثير من الخضار، وكالخروف تغدو حزينة. .

تنفض رأسها كي لا تستسلم للحنين: هذا أمر مضرّ! تقوم من الضجر بلملمة فوارغ العلب البلاستيكيّة والمعدنيّة والجرائد والبطّاريّات واللمبات المحترقة وتذهب بها بعربة الصغير كي ترميها في الحاويات المخصّصة لكلّ صنف من الفوارغ، مواطنة صالحة تساهم في الحفاظ على البيئة، تفكّر بسلوكها ساخرة، لكنّها تفعل هذا مثل مواطن سويدي.

تمضي عبر المساحات الكبيرة الخضراء والنظيفة وترنو إلى المياه الوافرة العذبة، وإلى الأطفال السعداء الأقوياء، يمضون إلى مستقبلهم واثقين مطمئنّين، أطفال جميلون يبعثون على التفاؤل، ولكنّها بلا إرادة تشعر بضيق حين ترى ثمن لعبة الولد يعادل راتب جارهم في حماة أبو التسع عيال. . لا. . هذا تفكير مضرّ أيضًا!

تدرك أنّ مفهوم العدل مبكر جدًّا على البشريّة، ولكن لم لا تكفّ الذاكرة عن التوقّف هناك عند طرف البحرة، بجانب أبيها تسمع أمّ كلثوم تغنّي، القلب يعشق كلّ جميل، وصوت أبيها يعدها بالشقّة الصغيرة في حلب، وبالعيادة التي تنتظرها حين التخرّج؟ تداهمها رائحة البطّيخ الأحمر من بين يدي أمّها وهي تقترب لتغسل الذراعين من ماء البحرة وصخب أخواتها، لو يرجع العمر ويبدأ من هناك!

تمشّط شعرها على عجل، وتمضي مع الولد بعربته، تذهب

إلى مكتبة المدينة وتستعير الكتب وتقرأ، تقرأ وتزور الموتى الغرباء، تذهب إلى مقبرة المنطقة، مشوار يومي تقوم به، تتأمّل في القبور وهدوئها وتفكّر بأنّ الحياة ليست صعبة وأنّ الموت أمر سهل. تشعر بالشجاعة حين تتنزّه بين القبور، القبور المتفاوتة، منها الفخم ومنها الفقير. القبور الفخمة على جانبي الطريق بشواهد ضخمة وزينة وشموع وورود، أمّا متوسّطة الحال فتتدنّى بزينة أحيائها لأمواتهم، ثم تأتي الفقيرة وهي كثيرة العدد، وكانت فداء ترتاح بين هذه بالذات لأنّها كانت تحمل بينها حكايات، وتأتي محاولات تزيينها فرديّة، وتستطيع أن تعرف الميّت الغالي من الميّت المنسي. الميّت الغالي والمحزون عليه تراه مدلّلاً بالورد البرّي وبعض الأشكال الخزفيّة، شجيرات، دجاجات، خرفان، ملائكة.. زينة من الفخّار تراها وكأنّها زينة طفل.

يهدأ ابنها ويرتاح معها في مشوارها اليومي، تتذكّر أباها وتفترض أنّه الآن بين هؤلاء وأنّها تحادثه. يؤلمها أنّها لم تقدّم له شيئًا. تمنّت لو رجعت إلى سوريا مع صغيرها ورأت أباها، ويرى حفيده، تمنّت لو أنّها قدّمت له الهديّة التي انتقتها له، مجموعة من الجوارب بالألوان التي يحبّها، الرمادي والفضّي والأخضر، لا تذكر أنّها قدّمت لأبيها شيئًا، لم تهدِ أباها هديّة واحدة بعمرها، هو من كان يهديها ويعطيها. تنهمر الدموع..

وتأتي ذكرى غادة، كلّما رأت قبر صبيّة. يداهمها إحساس بالفقدان والأسف، فرّت الصبيّة من بين أيديهم سريعًا قبل أن ينتبهوا.. تنفض فداء رأسها وتستعجل دافعة عربة الولد إلى الأمام فقط.

ويمضي اليوم، إطعام الصغير، تسلية الصغير، تنظيف البيت حول الصغير. تعلّقت به وتعلّق بها، تعلّم قول اسمها من دون ماما، ولم يتعلّم قول اسمه، يتشمّمها حين يستيقظ كجرو، وحين تقف لتجلي الصحون، يقف وراءها ويتشمّمها، ويحلو له، حين يراها تضع معجون الأسنان على فرشاتها أن ينزل سرواله ويجلس على التواليت ويتبرّز، معها ومعه في كلّ حركة وسكنة، ينام وآخر وجه يراه وجه أمّه، ويستيقظ وأوّل وجه يراه وجه أمّه، وهي تتأمّل وتتنعّم بذاك الطابع المغروز في ذقنه، كم يشبه أمّها، يغوص القلب، لا.. ممنوع أن تفكّر بألّا أمل لها بالرجعة أو بزيارة البلد.

وبقدر ما تعلّقت فداء بصغيرها وتعلّق بها، بقدر ما أتعبها وأتعبته. لا تستطيع، حين تبدأ بقراءة كتاب، أن تكمله، أو أن تستحمّ وتكمل حمّامها، أن تشاهد فيلمًا بلا انقطاع، أو تتناول وجبة طعامها، أو تنام كامل ليلها، أو تتأمّل في منظر طبيعي..

يأتي محمّد لزيارة الصغير في فترات متباعدة، يأتي كضيف، زيارة قصيرة تسلّي الصغير وتخفّف من بقايا إحساس بالذنب من قبل أبيه، يلاعبه بتكلّف تشعر به فداء وهي تعدّ له كأس شايه، وكثيرًا ما اعتذر عن شربه، بلطف مفتعل. تتمنّى لو أنّه يلتقي الولد من دونها، أن يلتقي ابنه من دون أن تلتقيه. لكنّه دائمًا يزورهما كضيف ويمضي.



اقترب عمر الطفل من الثالثة، لا ينطق كلامه إلّا صراخًا، حصل على مكان في روضة قريبة من بيتها، وصار بإمكان فداء البدء..

ورغم أنّ كلّ من في صفّ تعليم اللغة يفهم اللغة ويتحدّثها وإن كانت تكسيرًا، إلّا أنّ المعلّمة مصرّة على إتقان القواعد، تتشدّد وهي واثقة بأنّ طلّابها الغاضبون الآن من تشدّدها سيلهجون يومًا بشكرها. كانت تهتمّ بفداء بشكل خاصّ.

ستّ عشرة دقيقة استراحة، قالت المعلّمة وهي تلملم أوراقها، لم تترك فداء مقعدها، فتحت كتابها وراحت تنظر فيه، يعدّون كتب اللغة تمامًا كما لو أنّ الدارس طفل، يعتنون أوّلاً بأهمّيّة التواصل، يهتمّون بذهنيّة القادم وضرورة تأهيله أكثر من اهتمامهم بحشر اللغة في رأسه كألفاظ، الدروس عبارة عن مقالات كتبها أجانب يتحدّثون عن تجربة الدخول إلى أوروبا، صعوبة التواصل وصعوبة قبول الأوروبي للقادم الجديد، الشعور

بقلّة الشأن، توزيع الابتسامات البلهاء، والاعتذار طوال الوقت عن جهلهم باللغة والتعهّد بتعلّمها، الوعد بالاندماج وخدمة البلد كما لو أنّه بلده، يعطون الوعد وهم جميعًا على وشك البكاء. كانت فداء تتأمّل في هذا كلّه وتراجع نفسها خلال هذه السنوات في ستوكهولم، متسائلة إلى أيّ حدّ يريدوننا أن نتعلّم ونندمج، إلى حدّ التلاشي؟ وهل هي قابلة لهذا؟ ولماذا تحسّ بإباء تجاه ذلك؟ أهو الاشتياق إلى بيت أهلها، أبيها وأمّها وأمانهم، أم هو الاعتداد بلغتها، أو بقوميّتها؟ صدمتها كلمة القوميّة، ولكنّها واجهت نفسها، ها هم بسعيهم لمساعدة القادم الجديد يعبّرون عن اعتزازهم بحضارتهم، بلغتهم، ببلدهم، أي بقوميّتهم.. تساؤلات عديدة وهي تسعى جاهدة للسيطرة على تلك المرحلة المنهكة، مرحلة الدخول والتي تُسمّى بلغة الدولة، فترة التأهيل..

قطعت شرودها امرأةٌ تجلس بجانبها: اسمي هلغا من البيرو.

سمراء بعينين واسعتين ووجه جادّ، عرّفت عن نفسها ودخلت حديثًا طويلاً عن الرواية في أميركا اللاتينيّة، ممّا جذب فداء للحديث، كان الكثير من كتب أبو ريمة التي قرأتها من أدب أميركا اللاتينيّة.

ذهبتا معًا إلى الكافيتريا، حاولت فداء أن تدعو هلغا إلى القهوة، لكنّ المرأة اتّجهت إلى الصندوق واشترت لنفسها ما تريد، وقالت لفداء: نحن في أوروبا، كلّ يهتمّ بنفسه عن نفسه، اختاري لك ما تريدين.

ـ أوكي.

ـ ماذا تفعلين بقيّة الوقت؟ سألت هلغا.

ـ منذ أن ولدت ابني أنام وقت ينام هو. أجابت فداء ضاحكة.

صاحت هلغا: ماذا؟ منذ متى لم تمارسي الحبّ؟

فوجئت فداء بسؤالها، صمتت، أحسّت بحزن. اعتذرت هلغا.

ـ منذ أتيت إلى هذه البلاد. قالت فداء.

ـ أو ربّما لم تفعلي ذلك بعمرك كلّه.

أجابت فداء ضاحكة: لكنّ لديّ ولدًا.

ردّت هلغا: ولذلك أقول يبدو أنّك لم تفعلي ذلك بعمرك. ماذا تفعلين ليلاً؟

ـ أدرس قليلاً، أقرأ، أستمع إلى الراديو.

أصدرت هلغا صوتًا مستنكرًا: ماذا؟ اسمعي، تعمل أختي الصغرى جليسة أطفال بأجر رخيص، تتولّى أمر ابنك، ونذهب اليوم سويّة إلى بار قريب.

تعيش هلغا مع صديقها السويدي، تعرّفت عليه في أميركا، انتقلا إلى ستوكهولم، ويعيشان معًا منذ سنتين. سألتها فداء عن أفق العلاقة ولم لا يتزوّجان، لوت هلغا شفتيها: ولِمَ نتزوّج؟

كانت هلغا حازمة في مرافقة فداء إلى البار. استساغت فداء ذلك، نظرت في صورة غلاف كتاب اللغة، وأحسّت أنّ دعوة هلغا للسهر ستكون طريقتها لفهم هذا العالم، وربّما تعينها على تفكيك هذه الوحدة التي تعيشها منذ أن سكنت وحدها. كما تحقّق أمنيتها بأن ترى ستوكهولم ليلاً وترى الناس حين يشربون وما تسمعه عنهم. تراهم نهارًا طامرين وجوههم في كتابهم لا يرغبون بتبادل النظرات. كان ما يثير استغرابها وفضولها هو رغبة السويديّين دائمًا بالعزلة. حين يركبون القطار، يختار كلّ منهم مقعدًا بعيدًا عن الآخرين، وحين يجلس يضع رأسه في كتاب أو جريدة أو يثبت سمّاعة على أذنه ويغمض عينيه كي لا يرى أحدًا، وإن لم يقرأ أو يسمع الموسيقى فإنّه يدير وجهه إلى النافذة غير راغب بالنظر بمن أمامه أو بمن بجانبه.

أطعمت الصغير وهيّأته للفتاة التي أتت لتعتني به. فتحت فداء خزانتها كي تنتقي ثيابها، لم تجد ما يناسب، كانت كلّها تلائم أمًّا تعتني بابنها، ثيابًا عمليّة لا تناسب الخروج ليلاً. اتّصلت بهلغا تسألها عمّا ترتدي، وأضافت أنّه لا يوجد لديها حذاء رسمي، ضحكت منها كثيرًا وقالت، أيّ جينز وأيّ خفافة.

ودّعت فداء الصغير قلقة بعض الشيء وخرجت.

وقفت عند باب البار متردّدة، لم تمهلها هلغا، سحبتها إلى الداخل، أضواء خافتة ورؤوس كثيرة وبخار كثيف في الجوّ، اختارت هلغا شرابًا، يتكوّن من عصير البندورة مع قليل من الجن، وطلبت فداء مثله واستساغته.

ـ انظري في عيون محدّثك، العين هي التي ترتكب الحبّ أوّلاً وهي التي تمهّد الطريق للجسد، قولي للرجل، أنت تعجبني، ولم لا؟ لم يقولونها هم لنا؟

كانت هلغا تنصح، وفداء تتضاحك وتؤكّد وتعيد أنّها غير موهوبة على الإطلاق، وأنّها أصلاً لا تجرؤ.

ـ كلّه بالتدريب، فقط، ابتسمي!

قالت هلغا واستدارت تثرثر بالإسبانيّة مع صديقة لها. نظرت فداء حولها، لم تجد وجهًا قريبًا أو وجهًا يعنيها، كانوا يشربون ويرقصون في مساحة ضيّقة جدًّا، ويبدو أنّ كلًّا منهم لا يعرف عن الآخرين شيئًا ولا حتى أسماءهم. كانوا يبدون في طريقة الشرب والرقص كمن يهرب من ذاته إلى لا شيء، لا يوجد أصلاً من يتلقّفه، أو من هو مستعدّ لتلقّفه.

تقدّم شابّ من هلغا، قال لها: أنت السمراء، من أين أتيت؟ صرفته هلغا، لا وقت لديها.

علّقت فداء ضاحكة: أرأيت؟ إنّه تقدّم إليك ولم يتقدّم إليّ.

وبّختها هلغا: هل ينطلي عليّ غرورك؟ تقفين كطالبة قادمة لحضور محاضرة.

وضعت هلغا أصابعها أعلى رأسها وتمايلت بحركة رقص إسباني، وقالت منبّهة: تمايلي، اضحكي، كوني مستعدّة، كوني موافقة..

رجعت فداء من البار، تضحك تارة من نصائح صديقتها الجديدة، وتحزن تارة على سنوات عمرها وتلك التربية المتشدّدة التي تلقّتها ويبدو أنّها لن تتحرّر منها. ليس من السهل فهم ذاتها وميولها وفهم هذا المجتمع وحرّيّته، ولا يمكنها أن تمضي إلى أمر من دون مفهوم واضح عنه، تعرف أنّها لم تُقمع في بيت أبيها، وكانت لها الكلمة الأولى في تقرير مصيرها، ولكنّ الخجل مزروع ومتأصّل في الجسد خاصّتها وفي جسد الآخر. كانت تتمنّى أن تحبّ وأن تُحَبّ، أن تجد الشريك الذي تنسجم معه جسدًا وطمأنينة، صديقًا شريفًا وحبيبًا رقيقًا.. حلمت بحسرة، ونظرت حولها. كانت أمامها في القطار امرأة أنيقة بملامح سويديّة، شقراء بعينين زرقاوين وأصابع نحيلة.. تجلس مع شابّ أسود تبدو عليه آثار سنوات جوع طويلة، شعره ملموم ضمن طاقيّة كبيرة وعظام أصابع كفّيه شديدة النتوء. تتحدّث الفتاة إليه وتميل عليه، يبدو عليهما الانسجام، والمرأة البيضاء سعيدة بصاحبها الأسود، تضاحكت وتمايلت، قبّلها وقبّلته، داعبها وداعبته، واستمرّا على الحال نفسه طوال الطريق، وفجأة وقبل أن تصل المرأة إلى محطّتها، نهضت تعدّ نفسها للنزول من القطار، وقبل أن تغادر، قبّلت صاحبها، وسألته عن اسمه ورقم هاتفه!

تحاول فداء فهم هذه السهولة في شبك العلاقات، شبك الجنسين بعضهما ببعض، تارة تراها عافية نفسيّة خالصة من العقد الإنسانيّة، وتارة تراها حالة شديدة التعقيد، تحدث نتيجة الخوف أو الكره أو الوحدة. رجعت فداء، وقد أشبعت فضولها برؤية ستوكهولم ليلاً.

وجدت الولد نائمًا، أعطت للجليسة أجرها، وشكرتها، قالت لها البنت إنّه يسعدها أن تعمل لديها دائمًا، بيبي سيتر. ودّعتها. لن تحتاجها لأنّها لا تريد هذه السهرات.

جلست أمام الكمبيوتر، لم تواجه يومًا نفسها بحاجاتها وشهواتها، تفهم أنّ الشهوات لا تنفصل عن المرفأ وأنّه بدون مرفأ لا توجد متعة حقيقيّة، قضت عمرها كلّه تبحث عن مرفأ، في الدراسة، في العمل، مع الأسرة، والآن طفلها، عبثًا..

فتحت خزانتها الصغيرة حيث أودعت ألبومات صورها، جلبت معها من سوريا صورها مع رفاق الجامعة وصور أسرتها. ألبوم صور الجامعة بغلاف قرميدي، اشترته من بائع أشياء مستعملة في منطقة الجديدة في حلب. كم اشتاقت لتلك الحارات الضيّقة. كان آخر يوم لها مع أصدقائها الأوائل، تسكّعوا معًا في «الجديدة». أكلوا الفول وتضاحكوا طويلاً. كان طارق يتجنّب وداع فداء، وكانت رغم حزنها على سفره ودراسته في دمشق، تؤمّل نفسها بأنّه سيرجع يومًا ويرتبطان معًا، صورتها تنظر في وجه طارق، أحبّته واشتهته، وأهدته كلّ أغنيات أمّ كلثوم، والشابّ لا يدري أو يدري ولا يرغب. في الصورة، يشرب الشابّ قهوته ويضحك ناظرًا في البعيد.

تركت ألبوم الجامعة وراحت تقلّب في صور أسرتها، صورة أبيها يحتضنها وعيناه تلتمعان فرحًا بالنتيجة التي حصلت عليها في الثانويّة، كم أحزنتها أحلام الرجل، لم تلحق أن تفتح العيادة المأمول بها، لم تلحق أن تحقّق حلمه وحلمها بيوم مخصّص

للمرضى المحتاجين وببرنامج يعتني بالأمّهات والأطفال، ها هي الآن وبعد سنين من الدراسة والعمل، تركن شهادة الطبّ السوريّة، ولا أحد يعترف بها، أو يكترث لها، تجلس على مقاعد الصفّ تتعلّم ألف باء اللغة، وتتعلّم كيف تكون مواطنة صالحة في البلد الغريب.

زفرت، لا تريد أن تفكّر كثيرًا هذا المساء، خلعت ثيابها، وارتدت قميصًا قصيرًا، وجلست من وحدتها تغالب أرقها المستديم.

كانت تقلّب في أيّامها وتقلّب بين صفحات الإنترنيت، حين ظهر فجأة أنطوني كوين في رقصة زوربا، صدحت الموسيقى، وانتفض الرجل بصدر عارم ووجه واثق، ببطء راح يرقص، ذراعاه جناحان، وعيناه تطفحان بالفرح ووجنتاه شهيّتان. كادت تطير معه، أُخذت بأداء الرجل، فتحت ذراعيها على آخرهما وراحت تحاول تدبك بقدمها على الإيقاع نفسه، ونجحت ورقصت وحلّقت مع الموسيقى وطربت وأعادت المقطوعة مرّات عديدة، وحين تعبت، اشتهت بمرارة، اشتاقت للحبّ، شهوة المرأة الوحيدة، وبكت صراخًا، بحرقة بكت في تلك الليلة..

أمامها سنوات طويلة من الوحدة. فكّرت وأجبرت نفسها على الصبر، أطفأت المصباح وحاولت أن تنام، من دون جدوى، صعوبات النوم أصيبت بها منذ قدومها إلى البلد الغريب. تركت سريرها ورجعت إلى الكمبيوتر.

حين يهجم ذئب الحنين، تقلّب فداء بين الصفحات وتسمع وتشاهد وتقرأ. تكتب أيّ كلمة تخطر في بالها عن البلد وتبحث وراءها، وتجد العجيب الغريب، المسلّي تارة والمحزن تارة أخرى، وأتتها هذه المرّة رقصة مع غناء شعبي، أبكاها أيضًا من شوقها. كانت المغنّية تقول: نامت عليك الحيطة يا بنت الكلب. المغنّية ترقص بثوب قصير وحولها رجال كثيرون، رجال البلد، فكّرت فداء، كلّ هذه المظاهر والمشاهد التي كانت تستنكرها وتعلن استنكارها، وجدتها لطيفة ومحبّبة، هي تشعر بالحبّ الآن وأنّها ترجو العودة، وألّا ينسوها. بكت من جديد، تخشى أن يهملوها وينسوها.. إن لم يكونوا قد فعلوا ذلك حقًّا. من هم؟ من هؤلاء؟ ومن كان يتذكّرها غير أبيها، والآن هو نائم تحت الأرض في حفرة على قد جسده الضئيل..

أدركت أنّ سبب حزنها وأرقها أنّها تخشى أنّها منسيّة، وأنّ عليها أن تخبر أحدًا عن حالها، أحد يقول لها معك حقّ، تشتاقين، معك حقّ أن ترجعي إلى بلدك وأن تزوري أباك في قبره وأن تزوري كلّيّة الطبّ وتجلسي على مقاعد الجامعة، تمارسين عملك طبيبة أطفال، يمكن أن تعملي الكثير هناك في البلد، تنامين في بيت أهلك آمنة هانئة، تحسّ أنّها تتلاشى هنا وأنّه لا معنى ولا جدوى من المعاناة في بلد لا يحتاجها، يزعجها أنّه لا أحد يحتاجها هنا.

تذكّرت ذاك الناقد السياسي الذي طالما أعجبتها صورته وطريقة حواره في التلفزيون، كان في وجهه ذاك الجدّ الذي تحبّه

في الرجل، وفي عينيه ذكاء مشوب بترفّع، اقتحام ووضوح، يعجبها بصدره المشدود وكتفيه.. تراقب أصابع كفّيه وتنتشي، أصابع رجوليّة ومتناسقة ومعتنًى بها، تشعر أنّها تهذّبت بفعل الكتابة، أو ربّما بفعل مداعبة النساء، نفرت من غيرتها، ووجدت نفسها تكتب له رسالة، تشرح فيها أنّه ما من إمكانيّة لرجعتها إلى سوريا، وأنّها تودّ أن تحيّيه، كتبت بخجل رقم هاتفها في أسفل الرسالة مع صورة وردة.. لم تتوقّع أنّه وفي وقت متأخّر هكذا، وبعد دقائق قليلة يتّصل بها، يقول لها بصوت عميق أحبّته، إنّه يريدْ أن تلتقيه.

تركت الطفل في روضته، مستثقلة أن تسلّم على مشرفته. تحسّ بأنّ هناك مسافة بينها وبين كلّ من يُحيط بها من روضة الولد إلى المسؤولة الاجتماعيّة، إلى كلّ من تضطرّ للقائهم من السويديّين، ما عدا معلّمتها في مدرسة اللغة، هي الوحيدة التي ترتاح لوجودها. فتحت حقيبة يدها، وتناولت مرآتها، لا تكترث لفعل هذا أبدًا، لكنّها الآن تريد أن تتفقّد وجهها، تريد أن تكون بعين الرجل جميلة، ورغم أنّها حاولت أن تغطّي الهالات البنّيّة حول عينيها، إلّا أنّ الإرهاق كان يحفر بعمق، كثرت شعيرات رأسها البيضاء وصار عليها أن تبدأ بصبغ شعرها.

التقيا في كافيتريا نائية، أرسل لها عنوان الكافيتريا عبر الموبايل، وكان شكل إعطائه الموعد، كمن يحتاط أمنيًّا من أمر، فكّرت، هل من الممكن أنّه لا يثق بي؟ ولكن من أين سيثق بي وهو لا يعرفني جيّدًا، امرأة من حماة تعيش بمفردها في

ستوكهولم، وتقول إنّها تخشى العودة إلى البلد، من هي، ما هو حزبها، ما هو معتقدها، ما هو تاريخها؟ لم يسمع لها صوت، ولا رأي، لم تصادف في اجتماع إلّا زوجة صامتة.

تفهم تمامًا ما الذي يتبادر إلى ذهن كلّ من تصادف من السوريّين، وحتى من الأوروبيّين. يتساءل الجميع عن الخلفيّة، وعن المعتقد، وهي لا تملك الجواب، ما تعرفه الآن أنّها أمّ وحيدة ومنفيّة.

جاء متمهّلاً، باسمًا، ارتبكت، منذ زمن طويل لم تلتق أحدًا، ولم يكن لديها أصدقاء، اللهمّ إلّا علاقات سطحيّة، جارة تثرثر معها بشأن الولد والبيت، ليس إلّا، وتعوّض فقرها الاجتماعي بأن تتّصل بأخواتها وأمّها في سوريا. لم يكن بسيطًا لقاؤها مع الرجل. كان يرتدي جينزًا أزرق يضيق قليلاً عند البطن، شعرت بالشهوة. تناولت قهوتها وتحوّلت الجلسة كلّها إلى حديث عن الأوضاع في سوريا والمنطقة، سألته إن كان يتوقّع أن يرجع إلى سوريا! قال بجدّ وبشيء من الكبرياء: طبعًا سأرجع، مجبر من يحتلّ منصب الرئاسة على إصدار عفو عن المنفيّين، مشكلة النظام بعشرات الآلاف من المحسوبين على الإخوان والذين بعددهم هذا يخشاهم النظام. قالها بحزم وبوضوح وبسهولة. اندفعت غصّة في الحلق!

تذكّرت مخلص، لم تعرفه متديّنًا، لم تعرفه ملحدًا، لم تعرف أخاها إلّا معذّبًا طيّبًا ومظلومًا. حبست دمعاتها شربت قهوتها وابتسمت. نسيت شهواتها ورغبات جسدها، حملت حقيبتها

واعتذرت أنّها ستلحق وقت روضة ابنها. قبّلها وودّعها متفهّمًا قلقها.

استعرضت لقاءها، وفهمت أنّ الحبّ بات ترفًا بالنسبة إليها، استكثرته على نفسها. ربّما تبقى العمر كلّه وحيدة.. فكّرت ساخرة وأضافت، هذا إن عشت!

* * *

سنوات في البلد الغريب، وليس من أمل بالاندماج أو الانتماء، رغم تحسّنها السريع في اللغة السويديّة وحصولها على نتائج عالية، إلّا أنّها لا تهتمّ بالإصغاء لنشرة أخبارهم أو قراءة جرائدهم. .

حين جاء خبر تفجير في بلد إسلامي. راحت تراقب عبر التلفزيون المرأة التي شاركت، مرتدية مثل معظم أمّهات المسلمين مانطو سميك القماش وغامق اللون، قيل إنّهم قبضوا عليها قبل أن تفجّر الحزام الملفوف حول بطنها. تبدو المرأة مشوّشة أو مأخوذة وكأنّها لا تدرك شيئًا ممّا حلّ بها وما هو حجم ما كانت مقدمة على فعله، أو أنّها حين دُفعت أو اندفعت لعمل ذلك لم تفكّر بالنتيجة، كأنّ فكرة القبض عليها كانت منفيّة تمامًا، أو أنّها لم تتدرّب على الموقف، كي تظهر وجهًا يخدم قضيّتها، فكّرت فداء. بدت امرأة قليلة الذكاء، كأنّها عاشت عمرها كلّه في مكان ناء، تفعل الفعل نفسه كلّ يوم، ولا تدري شيئًا عمّا يدور في الخارج. ومع ذلك

المظهر الضعيف، فإنّ الوجه الذي ظهرت به حيّر فداء، وذلك البطن الكبير، الذي يشبه بطون معظم الأمّهات، نساء ولدن أولادًا كثيرين وقضين الوقت يطبخن طعامًا لكي يأكل الأولاد ويكبروا، وكلّما زاد الأولاد عددًا، تلاشى خصر الأمّ وزاد البطن انتفاخًا، وكلّما انتفخ البطن أكثر، زاد حجم قدور الطبخ، وهكذا. تهيّأ لفداء أنّ بطن المرأة تحوّل إلى قدر كبيرة أعدّتها وكادت أن تشعل النار حولها حين قبضوا عليها. لم يتدلّ المعطف الذي ارتدته إلى ما تحت الكاحل، بل كان معطفًا قصيرًا وصل ربلة الساق فقط، سهل الحركة والركض.

هل تمنّت لتلك المرأة النجاة؟ سألت نفسها.. تمنّت النجاة لمن ماتوا وهم يحتفلون، وتمنّت النجاة لتلك المرأة. لكنّها خافت من هذه المرأة، خافت حين فكّرت أنّه من الممكن أن تكون أيّ امرأة أخرى وأنّ الآن كثيرات يحلمن بالموت بوهم الشهادة، أو ربّما ليس طمعًا بجنّة خالدة وإنّما خلاصًا من دنيا فانية.

حوّلت على القناة الأولى السويديّة، خبر وتعليق سريع عن التفجير، ثم نقل حيّ لرياضة الهوكي.

تفكّر وتقارن بما تراه هنا وما يحدث هناك! تلك المقارنة التي تعرف أنّها غير مجدية، لكنّها كوسواس تأتيها، أيّ عدل في هذا العالم؟

هربت من تلك الخلاصة.

ما الذي كان يؤمّنه لها أبوها وبيتهم؟ وما الذي كان يجعلها

هامّة بنظر نفسها ونظر من حولها، أخواتها وأمّها وأقاربهم؟ وما الذي حدث هنا في البلد الغريب، حتى يسيطر عليها هذا الشعور بالتلاشي؟

أمامها على الحائط روزنامة بصورة سلحفاة، اعتادت فداء أن تشطب على الأيّام التي مضت واستُخدِمت. نظرت في الأيّام القادمة التي لم تُشطب ولم تُستخدم ونظرت في عروق اليدين، باعدت قبّة القميص تتفقّد عروق الرقبة والصدر، كأنّ الجسد ما زال شابًّا وهو في عقده الخامس، والأيّام القادمة بيضاء وفارغة، وتعرف فداء أنّها ستُشطب على البياض وعلى الفراغ.

راحت تمشي في الشوارع، لا يعنيها شيء ممّا يدور حولها، حين وصلت إلى فسحة خضراء واسعة تنسفح لتصل إلى بحيرة هائلة الجمال، سألت نفسها ببساطة: لِمَ لا تشعر بالسعادة رغم هذا الجمال؟ لِمَ تنفر من أصوات الناس يتحدّثون اللغة السويديّة؟ لِمَ لا يعنيها شيء الآن؟ لِمَ لا تريد صداقة عابرة كصداقة رفيقات مدرسة اللغة؟ لِمَ هي قلقة وغير مستقرّة؟ لِمَ لا تحمد ربّها على أمان أوروبا، وأوروبا حلم الكثيرين؟

ألأنّها تشتاق للبيت وممرّاته؟ رائحة الحديقة، ضحى صيف، أبوها في البيت، لديهم ضيوف، يطبخون ويضحكون. تشتاق حتى لأيّام احتفالات المناسبات الوطنيّة المفتعلة، حين كانت وأخواتها يجعلن من برامج التلفزيون مادّة للضحك والمرح، قصّ الشريط والمشاريع التي يُعاد تصويرها عشرات المرّات، يتضاحكون على ثياب وتسريحات المسؤولين، تشتاق للبلد كلّه على بعضه الآن.

ركبت قطار الأنفاق ذاهلة في ذكرياتها، تنظر في ظلمة النفق عبر النافذة السوداء، لا تريد فتح كتاب أو جريدة، تريد أن تستمتع بالعتمة، باللاشيء وتغوص في عتمة نفسها أيضًا. قطع السرحان رنين هاتفها، اتّصال من غالب أخي سماح يخبرها أنّ حال أخيها لا تطمئن، وأنّهم يرونه يجول في شوارع المدينة النائية يكلّم نفسه، وأنّ قضيّة لجوئه رُفضت للمرّة الثالثة، وأنّ أمر بقائه في إنكلترا صار مهدّدًا! راحت تتمتم: يا إلٰهي، أين سيعيش الرجل إن أُخرج من إنكلترا؟ اتّصلت بأخيها مخلص عدّة مرّات، عبثًا، لا يجيب، وعلى الهاتف العام لسكنه يقولون: غير موجود. اتّصلت مع جاره في السكن وتساءلت عن حاله، قال إنّه يكلّم نفسه كثيرًا لكنّه لا يشكّل خطرًا.

لا يشكّل خطرًا!

امتلأت بالغضب، مضت إلى روضة الولد، وفي طريقها تداعت مشاهد وصور كثيرة عن حماة وبيتهم منذ كانت صغيرة وإلى أن غادرت البلاد، صورة أخيها يصعد في سيّارة الصندوق بجلّابيّته الرماديّة، وصورته يودّعهم ليترك البلد ويحرم منها إلى الأبد. صورة أبيها يجلس خائفًا من نشرات الأخبار التي يشعر أنّها تهدّده ليل نهار.. صورة أمّها راكعة بشعر رمادي تقبّل وسط ابنها وهي راجعة إلى بيتها بعد الأحداث.. ووجوه من تبقّى من أهل المدينة تمشي في ساحة العاصي بعد الأحداث تحيّي الرئيس والجيش وتدعو لكلّ من ساهم بتعذيبهم، بطول العمر.

أحضرت فداء الولد من روضته، وحين وصلا إلى الجسر،

راحت تردّد أمامه نحن من سوريا، وبيتنا في سوريا..

راحت من فوق الجسر تردّد عباراتها التي تخصّها وحدها دون غيرها، فيما راح الولد يحسب عدد السيّارات التي تمرّ سريعًا، مسعورة، نظرت فداء في وجه ابنها، عينيه، كفّيه، طوله وقامته، تحاول تثبيت حلم، أيّ حلم، سيكبر ابني، يصبح له رأي.. عبثًا، تعالى صراخ الولد. وكان الحاضر الذي عرفته والذي تراه الآن أمامها هو الماضي وهو القادم، وهو الواقع الحالي الذي لا ترضاه.

رجعت إلى سكنها، ورمت نفسها في السرير وتلحّفت بكلّ أغطية البيت، علّها تدفأ، علّها تنام.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

«عصيّ الدم» رواية عن التاريخ المحرّم لمدينة حماة السوريّة، عبر جمع أطراف الحكايا المتعدّدة لكلّ فرد من أفراد أسرة في هذه المدينة: «مخلص» في إنكلترا، و«أيمن» في السعوديّة، و«فدا» في استوكهولم، بالإضافة إلى بشرى ولينا وسمر وغادة في حلب وحماة. فتظهر في اختيارات كلٍّ منهم أوجاعُ النفس الإنسانيّة وأعماقها الدفينة.

منهل السرّاج روائيّة سوريّة تُقيم في استوكهولم. صدرت لها عدّة روايات: «كما ينبغي لنهر»، و«جورة حوّا»، و«على صدري». نشرت العديد من المقالات التي تتناول الشأن العامّ السوريّ.

ISBN: 978-9953-89-211-5





ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت